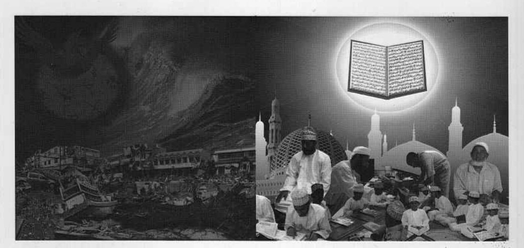
خميس بن راشد العدوي
خالد بن مبارك الوهيبي

الإيمان بين الغيب والخرافة

تطبيقات على

الآية غير المعتادة (=المعجزة)-الكرامة والسنن الكونية-الإلهام-عالم السحر
عالم الجن-الحسد والعين-الدعاء والرقية-التمائم (=الحروز)-النذر والذبح
لغير الله تعالى-الأحلام والرؤى المنامية



مكتبة الغبيراء
الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

الإيمان بين الغيب والخرافة

تأليف:

- خميس بن راشد العدوي

- خالد بن مبارك الوهيبي

الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

مكتبة الغبيراء — هاتف: ٢٥٤١٩٤٢٦

سلطنة عمان — بهلا

ص.ب: ١١٥

الرمز البريدي: ٦١٢

الإيمان بين الغيب والخرافة

خميس بن راشد العدوي

خالد بن مبارك الوهيبي

الفهرس

شكر وتقدير

نتقدم بالشكر والتقدير لكل من أمدنا بالمراجع، ومن فرغ محتويات الأشرطة، ومن ساعدنا في البحث في بطون الكتب، ومن قدم لنا أية خدمة في سبيل إخراج هذا البحث.

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الإيمان للناس سبيلاً، وجعل مسالكه واضحة، وطرائقه سهلة، نابعة من فطرة الله في الكون، متلازمة مع سننه في الوجود.

والصلاة والسلام على النبي الهادي إلى الحنيفية السمحة، فربى الأمة على حقائق الإيمان القائمة في الوجود، ورفع العقول إلى المكانة السامقة من التعامل مع هذا الكون، فلم ينغمس بها في الأوهام، بل طهرها من أباطيل الجاهلية وأدران الوثنية.

والصلاة والسلام على آله وصحبه الكرام، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم يقوم الأنام.

وبعد؛

فالإيمان كلمة نرددها كثيراً، إلا أنها بفعل عوامل الزمن تحولت إلى همهمات وطقوس جعلت من الإيمان قولاً بلا عمل ولا معنى، إن مفهوم الإيمان الذي جاء به القرآن الكريم ومارسه النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته كان حركة في الحياة، وتفاعلاً مع سننها، وبه يتحقق الفلاح في الدنيا والآخرة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ سورة العصر.

فالإيمان الذي تلازم فيه القول والعمل، وقلب المفاهيم السابقة عليه، وقضى على التصورات الجاهلية، وسطّر في سجل البشرية نماذج عملية؛ يعدّ اليوم —في نظر الكثيرين— من المثاليات التي لا يمكن تحقيقها، وما ذلك الوهم بعدم تكرار تلك النماذج إلا لتراجع مبدأ تلازم القول والعمل من الناحيتين النظرية والعملية لدى الكثير من المسلمين.

إن ذلك الإيمان السمح الذي فهمه وتفاعل معه العالِم والإنسان العادي على السواء: قد تاه في الزحام، فغزته الفلسفات العقيمة، واخترقته الإسرائيليات الخرافية، وضيعته الروايات الكاذبة، ففقد صفاءه ونقاءه، وتحول إلى ماديات جوفاء لا روح فيها ولا حياة، إن الكثيرين اليوم –بسبب نظرتهم المادية– لا يتصورون حقيقة الإيمان إلا بوجود جن يتلبسون بالإنسان، ويمكن رؤيتهم، وسحرة لهم قدرات لا حدود لها يفرقون بها بين الناس، ورقى يعالجون بها مختلف الأمراض من السرطان إلى الزكام، وكرامات خارقة هي معيار الولاية والقرب من الله تعالى.

أليست هذه هي المادية البحتة الفارغة من أي وجدان نفسي، والتي لا تعبِّر عن جوهر الإيمان وحقيقته القائمة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؟!. ولو قُدِّم لهؤلاء طرح إيماني من الكتاب العزيز يحفظ منطقة الغيب في عقولهم من تسرب الخرافات والإسرائيليات إليها لعدُّوه كفراً وزندقة.

إن التصورات الإيمانية أصبحت لدى الكثيرين جافة قاحلة، حيث فقدت نفوسهم طراوة الإيمان ونداوته، ولم تعد تشعر بدفئه، فهي لا تؤمن إلا بمادي وهمي يتداخل مع الغيب من قوى خفية وكرامات خارقة، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما طالبه الماديون بالآيات والخوارق ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾ أمره الله تعالى أن يجيبهم ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ الإسراء: ٩٠–٩٣.

وهذا هو السبب في عدم إيمان الناس بالرسالات السماوية، فهم يستنكفون أن يؤمنوا ببشر جاءهم بالهدى والآيات البينات من عند الله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ

جَاءَهُمُ الْهُدَى إلا أنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ الإسراء: ٩٤ ويطالبون باستمرار بالخوارق المادية بدلاً من الآيات البينات التي تنظم لهم حياتهم وتربطهم بخالقهم تبارك وتعالى، ولذا كان القرآن حاسماً في هذه القضية ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ العنكبوت: ٥٠–٥١، فالآية الوحيدة التي أُيد بها النبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه هو هذا القرآن، الذي فيه شفاء الإنسانية من أمراضها التي تئن تحت وطأتها، وعللها التي ترزح تحت ثقلها ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الشورى: ٥٢ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَاراً﴾ الإسراء: ٨٢.

وكذلك لو قيل لكثيرين: إن القرآن الكريم أنزل للناس شفاءً لما في صدورهم من انحرافات عقدية وضلالات فكرية، وشفاءً للمجتمعات من أمراضها الاقتصادية وعللها الاجتماعية، لأصروا على أنه لابد أن يعالجهم من الكسور والحروق والملاريا والكبد الوبائي والضعف الجنسي، ولم يلتفتوا إلى هداية القرآن وتشريعاته التي هي الشفاء الحقيقي للناس مما يعانون، أليست هذه أيضاً هي النظرة المادية الآسنة؟!.

كالعيس في البَيْداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

فحمداً لله أن جعل حرارة الإيمان تنبعث من قلوب المؤمنين من خلال تدبرها لكتابه العزيز، ونظرها في سننه القائمة في الوجود، وله الشكر أن جعل هذه الأمة مكتفية بالقرآن العظيم، ومقتفية هدي نبيه الكريم، وجعل قلوب العارفين موقدة بزيت الفطرة الربانية لا بزيف الخزعبلات الخرافية.

وهذه الرسالة التي نضعها بين يدي القارئ الكريم نأمل أن تعالج بإذن الله هذه القضايا من خلال تناولها قسمين رئيسين هما:

– القسم الأول: القواعد العامة للتعامل مع عالمي الغيب والشهادة، مستقاة من ينبوع الهداية الربانية كتاب الله المجيد، مع تذييل بمبحث في الآثار السلبية التي تخلّفها الخرافة.

– القسم الثاني: التطبيقات التفصيلية على هذه القواعد؛ وتشمل موضوعات: الآيات غير المعتادة، والكرامة، والإلهام، والسحر، وعالم الجن، والدعاء والرقية، والحسد والعين، والتمائم، والنذر والذبح لغير الله، والرؤيا المنامية، وغيرها من الموضوعات.

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، رابطاً الإنسان بربه اللطيف الرحيم، مقتلعاً من أذهان الناس ما علق بها من أقاويل ليس عليها أمر الله تعالى القائل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ آل عمران: ٨٥، ولا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[1]. والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

خميس بن راشد العدوي

خالد بن مبارك الوهيبي

---

١ الربيع (٥٠).

القسم الأول

القواعد العامة في ضبط الإيمان بالغيب

تمهيد

من أصول الإيمان وأركانه التسليم بالغيب، لذلك عدَّ من أخص صفات المؤمنين، فالإيمان لدى جميع المؤمنين هو الذي يحرّك وجودهم الإنساني، وتتفاعل معه جوارحهم بحسب انعقاده في قلوبهم، ولذلك جاءت الشرائع الإلهية لتصحيح هذه القضية عندما كانت البشرية تنغمس في جاهلية جهلاء من الأوهام والخرافات.

والمسلمون وهم يعبرون هذه المرحلة من الزمن التي تعد منعطفاً حضارياً في تاريخ الإنسانية قاطبة –وقد ناط الله بهم قيادة الإنسانية– عليهم أن يراجعوا مناهجهم، وأولى هذه المراجعات هي مراجعة قضية الإيمان بالغيب، فالإيمان بالغيب أمر لابد منه، به يتميَّز المسلم عن غيره، فالذي يؤمن بالغيب حق الإيمان هو المؤمن حقاً، وبقدر ابتعاد الإنسان عن حقائق الغيب نراه قد نأى بعيداً عن حظيرة الإسلام، وعندما تستقيم المفاهيم لدى المؤمن فإنه يبدع عطاءً وخيراً، ويؤتي هذا الخير لنفسه وللإنسانية من حوله.

ولكن ما نراه في كثير من الأحايين أنه قد تداخلت لدى المسلمين –فضلاً عن غيرهم– حقائق الإيمان بالغيب مع الأوهام والخرافة، وبالتالي لابد لنا من أن نقف وقفة صادقة حول المنهج الشرعي لعلاج هذه المشكلة، وقد تتبعنا الكثير من مظاهر الخرافة فوجدنا أن الإعلام الهادر يبثها في عقول البشر بصورة منظمة، فهي ليست أوهاماً اعتباطية تأتي كيفما اتفقت، وإنما هي أوهام مبنية على عقيدة خرافية موجهة، تظهر للإنسانية في كل فترة من الفترات بثوب معين، فهي قد ظهرت عند بني إسرائيل، وحُرفت على مقتضاها الكتب السماوية، ثم ظهرت عند المسلمين؛ وأدخلت على صورة الإسرائيليات باسم الحديث والرواية إلى منظومة هذا الشرع الحنيف.

في وقتنا هذا وجدت ظاهرة الأيديولوجيا الوثنية والإسرائيلية بروزاً ظاهراً عبر أحلى المشاهد وأجمل اللقطات في الإعلام المرئي[١]، (وقد يكون لهذه الخرافات جذور قديمة، لكنها اتخذت نغمة أخرى لتساير عصرنا هذا، ومما زاد في الطين بلة أن الغالبية العظمى من أجهزة التثقيف والإعلام عندنا، وفي كثير من دول الشرق والغرب أيضاً، ما زالت تروج للعديد من الخزعبلات أو المزاعم الضارة، فبدلاً من أن تكون أداة توجيه وترشيد، وتحكيم بين الغث والسمين، والحق والباطل، والصواب والخطأ، بدلاً من ذلك نراها تنشر بين الناس مزيداً من أمور الدجل والشعوذة والظواهر الشاذة، وتحاول ربطها بعلومنا الحديثة)[٢].

وبدلاً من أن نقف بالنقد الواعي ضد هذا السيل الهادر من الخرافة إذا بنا في بعض الأحايين نستند إليها، ونؤيد ما عندنا من خرافة بتلك البضاعة المزجاة، التي تُبث عبر القنوات التي تدخل جميع البيوت، وأصبح من معالم التدين أن يروج لمثل هذه الأوهام، ولا نستغرب إن سمعنا إنساناً يصوّر وهماً تخيّله في ذهنه بأنه كرامة لمؤمن من المؤمنين.

وتتغير المفاهيم وتتقلب التصورات وتتزيّا بحسب الزيّ الذي يوجد في البيئة، وإذا بالذي يتخيَّل بالأمس سحراً يتوهم اليوم أنه كرامة ناقضة لسنن الله!، ويجادل عن ذلك المجادلون بدون الرجوع إلى مناهج الحق.

والإيمان بالغيب حقيقة قائمة لا يمكن أن يرفضها عاقل، أو ينكرها الحس —رغم كونها غائبة عن ملامسة حواسنا إياها— فهي منبثة في كل خلية من خلايا أجسادنا، وفي كل ذرة

---

١ مثال ذلك سلسلة روايات (harry potter) التي حولتها السينما إلى أفلام حققت أعلى الإيرادات، وكذلك سلسلة (lord of the rings) التي تحكي صراعاً في عالم سحري لا يمت بصلة إلى عالمنا.

٢ عبدالمحسن صالح "*الانسان الحائر بين العلم والخرافة*" ص٩.

من ذرات وجودنا، وعلينا أن نميّز هذه الحقيقة عن الخرافة التي هي اللاغيب، وإنما هي مجرد أوهام تستجلب من دائرة العدم لتضاف إلى الغيب باسم الدين.

وقد استجلينا من خلال النظر في كتاب الله المجيد إحدى عشر قاعدة، تضبط لنا مفهوم دائرة الغيب:

القاعدة الأولى: الإيمان بالغيب من مقتضيات النجاة عند الله تعالى في الآخرة.

القاعدة الثانية: الإيمان بالغيب يورث الخشية وهي مقترنة به، وعاصم من المعصية.

القاعدة الثالثة: الإيمان بالغيب من ابتلاء الله تعالى لعباده.

القاعدة الرابعة: الأمور تنقسم إلى عالمين: عالم الشهادة، وعالم الغيب.

القاعدة الخامسة: الغيب هو كل ما غاب عن الإنسان، وعجز عن إدراك ذاته.

القاعدة السادسة: الله تعالى يعلم كليات الأمور وجزئياتها.

القاعدة السابعة: العقل يقف عند حدِّه في علم الغيب؛ وهو التسليم.

القاعدة الثامنة: الغيب لا يطلع عليه أحد من البشر؛ إلا ما يكون عن طريق الوحي فقط.

القاعدة التاسعة: الجن لا يعلمون الغيب، ولا تجوز عبادتهم.

القاعدة العاشرة: السحرة لا يعلمون الغيب، ولا يستطيعون أن يغيروا من حقائق الأشياء.

القاعدة الحادية عشرة: قانون السببية أحد سنن الكون، وهو من خلق الله ويسير بحفظه وتدبيره.

هذه القواعد لو تمعّن فيها الإنسان وجعلها منهجاً في حياته ؛ لاستطاع أن يتجاوز الأوهام التي قد تخترق عقله فيما يتعلق بعالم الغيب، وهذا الاختراق يحدث غالباً عن طريق التدين الساذج، وما أكثره ؛ وهو فهم الإنسان الخاطئ للدين، وذلك عندما يرفع هذه التصورات الظنية إلى مقام الاعتقاد، أو يرضخ لها فيقع تحت وطأتها في مسير حياته.

وقبل شرح هذه القواعد نريد أن ننبه أن هناك الكثير من الكتب والمحاضرات التي تصنع الأوهام والخرافات بأساليب مختلفة، غالباً باسم الدين، وحيناً باسم العلم، وتارة باسم السحر، وغير ذلك، ولأن العقل المسلم -في معظمه- يعيش سادراً في الوهم، تجد أكثر الأشرطة والكتب مبيعاً في المعارض هي الكتب التي تروج لهذا الوهم، كالكتب التي تتحدث عن السحر الأسود، وحوار مع جني، وكتب قصص الكرامات، وغير ذلك من نوع هذه الكتب الصفراء الهزيلة، التي يؤكل بها أموال الخلق سُحتاً وظُلماً.

وهؤلاء هم القُصاص الذين حذّر منهم العلماء، وهم الذي عناهم أبو محمد عبدالله بن محمد بن بركة عندما قال: (وأن الأمر فيها لم يكن على ما يأتي به الجهال من القُصّاص، ولا ما يرويه بعض أهل الحديث عن جهلة أهل الكتاب)[1].

وإليك أيها القارئ الكريم تفصيل هذه القواعد:

١ ابن بركة "الجامع" ج١ ص٢٢٩ .

القاعدة الأولى: الإيمان بالغيب من مقتضيات النجاة عند الله تعالى في الآخرة

هذه حقيقة مسلّمة عند كل مؤمن، لا يجتاز الإنسان دخولاً إلى حظيرة الإيمان إلا بعد أن يؤمن بالغيب، فيؤمن بوجود الله وملائكته وكتبه وأنبيائه واليوم الآخر، ويؤمن بالأحداث التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وبسائر الغيبيات السمعية إذا قامت عليه الحجة بالعلم بها.

هذه الحقائق هي التي يجب أن ترسخ في عقل المؤمن، وإذا انخرمت من ذهنه فهو إلى البوار والهلاك والعياذ بالله.

وأول ما يطالعنا من كتاب الله العزيز قضية الإيمان بالغيب، فعندما وصف الله تبارك وتعالى المتقين، فأول ما وصفهم به أنهم يؤمنون بالغيب، وهو يأتي قبل الصلاة والزكاة حيث يقول: ﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ البقرة: ١-٣.

(إن نقطة الإيمان بالغيب هي مفترق الطريق بين فئتين من الناس:

فئة انحبست وتقوقعت في مضيق مظلم من هذه الحياة، بحيث لا تعرف منها إلا هذه المرحلة القصيرة، التي تبدأ بالميلاد وتنتهي بالوفاة، ولا تعرف لهذا الوجود أبعاداً إلا ما وقعت عليه الحواس.

وفئة أخرى هي بخلاف ذلك، تدرك أن الحياة لا تنحصر في هذه المرحلة القصيرة، وأن وجود الإنسان سيمتد –بمشيئة الله– إلى ما بعد هذه المرحلة من العمر، بحيث يتجدد هذا الوجود مرةً أخرى، ويلقى كل إنسان جزاء ما قدم في الدنيا، خيراً كان ذلك أو شراً،

ولا ينحصر علمها ومعرفتها بهذا الوجود فيما وقعت عليه الحواس، إذ تدرك تمام الإدراك أن وراء هذا العالم عوالم، وأن وراء هذه العوالم بأسرها من خلقها فسواها)[١].

و(الإيمان المطلوب هو الإيمان العميق الذي يتحرك في كل نبضة من نبضات الإنسان، فيوجه كل حركة من حركاته الباطنة والظاهرة، إن هذا الإيمان هو الذي يقود الإنسان إلى سلامته في الدنيا وسعادته في العقبى، وهو الذي يحدد له المنهج الصحيح الذي يجب أن يلتزمه في حياته، وهو الميزان الحق الذي يميّز به بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين النافع والضار، وبين الصالح والفاسد)[٢].

١ أحمد بن حمد الخليلي "**الدين الحياة**" (غير منشور).
٢ **المرجع السابق**.

القاعدة الثانية: الإيمان بالغيب يورث الخشية؛ وهي مقترنة به، وعاصم من المعصية

يقول الله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ق:٣٣، أي أن الإنسان الذي ينجو عند الله هو الذي يخشاه بالغيب، وخشيته تعالى بالغيب هي أن تخشاه وأنت موقن بوجوده وسيطرته على هذا الوجود بأسره، وأنه قد رتب على العمل وعداً ووعيداً تمثل في الجنة والنار، وأنه تعالى صادق في وعده ووعيده، عندما تستقر هذه العقيدة في نفس الإنسان، ويجعلها نصب عينيه ستكون له عاصماً عن المعصية بإذن الله،

فإذا عصى الله تعالى ومات ولم يتب فهو خالد مخلّد في النار والعياذ بالله، وإن مات وهو على طاعة الله فإنه يخلد في جنة عرضها السموات والأرض، وهذه العقيدة كفيلة أن تردع الإنسان عن الغيّ وتستقطبه إلى الخير.

ولكل جزئية من جزئيات الإيمان بالغيب أثرها على النفس الإنسانية، حيث ينقلها من وهاد المعاصي والضلال إلى ربوات الاستقامة والالتزام بالحق.

فـ(الإيمان بالله هو التصديق الجازم بمن أبدع هذا الوجود بأسره الذي لم يشاركه غيره في خلق ذرة منه، وهو وحده الذي يصرّف كل شيء؛ إيجاداً وإعداماً، وعطاءً ومنعاً، ورفعاً وخفضاً، فما من شيء في الوجود إلا وهو تحت قهره، يتجلى في كل موجود وجوده؛ لأن الكائنات بأسرها شاهدة عليه ودالة على افتقارها إليه، وما بالإنسان من نعمة فيه بنفسه، أو كانت من حوله، سواء كانت متصلة به أو منفصلة عنه، وسواء كانت ظاهرة أو باطنة، فإنها منه تبارك وتعالى وحده، وعندما يفتح الإنسان عينيه على مشاهد هذا الوجود؛ يجد تجليات قدرته وعظمته وعلمه وحكمته تطالعه من كل مشهد من هذه المشاهد التي لا يحصيها إلا الله وحده، سواء ما دق منها وما جلّ، فمن الذرات الدقيقة إلى المجرات الواسعة، تتجلى آيات الله تعالى الدالة عليه وعلى صفاته العظيمة،

وذلك يعني أن إيمان المؤمن به تعالى إنما يرتبط بتجليات الكون بأسره، وهذا من شأنه أن يجعله حريصاً على الانسجام مع نظام الكون؛ الذي يسبّح كل شيء منه بحمد الله، ويخضع له في أمره ونهيه خضوعاً لا تحده حدود، ومعنى ذلك أن تصديقه بوجود الله سبحانه ما هو إلا وسيلة لغاية كبرى وهي الخضوع المطلق لكبريائه، والوقوف عند حدوده، والشعور بأن ذلك هو حق الربوبية القاهرة على العبودية المقهورة، وضريبة المخلوقية للخالق العظيم الذي أسبغ على هذا المخلوق الضعيف الذليل المفتقر ما لا يدرك قدرَه تصورُ المخلوقين من هباته الواسعة وألطافه الغامرة.

وبهذا يتبيّن أن إيمانه بربه –وإن كان أساسه التصديق بوجوده تعالى– هو وسيلة لمقتضيات هذا التصديق، كيف وإيمانه به يجعله موقناً أن مبدأه منه ومنقلبه إليه، وأن كل ما في هذا الوجود لا يملك له نفعاً ولا ضرراً دونه، وأنه تعالى من بره به وفضله عليه لا يوجهه إلا إلى خير، ولا يحذره إلا من شر، فالخير كل الخير في استمساكه بالعروة الوثقى من طاعته، ومجانبة ما نهاه عنه من مكروهاته)[1].

وكذلك الإيمان بالملائكة يورثه الخشية من الله الذي خلق هذه الكائنات الطائعة، فلا تفتر عن عبادته سبحانه وتعالى ولا تعصيه، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ الأنبياء: ٢٦–٢٨، وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ الأنبياء: ٢٠، وقوله: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم: ٦، (فما بال هذا الإنسان الضعيف العاجز الذليل الذي لا توازي قدراته شيئاً مما أوتي الملائكة من الطاقات الهائلة يجترئ على ربه فيعصيه جهاراً، كأنه لا يرجو منه حساباً، ولا يخشى من جانبه عقاباً، أليس إيمانه هذا بعالم الملائكة جديراً به بأن يستجيش من أعماق نفسه ما سكن

١ أحمد بن حمد الخليلي "*برهان الحق*" ج١. (غير منشور).

من خشيته لربه، ويبعث في نفسه عزائم الإيمان والتقوى، حتى يتأسى بالملأ الأعلى في الطاعة والانقياد لرب السموات والأرض؟!)[١].

(ومن المعلوم أن جميع المرسلين ضربوا أروع الأمثال في خشية الله والخشوع له وحسن عبادته، والانقياد له في أمره ونهيه، والتضحية بكل راحة في حياتهم؛ بل بحياتهم كلها، من أجل إبلاغ دعوة الحق وهداية الناس إليه، وإنقاذهم مما هم واقعون فيه من الكفر والضلال والبغي والعدوان، فما على من آمن بهم إلا أن يتجرد من جميع صفاته الشائهة البالية، ويتجلل أزهى الحلل من صفاتهم العالية، بحيث يجرد حياته للحق استمساكاً ونصرة ودعوة، ليكون إيمانه بهم حياً يتحرك في عبادته وأخلاقه وسلوكه ومعاملاته، على أن أولئك الرسل جميعاً -لا سيما محمد صلى الله عليه وسلم- بفضائلهم الجمة وفواضلهم الدافقة هم أولى بأن يأخذوا بمجامع قلبه، ويستولوا على فكره ومشاعره، وما من ريب أن ذلك من دواعي الاقتداء كما سبق، ومن اقتدى بهداهم فإنه يحيا على الصراط المستقيم، فلا تزيغ به الأهواء، ولا تنحرف به السبل، ولا تتعثر به الخطى، وبهذا يتبين أن الإيمان بهم ليس أمراً نظرياً، وإنما هو منهج رباني يجمع بين حافتيه ما بين خيري الدنيا والآخرة، وهذا ما يوحي به قوله تعالى بعد ذكر طائفة من المرسلين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الأنعام: ٩٠، وقوله فيمن كان أولهم بقدره وآخرهم بزمانه عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب: ٢١، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا

١ المرجع السابق.

﴿فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ النساء: ٦٥، وبهذا يتبيّن أثر الإيمان بهم في حياة المؤمن النفسية والاجتماعية)[١].

(أما الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله فهو إيمان بنور الله المنزل على صفوة خلقه للهداية إلى الخير، وتبديد ظلمات المعتقدات الضالة من قلوب الناس، ووصل هذه القلوب ببارئها تعالى، ومعنى ذلك أن الإيمان بها هو ترجمتها في واقع حياة المؤمن، فعلاً وتركاً، وقبولاً ورفضاً؛ إذ لم ينزل الله تعالى كتاباً منها لمجرد التلاوة، بل للتدبر والإمعان، والهداية والإتباع، وقد اجتمع ما فيها من هدى وبصائر ونور وحكمة في القرآن الكريم، المنزل على خاتم النبيين عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم؛ لأنه المهيمن عليها جميعاً، وقد حفظه الله من أيدي العابثين، وصانه من كيد الكائدين، فلم يزل نوره يتألق لم تطفئ جذوته القرون بتعاقبها، وما تموج به من فتن، وما تزخر به من أطوار، وإنما زاده ذلك كله إشراقاً في نوره، وقوة في دليله، وحجة في إعجازه، فمن استمسك به فقد استمسك بما أنزل الله، وحقق إيمانه بكتبه، ومن فرّط فيه خسر الخير كله وساء منقلبه، فقد قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ طه: ٩٩-١٠١، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ طه: ١٢٤-١٢٧)[٢].

---

١ المرجع السابق.
٢ المرجع السابق.

وكذلك (الإيمان باليوم الآخر؛ هو أن يمتليء فكر المؤمن ووجدانه بمشاهد ذلك اليوم، حتى تكون كأنما هي أمام ناظريه، فيرى بأم عينيه كيف ينجو الناجون بما كان لهم من سابقة الخير، ويهلك الهالكون بإهمالهم أنفسهم، وتعطيلهم وما آتاهم الله من عقل وحس، حتى طمسوا نورهما بإيثار شهواتهم وأتباعهم هواهم، وهذا الإيمان هو من أقوى العوامل في ضبط اتزان النفس وتوجيه رغباتها، والسيطرة على انفعالاتها وشهواتها، حتى لا تشتط بها عن النهج السويّ.

ولئن كان الإيمان بالله مبدأ الانطلاق في ميدان الخير، وأقوى حافز للنفس إلى الاستمساك بالحق واتباع الرشد، وأعظم واق من الزيغ عن سواء الصراط، فإن الإيمان باليوم الآخر يليه في هذا المزايا، ولذلك كان قرينه في الذكر في مقام الترغيب والترهيب، والتأكيد على الأمر والنهي كما سبق ذلك؛ لأن الإيمان بالله إنما هو الإيمان بواهب الوجود، المنعم بما دقَّ وجلَّ، مما يدرك المؤمن افتقاره إليه، واستقرار حياته به، إذ كل ما بنفسه وما كان منفصلاً عنها مما هو في الأرض أو في السماء من هبة روحية أو مادية إنما هي منه تعالى، وهذا وحده كافٍ لدفع الإنسان إلى السباق في مضمار الخير، وتجنيبه الوقوع في مزالق الشر، ولكن للنفس انفعالات شتى لمؤثرات متنوعة؛ منها ما يعود إلى الرغبة، ومنها ما منشؤه الرهبة، وقد يكون الدافع إليها نزوة عارمة، تعود إلى إشباع النفس مما أنبسط لها من شهواتها، وإن كانت وبيئة سامة، أو انفعالاً هائجاً ينسي الإنسان علائقه ببني جنسه، فينقلب عليهم وحشاً ضارياً ما له من همٍّ فيهم إلا الانتقام، وهذه المؤثرات كثيراً ما تحجب عن النفس نور إيمانها بربها، فلا يبقى له أثر في توجيهها، ولكن عندما يقترن هذا الإيمان بالإيمان باليوم الآخر تضعف هذه المؤثرات السلبية عن الحيلولة بين النفس وما فيه خيرها، إذ لهذا الإيمان أقوى الأثر في تحرير النفس من أسر شهواتها الجامحة وانفعالاتها الطائشة، وفي تقييد رغباتها حتى لا تخرج بها عن نهج الاعتدال، الذي ينفع ولا يضر، ويبني ولا يهدم، وهو سر أن يكون الإيمان باليوم الآخر رديف الإيمان بالله،

يذكران معاً في مقام حفز همم الخير في النفس، ولتثبيط دوافع الشر وبواعث السوء؛ التي لا تنشأ إلا بما يطرأ عليها من المؤثرات التي تعميها عن حقيقة أمرها وقدر مسؤوليتها ورسالة حياتها)[1].

وهكذا بقية قضايا الغيب، فما من قضية إلا وأثر الإيمان بها ينعكس على قلب المؤمن خشية من الله تعالى؛ خوفاً من عقابه ورغبة في ثوابه، فيورث الجوارح عصمة من المعاصي، وبعداً عن الفحشاء، ويلزمها الخير طول حياة صاحبها.

١ المرجع السابق.

القاعدة الثالثة: الإيمان بالغيب من ابتلاء الله تعالى لعباده

ربما يتساءل الإنسان ويقول: إذا كنتُ لا أحس بالمغيبات، فلماذا يطالبني الله تعالى أن أؤمن بها؟!.

نقول له: هذا هو الابتلاء؛ ليتميَّز المؤمن عن سواه عندما يكشف الله عزَّ وجلَّ له حقيقة من الحقائق، فالضال هو الذي يماري في الحقائق التي ذكرها الله وبرهن عليها من خلال النظر الكوني، والإنسان إن سلّم في هذا الجانب سيتبعه بالتسليم لله في بقية التشريعات التي جاءت من عنده، وإذا صدف الإنسان عن هذه الحقائق، ونأى عنها جانباً، فبكل تأكيد سيكون أنأى وأصدف عن الالتزام في الجانب العملي؛ لأن الجانب العملي إنما هو فرع عن الجانب الإيماني.

ولذلك لاحظوا الربط بين العمل والاعتقاد في كتاب الله العزيز ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المائدة: ٩٤، فالله جلَّ شأنه ابتلى المؤمنين في حال إحرامهم بالصيد؛ تناله أدوات الصيد.

فما الذي يحرّم هذا العمل والصيد في ذاته مباح؟.

والجواب: ذلك ابتلاء من الله ليعلم من يخافه بالغيب.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ فاطر: ١٨، إذن هنا الإنذار الذي يجدي في الذين يخشون ربهم بالغيب، وتظهر هذه الحقيقة فيما لو خلا الإنسان بنفسه.

فالتاجر مثلاً إن خلا بنفسه ورأى أنه بعيد عن معرفة الناس بتجارته ؛ هل سيغش؟ إن غشّ فهو لم يخشَ الله بالغيب.

وكذلك الطبيب وهو يمارس مهنته التي لا يعرفها كثير من الناس، هل سيغش مرضاه؟ وهل سيغش في مهنته؟ إن غشّ فهو لم يخشَ الله بالغيب.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ الأنبياء:٤٩، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ يس:١١، كل ذلك دفع بالإنسان إلى حظيرة الخشية من الله، مرة بتذكيره بيوم القيامة، ومرة بتذكيره بالساعة والإشفاق منها، وأخرى بتبشيره بمغفرة من الله وأجر كريم.

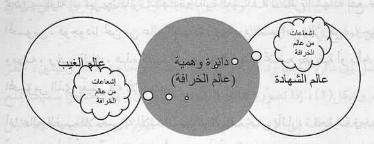
القاعدة الرابعة: الأمور تنقسم إلى عالمين: عالم الغيب، وعالم الشهادة

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ التغابن: ١٨، ويقول: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجمعة: ٨، ويقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ الرعد: ٩.

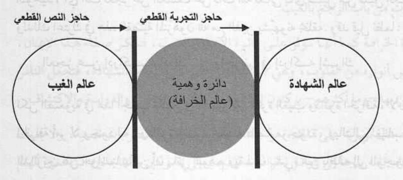
علينا ونحن ندرس دائرة الغيب أن نتصوّر ثلاث دوائر:

- دائرة الشهادة: وهي حقيقة قائمة خاضعة للحس.
- دائرة الغيب: وهي حقيقة قائمة أيضاً، ولكنها لا تقع تحت طائلة الحس مباشرة.
- دائرة الخرافة: وهي دائرة وهمية تجاور هاتين الدائرتين، لا رصيد لها في الواقع.





شكل (١): دائرة الخرافة وتسربها إلى عالمي الشهادة والغيب بسبب غياب حواجز النص القطعي والنظر الكوني



شكل (٢): حواجز النص القطعي والنظر الكوني في الفصل بين الدوائر حتى لا تتسرب الخرافة إليها

يمكن بسهولة أن نميّز بين دائرة الشهادة ودائرة الغيب ؛ لأن دائرة الشهادة تقع تحت طائلة المحسوس ، فوجودنا نحن من عالم الشهادة ، ووجود السموات والأرض ، وحياة الإنسان وموته ، وغير ذلك ، هذه كلها من عالم الشهادة تخضع بطريقة أو بأخرى للعالم المحسوس الذي يعيش فيه الإنسان.

أما عالم الغيب فلا يحس به الإنسان مباشرة ، إنما يحس بآثاره ، فحقيقة وجود الله تملأ كياننا اضطراراً ؛ بحيث لا يمكن أن ندفعها عن أنفسنا ، ولذلك قال محققو الأمة : إن الإيمان بالله تقوم حجته من العقل ، بحيث إن الإنسان لو لم يصله النقل لكان ملزماً أن يؤمن بالله ؛ لأنه حقيقة تملأ كيانه ، وتنبض بها كل خلية من خلاياه ، مع أنه من المعروف يقيناً أن ذات الله جلّ وعلا لا تُدرك ، والعجز عن إدراك ذاته هو الإدراك الحقيقي لحقيقة التوحيد ، أي أنك تعجز عن الكشف عن ذات الله تعالى بأي سبيل من سبل الكشف ، ولذلك اعترك في هذه القضية المنزّهون لله مع الذين يشبّهونه بخلقه. وقد قيل نظماً :

العجز عن إدراكه إدراك والخوض في إدراكه إشراك

لكن الصعوبة في هذا الجانب تكمن في التمييز بين دائرة الغيب ودائرة الخرافة ، لأن دائرة الخرافة أمر لا وجود له ، ودائرة الغيب حقيقة قائمة موجودة ، وبالتالي لغياب هاتين الدائرتين عن حواسنا يمكن أن يأتي الوهم ويقذف بشيء من باطله إلى الوجود الحقِّ المغيّب فتنخدش دائرة الإيمان بالغيب في قلوبنا ، فالله تعالى واحد أحد ، فرد صمد ، حقيقة قائمة ، لكن وهم النصارى أدّى بهم إلى أن يقولوا بأن الله ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وكذلك لو أتينا إلى تنزيه الله عزَّ وجلَّ ، فهو تعالى لا شبيه له ولا نظير ، لا تدركه الأبصار والحواس ، هذا هو جوهر الحقيقة ، لكن عندما تتسرب أوهام من التجسيم

والتشبيه باسم الدين إلى هذه الدائرة ينخرم لدينا الإيمان بالغيب، وبالتالي يؤدي بالإنسان إلى الوقوع في تشبيه الله تعالى وتجسيمه.

والذي يفصل بين دائرة الغيب ودائرة الخرافة ويميّز بينهما هو حاجز القطع واليقين، انظر شكل(١)، وشكل(٢)، إذا تصوَّرنا هاتين الدائرتين فلنتصوّر بينهما حاجزاً سميكاً يمنع تسرب إشعاعات الخرافة إلى الإيمان بعالم الغيب، ولا يجوز الرجم بالغيب دون دليل حاسم وحجة قاطعة، قال تعالى ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً﴾ الكهف: ٢٢، فأرجع الله علم عدد أصحاب الكهف إليه، وعدَّ ما يتناقله الناس عنهم من أقاويل وروايات من باب الرجم بالغيب.

ودائرة الخرافة كما أنها تؤثر على دائرة الإيمان بالغيب، فتعكر صفاء هذا الإيمان، وتطمس أنواره من القلوب، وهي كذلك تؤثر على دائرة العلم بالشهادة، فتجعل الناس المتأثرين بها —وما أكثرهم— يركنون إلى الوهم، بدلاً من البحث والدراسة والاكتشاف.

وأبسط مثال نضربه على ذلك، هو عندما يصاب شخص باضطرابات نفسية، ولا يعرف أسبابها، فإنه يلجأ إلى دوائر الخرافة، فيذهب إلى العرافين والدجالين الزاعمين أنهم يعرفون التعامل مع الجن، ويستطيعون إخراجهم، وبعضهم وللأسف الشديد يلبسون لبوس الدين، وكان يجدر بهذا المصاب أن يبحث له عن العلاج من أبوابه المشروعة، وهي التداوي عند أولي الاختصاص كأطباء البدن أو أطباء النفس ونحوهم.

ولنرتق من هذا المثال إلى مثال آخر قد يكون أكثر أهمية، فطالب العلم الذي يعيش في مجتمع تسوده الخرافة ويتربى على مفرداتها، ويتمنهج عقله وتفكيره عليها، كيف

سيكون إنتاجه؟ وماذا سيبدع فيما لو تخصص في الطب مثلاً؟، لا ريب أن أطنان الخرافة التي أثقلت ذهنه سوف تحجب عنه أي بادرة للإبداع والاكتشاف والاختراع.

وعندما يلتحق بمعاهد العلم العالمية، فإنه يجد نفسه بين سبيلين –قد لا يكون لهما ثالث عنده– فإما أن يعطل ذهنه ويفشل في الإبداع العلمي والتطور المعرفي، وإما أن يرمي الخرافة جانباً، ويرمي معها بطبيعة الحال الإيمان بالغيب، لأنه نشأ على تلازمهما، وحشي عقله منذ نعومة أظفاره على عدم التفريق بين الغيب والخرافة، فينفك عن ربقة الإيمان، أو على أقل تقدير سيكون علمانياً يضع الدين في المسجد ولا يصطحبه إلى المعمل والعمل، وهذا أحلى الأمرَّين!.

ولذلك كان لزاماً علينا أن نفرق بين دائرة الشهادة وعالمها وبين دائرة الخرافة بحاجز صلب من النظر الكوني، وقواعد البحث العلمي، وبراهين العقل، ودلالات العلم، ولا نركن في قليل ولا كثير إلى الأوهام والظنون والخزعبلات.

(لذلك كان مهيع[1] السلامة هو الاعتماد على النصوص الشرعية القطعية الثبوت والدلالة، والاستبصار في معرفة حقائقها ببصيرة العقل الهادي إلى الحق، فأنتم ترون أن الله سبحانه وتعالى لّما أخبر عباده بأعظم حقيقة من حقائق الوجود وهي وحدانيته أحالهم في بيان حجتها على دلائل العقل المستلهمة من النظر في نظام الكون الباهر، فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة:١٦٣، ثم أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة:١٦٤، وقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء:٢٢،

---

١ مهيع: سبيل وطريق.

وقال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ النمل: ٥٩-٦٤، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إبراهيم: ١٠، ففي هذه الآيات جميعاً يؤكد الله تعالى حجة الحق الدالة على وحدانيته بما فيه إحالة على إدراك العقل السليم»[1].

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "برهان الحق" ج١.

القاعدة الخامسة: الغيب هو كل ما غاب عن الإنسان، وعجز عن إدراك ذاته

كل ما غاب عن علمك ولم يظهر لك فهو غيب، من هذا يتبيّن لنا أن هناك درجات وحلقات للغيب، وعلينا قبل ذلك أن نعرف يقيناً بأنه لا يجوز لنا أن نتكلم في دائرة الغيب بالظن حتى لا تسري إليها الأوهام، فلابد من القطع، والقطع يحصل بالتواتر في النقل، وبكون اللفظ لا يحتمل إلا معنى واحداً، أي أنه محكم وليس بمتشابه، والمتشابه ذو الدلالات المتعددة يردّ إلى المحكم، قال الله تبارك اسمه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ آل عمران: ٧.

وقوله سبحانه: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يعني (أنها الأصل الذي يجب أن يرد المتشابه إليه، فإن أم الشيء منبته وأصله، وما كانت المحكمات أماً للكتاب إلا لوضوح دلالتها ووجوب الأخذ بها، ورد ما أوهم خلافها إليها، فالمتشابهات فروع لها لا يمكن أن تجانفها في دلالتها، وهذا هو الأصل في التأويل الصحيح لمتشابه الآيات والروايات وفق ما تقتضيه محكماتها)[1].

(ولئن كان العقل والشرع هما ينبوع الهداية، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر لما يؤدي إليه من تعطيلهما معاً، فإن أدلة الشرع المعوّل عليها في هذا الجانب –أي جانب رسوخ الإيمان– يجب أن تكون أدلة قطعية في متونها ودلالاتها، لأن الإيمان ثمرة اليقين، ولا يكون اليقين إلا بدليل قطعي، لا يحتمل خلافاً في المعنى، ولا شكاً في الثبوت، وما من ريب أن القرآن الكريم هو المصدر الشرعي الوحيد الذي لا يشك في ثبوت شيء منه، لتواتر جميع نصوصه تواتراً لم يرق إليه تواتر أي شيء مما نقل عبر حلقات الرواية، فمنذ نزوله على قلب النبي صلى الله عليه وسلم تلقاه منه الرعيل الأول، ثم تلقاه عنهم من

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "*جواهر التفسير*" الجزء الخاص بتفسير الآية السابعة من سورة آل عمران، ص٢٦–٢٧.

بعدهم من التابعين، وهكذا تسلسل نقله محفوظاً مصوناً من أيدي العابثين وألسنة المحرفين، فلو حاول أي أحد أن يضيف إليه ما ليس منه أو ينقص منه ما هو منه؛ لهاجت الأمة استنكاراً واستنفاراً بجميع فئاتها وطاقاتها؛ من أجل درء هذا الخطر عن كتاب الله المصون، لذلك كان الكتاب العزيز هو الحجة التي لا يرقى إليها أي دليل آخر)[1].

وعبّر علماء الأمة عن حقائق الإيمان والاعتقاد بالعلم، ولذلك نقرأ في كتب علم الكلام بأن الآحاد لا يفيد العلم، أيْ أخبار الآحاد التي تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويتفرد بنقلها آحاد الناس لا تفيد علماً؛ لأنها ظنية الثبوت، فإن كانت الأخبار التي تسند إلى رسول الله عليه السلام ولو كانت مروية بسند صحيح لا تعتبر في هذا الباب، فكيف إذا جاءت الأخبار عن العالِم -وهو حتماً أدنى منزلة من الرسول الكريم- مما يخدش دائرة الإيمان بالغيب مجتلبة من وكالة "قالوا للأنباء"؛ أخبرونا بأن فلاناً نقل الفلج[2] الفلاني من البقعة الفلانية إلى المكان الفلاني، أو قالوا: إن فلاناً من الناس ظهرت له كذا من الكرامات المعارضة لسنن الله.

نحن نحمد الله تعالى على أن رزقنا العقيدة الصافية، فلا نشبه الخالق بالمخلوق، ولا نشبه المخلوق بالخالق، وننعى على الذين رفعوا بعض الناس من درجة المخلوقية ووضعوهم في درجة الخالقية، وننعى على أولئك الذين يؤمنون بأن هناك إنساناً مغيَّباً مختفياً يسيطر على هذا الكون، وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً، وننعى على الذين يؤمنون بحكومة الكون الخفية التي تسيّر الحياة ومفرداتها الظاهرة للعيان، والتي يديرها الأقطاب والأبدال والأوتاد، ولكن عندما نأتي إلى عالم الأقاصيص والروايات والحكايات؛ يساق لنا ما يناقض هذه العقيدة الصافية التي قامت أسسها على قواعد

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "برهان الحق" ج١.

٢ الفلج: مجرى جوفي ينقل الماء من منابعه إلى الحقول والبساتين.

متينة من الدين، وإذا بنا نرفع الإنسان من طبيعته البشرية ونضعه في درجة الخالقية، والعياذ بالله.

وهؤلاء الذين لم يدركوا أبعاد هذا النقاء والصفاء العقدي إذا قلتَ لهم: إن كلامكم هذا خطير، ويجب أن تراجعوا أصول الإيمان وقواعد الشرع الحنيف.

تجدهم يثورون في وجهك ويقولون: أنت تريد أن تنكر حقائق الدين!.

فأين هي حقائق الدين؟.

إن حقائق الدين في القطع واليقين، وفيما جاءت به الحجة التي تقوم عليها أدلة الشرع الحنيف، وليست في الأوهام.

هذه هي الحقائق التي يجب علينا أن ننزل عندها، وليس ما يصوّره الإنسان في ذهنه من أوهام يُتلاعب بها بعواطف الناس، ويُروّج لها في الشرق والغرب، وحرارة الإيمان مصدرها فعل الله في خلقه، وليس أوهام البشر الفارغة وأهواءهم السخيفة.

ولذلك يحذرنا الله عزَّ وجلَّ من الائتلاء على دائرة الغيب فيقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ الإسراء:٣٦، فالإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وما ينعقد عليه قلبه، فعليه أن يسلك بهذه الحواس مسلك العلم اليقيني لا الظنون والأوهام.

والله جلَّ شأنه يقول محذّراً نبيه الكريم من أن يتبع ظنون الناس: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الأنعام:١١٦، أي إن هم إلا يتوهمون، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ الأنعام: ١٤٨ وفي ذلك مطالبة بالعلم، فإذا كان لديك برهان على ما تقول

تفضل واثت به، وإلا فهو محض ظنون وضرب من الأوهام ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ﴾ الأنعام: ١٤٨.

وعندما يُصاب الإنسان باضطرابات عصبية، ولا يُتوصل إلى معرفتها بسبب قصور في علمه وانحراف في تصوره يحوّلها مباشرة إلى فعل الجن!.

وهنا يحق لنا أن نتساءل: من الذي قال لك بأن هذا من فعل الجن؟، أَوَحيٌ نزل عليك من الله؟.

الوحي انقطع بختم الرسالة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، إذن أين العلم الذي يقول لنا بأن في هذا الإنسان جناً؟، ما هي إلا ظنون فقط، وهذا ما يحذّر منه القرآن الكريم.

(من أين للإنسان بأن يحكم أن هذه العلة هي من الجن، قد يقول أحد من هؤلاء لشخص ما: أصبت في المكان الفلاني.

من أين علم ذلك؟!.

الله تبارك وتعالى وحده هو الذي يعلم الغيب، يقول: ﴿قُل لا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل: ٦٥، لا يعلم أحد الغيب إلا الله سبحانه وتعالى.

ويقول تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدا ۞ إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ﴾ الجن: ٢٦-٢٧، أي أن الرسول من خلال وحي الله تعالى الذي ينزل عليه يتوصل إلى معرفة الغيب، وإلا ما له من قدرة على معرفة بالغيب قط.

وكذلك نجد أن الله تبارك تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الأعراف: ١٨٨، النبي صلى الله عليه وسلم على علو قدره مع كونه يوحى إليه لم يكن يعلم الغيب، إنما يأتيه ما يأتيه من قبل الله سبحانه وتعالى في وحيه إليه من أخبار الغيوب ما تبيّن له ما كان خفياً عليه، أما بنفسه أن يطلع على الغيب فلا، ما كان يطلع على الغيب، ولا يستطيع أن يحقق لنفسه من تلقاء نفسه منفعة، ولا أن يدفع عنها مضرة، إلا أن يكون ذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى ومن عند الله)[1].

وكل ما نخشاه على الذين ينسبون إلى الجن هذه الأمور، هو أن يأتي هؤلاء الجن يوم القيامة بعرائض شكوى يقدمونها بين يدي الله تعالى مطالبين فيها بالقصاص من هؤلاء الذين نسبوا إليهم أموراً لم يقم عليها دليل من أدلة الحق، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ السجدة: ٢٥، ولكن ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ آل عمران: ١٨٢.

ودرجات الغيب هي:

- **الغيب المطلق:**

وهذا لا يمكن أن ينكشف للإنسان، فذات الله لا يمكن أن تنكشف لأي مخلوق، ولذلك من خاض في هذا الجانب ضل، منذ الوثنيين، ومروراً بالفلاسفة الملحدين، وإلى أهل الكتاب، وانتهاءً بأناس من المسلمين انحرفوا بقولهم بالتشبيه والتجسيم.

١ أحمد بن حمد الخليلي "سؤال أهل الذكر" (برنامج تلفزيوني على الفضائية العمانية).

والقول الحق إن ذات الله لا تُدرك أبداً، لا في دنيا ولا في آخرة، وإنما تظهر آثار فعلها في كل ذرة من هذا الكون.

والروح كذلك هي من الغيب المطلق ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الإسراء: ٨٥، ولذلك تظهر لنا سخافة أولئك الذين يدلّسون على الخلق باسم العلم عندما يزعمون تحضير الأرواح، وذلك بأن يدخل العرّاف غرفة مغلقة ثم يزعم أنه يقوم بتحضير الروح، ويوغل في التدلس أكثر عندما يسلط عليها –حسب زعمه الفاسد– أشعة، هذا كله تدليس باسم العلم، فـ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾ الاسراء: ٨٥.

(ويذهب التضليل إلى منتهاه؛ عندما يؤكد ناشرو هذه المعلومات أن تلك القوى الخفية أمكن تصويرها بأجهزة العلم الحديثة، وأنها ظهرت على أصابع المعالجين الروحيين كهالات مضيئة، وهي نفس الهالات التي كانت تظهر على رؤوس القديسين وذوي الكرامات، أو هي نفس الهالة التي تحيط بالجسد، وتؤكد وجود الروح، وغير ذلك من خزعبلات كثيرة يحاولون ربطها في إطار واحد، لتبدو أمام الناس وكأنما هي حقائق لا ريب فيها، ومن هنا قد يهجرون سبيل العقل، ويلقون بأنفسهم في أحضان الخرافة، ويلتمسون الشفاء عند الدجالين والمشعوذين)[١].

وأيضاً الملائكة من عالم الغيب، إلا أنهم قد ظهروا في بعض الأوقات لأمر أراده الله، كظهورهم للأنبياء وذويهم مثلاً، مثل مجيئهم إلى إبراهيم عليه السلام وزوجه في بيتهم، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ

---

١ عبدالمحسن صالح "الانسان الحائر بين العلم والخرافة" ص١٣.

فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ الذريات: ٢٤-٣٠، ويقول سبحانه عن مجيئ الروح إلى مريم عليها السلام: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ مريم: ١٧.

أما بقية البشر فالملائكة عليهم السلام مغيبون عنهم.

وكذلك الجن هم مغيبون عنا، وهم يروننا من دون أن نراهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ الأعراف: ٢٧.

- **الغيب الماضي**:

وهو في أصله من عالم الشهادة كالقصص التي ذكرها القرآن الكريم، والتي وصلتنا بطريق قطعي، لكن بذهابها في بطن الماضي أصبحت من الغيبيات، فعيسى عليه السلام ولد من أم دون أب حقيقة، وموسى عليه السلام تحولت عصاه إلى حية تسعى حقيقة، ولكن بالنسبة لنا اليومَ يعدّ هذا غيباً علينا أن نسلّم به.

يقول الله تعالى في شأن قصص الأنبياء: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هود: ٤٩، ويقول عن قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يوسف: ١٠٢ ويقول في أمر مريم عليها السلام: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ آل عمران: ٤٤.

فإذا لم نطلع على حيثيات هذا الغيب فلا يمكننا عقلاً أن نقيس عليه، كما أنه لا يجوز لنا ذلك شرعاً، ولنضرب مثالاً على ذلك:

نحن نؤمن إيماناً جازماً لا يخالجنا في ذلك شك بأن عيسى بن مريم عليه السلام ولد من أم دون أب، لكن لا يمكن أن نقيس على هذه الحالة حالة أخرى، فلا يمكن أن تأتينا امرأة مشهورة بالورع والصدق والتقوى، إلا أنها غير متزوجة، وتدخل علينا حاملة مولودها، وعندما تُسأل مَن أبوه؟ تقول: ما له أب، إنما تخلّق في بطني بقدرة الله عزَّ وجلَّ من دون زواج.

فهي كاذبة في إدعائها هذا، وتعللها في هذا الشأن بأن الله قادر على كل شيء دعوى باطلة لن تفيدها شيئاً أمام القضاء.

يقول الشيخ أحمد بن حمد الخليلي: (وإذا زعمت امرأة أنها ولدت من غير أن يأتيها رجل فقولها يرد، وما حصل للسيدة مريم أراده الله أن يكون آية ولا يتكرر)[1].

■ غيب الحاضر:

وهو ما يحدث بعيداً عنا كوقائع الزمان وحوادث البلدان، فقد ينكشف لنا وقد لا ينكشف، فنحن لا ندري ما يجري الآن في بقاع كثيرة من العالم ما لم ينقل إلينا بوسيلة أو بأخرى.

ومن أمثلة ذلك أيضاً الجراثيم، فهي إلى وقت قريب كانت من عالم الغيب؛ لا نعرفها، وكانت تصيب الناس وتفتك بهم، وكان الناس يحوِّلون ذلك إلى عالم الجن أو أفعال السحرة، في حين أنها كانت مصدراً للكوليرا والملاريا، وكثير من الأوبئة التي كانت تفتك بالناس، لكن لما كُشفت حقيقتها أصبحت من عالم الشهادة، وعُرفت الأمراض، وانخفضت نسبة الوفيات التي تحدث بسببها انخفاضاً كبيراً، لأننا عرفنا كيفية التعامل مع هذه الكائنات، التي امتن الله تعالى على الإنسان بكشفها.

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "**إعادة صياغة الأمة**" ص١٣٥.

■ **الغيب المستقبلي:**

وهو ما سيأتي من أحداث كيوم القيامة وأمور الآخرة، وهذه لا تؤخذ إلا من القرآن الكريم وحده، يقول فيلسوف[1] الإسلام ناصر بن أبي نبهان الخروصي: (التوحيد والوعد والوعيد والأخبار؛ ففي التنزيل بيان علم ذلك كله فلا يحتاج فيه إلى معرفته بالسنة)[2].

---

١ هذا اللقب أطلقه عليه موسى بن عيسى البشري صاحب "*مكنون الخزائن*" عندما سأله قائلاً:

ماذا يقول الفيلسوف الماهر العالم الحبر ابن جاعد ناصر

انظر: السعدي "*قاموس الشريعة*" ج١٣ ص ٢٧٢.

٢ ناصر بن أبي نبهان "*تنوير العقول*" ص٣٨.

القاعدة السادسة: الله تعالى يعلم كليات الأمور وجزئياتها

لا ريب أن الله يعلم كل شيء بدون استثناء، وهذا خلافاً لبعض الفلاسفة ولمن تأثر بهم ممن هم محسوبون على أمة الإسلام؛ الذين يقولون بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات، أو يعلم ما هو واقع دون ما سيقع، وهذا اعتقاد فاسد منحرف، فالله تعالى يعلم الجزئيات والكليات، ويعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون أن لو كان كيف يكون، فهو تعالى يقول: ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ﴾ سبأ:٣.

ويقول: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الأنعام:٥٩.

ويقول: ﴿قُل لا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل:٦٥.

ويقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سبأ:٣.

ويقول سبحانه وتعالى للملائكة: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ البقرة:٣٣.

ويقول: ﴿وَلِلهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هود:١٢٣.

ويقول: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ النحل: ٧٧.

ويقول: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ الكهف: ٢٦.

ويقول: ﴿إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فاطر: ٣٨.

ويقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ التوبة: ٧٨.

فكل عوالم الغيب يعلمها سبحانه وتعالى.

(وأما من زعم أن الله جلَّ ذكره وتعالى علواً كبيراً لا يعلم الشيء حتى يكون، فأجاز بذلك البداء على الله؛ كما أجاز غيره النسخ على أخبار الله وصفاته، فالحجة عليه قول الله جلَّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنعام: ٢٧، ثم قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ الأنعام: ٢٨، فأخبر بما يقولون قبل أن يقولوا، وأخبر أنهم لو ردُّوا كيف كان حالهم، فقد علم ما يكون من قولهم قبل أن يكون، وعلم ما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، ونظائر هذا كثير في هذا القرآن)[1].

١ ابن بركة "الجامع" ج١ ص٤٩.

القاعدة السابعة: العقل يقف عند حدّه في عالم الغيب؛ وهو التسليم

العقل لا يأتي من نفسه بشيء جديد بدون مقدمات سابقة، وإنما وظيفته البناء على ما هو قائم.

فالعقل: هو آلة التفكير في القضايا؛ بغية فهمها، أو مراجعتها، أو حل مشكلاتها، أو تخطئتها، أو تصويبها، أو التسليم لها، أو ضبطها في قواعد، أو التفريع من القواعد، أو الكشف، أو الاختراع، أو التفكيك، أو التحليل، أو البناء... إلخ.

وواضح من تعريفنا هذا أن العقل يحتاج إلى مقدمات لكي يعمل عمله هذا، وهذه المقدمات يسميها القرآن الكريم "الأسماء" قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة: ٣١.

وهذا يلجئنا إلى حقيقة منطقية هي أن العقل لا يمكن أن يعمل في فراغ، أي أنه لا يستطيع أن يأتي بشيء من العدم.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل: ٧٨

مثاله:

قولنا على سبيل التوضيح: (توجد في القمر حجارة حمراء).

يستطيع الإنسان أن يتصور هذه المقولة ولو لم يزر القمر، فهو يعرف أن القمر "أرض" تحوي حجارة، وهو يعرف الحجارة ولونها.

لكن كثيراً من الناس قبل قرن من الآن لا يمكنهم أن يتصوروا ذلك ؛ لأن القمر كائن منير ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً﴾ الفرقان: ٦١ ، وتصورهم للنور لا يمدهم بإمكان أن تكون فيه حجارة فضلاً عن أن تكون حمراء.

إذن تصور العقل لهذه المقولة يكون بحسب المقدمات السالفة فيه.

ولمزيد من التوضيح :

لو أتينا بإنسان وُلِد أكمه لم يبصر من الدنيا شيئاً ، فهو قد تصور القمر مقارنة بضربه في مناكب الأرض وقياسه القمر عليها ، وقد يتصور حجارة القمر للمسه حجارة الأرض ، إلا أنه لا يمكن أن يتصور لونها الأحمر ، لأنه لم يتحصل على هذه المعلومة قط من قبل.

وبما أن الكون مليء بالحقائق التي لا يستطيع العقل أن يتوصل إلى مقدماتها ، فإنه سيظل عاجزاً عن الوصول إليها ، فضلاً عن تصورها التصور الصحيح.

نعم ستساعده حركته الضخمة المتنوعة في الكون على اكتشاف كثير من حقائقه ، لكن حتماً ستظل هناك نقاط مجهولة كثيرة ، والواقع قائم بشهادته على ذلك يغنينا عن إطالة الحديث في هذا الجانب.

وإذا جئنا إلى العقيدة وهي غيب في كثير من جوانبها ؛ يتبيّن لنا بدون عناء أن العقل عاجز عن الوصول إلى هذا الغيب ، فلابد من كاشف يكشف له ذلك ، لأن العقل لا يعلم الغيب.

نعم ؛ العقل لقدرته الفائقة في الحكم على الأشياء يستطيع أن يقول : إن هذه المقولة مقبولة وتلك مرذولة.

مثاله :

العقل وقف على الأرض ومكوناتها، ونظر إلى السماء وأجرامها، وتبيّن له أن نظاماً محكماً يلفّ هذه الكائنات، وهذه مقدمة قوية بل قاهرة للعقل للوصول إلى نتيجة أن وراء هذا الكون خالقاً مدبراً حكيماً عليماً.

فالعقل يثبت لنا وجود خالق واحد قادر، إلا أنه عاجز عن الكشف عن ذات هذا الخالق.

العقل يستطيع بكل يقين أن يقول إن الخالق واحد وليس اثنين أو أكثر، والعقل يجزم أيضاً أن الأصنام لا تضر ولا تنفع.

ولذلك أحال القرآنُ الناسَ إلى إعمال عقولهم في الكون ومفرداته؛ لإزاحة رَيْن الهوى عنها.

نخلص من ذلك أن العقل لديه قدرة هائلة على فهم الأشياء والحكم عليها، ولكنه لا يستطيع أن يأتي بها من ذات نفسه دون سابق مقدمات.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن القرآن الكريم لم يذكر العقل -بمشتقاته- إلا مدحاً، ونعى على الذين يعطلونه ولا يفعّلونه.

فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤.

ويقول: ﴿اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى الأَرْضِ

قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد: ٢-٤.

ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ النحل: ١٠-١٣.

ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج: ٤٦.

ويقول: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الروم: ٢٨.

ويقول ناعياً على معطلي عقولهم: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٧١.

ويقول: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ المائدة: ٥٨.

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ۝ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ المائدة: ١٠١-١٠٣.

ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ۝ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ يونس: ١٠٠-١٠١.

ويقول: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ الفرقان: ٤٤.

ذلك ما نجده في كتاب الله عن العقل ومعطليه، بينما نجد فيه الذم للهوى ومتبعيه:

فيقول تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ البقرة: ١٢٠.

ويقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ المائدة: ٤٨-٤٩.

ويقول: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ المؤمنون: ٧١.

ويقول: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص: ٤٩–٥٠.

ويقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الجاثية: ٢٣.

والسؤال الآن؛ كيف يمكن أن نميّز بين العقل والهوى؟.

الفارق بين العقل والهوى عميق جداً، ولذلك يمكن تبيّنه ببساطة، فنحن نعرف العقل بتتبع سنن الله الماضية في خلقه من خلال النظر في الكون –بمختلف مفرداته– بطرائق العلم المتنوعة، فما وجدناه قائماً عرفنا أن العقل كان على صواب فيه، وتصوره فيه تصور صحيح صادق.

وأما الهوى فهو ما يرتسم في الذهن بدون حجة من الواقع؛ إما تقليداً للأسلاف، أو وسوسة من النفس، وهذا يعني أنه تصور خاطئ كاذب.

والأدلة التي نميّز بها بين دائرة الغيب ودائرة الخرافة:

١. الدليل العقلي القطعي.

٢. الدليل النقلي القطعي.

- **الدليل العقلي القطعي**:

هذا الدليل قائم في الوجود، مثلاً: نحن نعرف أن الشمس تشرق كل يوم في وقت محدد، ويتغيّر شروقها عبر تتابع الأيام بدرجات متفاوتة بدقة؛ لأخذ النهار من الليل والليل من النهار، عبر دورة تستغرق مدة تشكّل السنة الشمسية، والقمر بشروقه وغروبه يشكّل الشهر، وبتكرار دورته اثنتي عشرة مرة تتكون السنة القمرية، وقد أقامت البشرية على

جريان الشمس والقمر حساباتها، والله تعالى جعلهما مناط الحساب في كتابه العزيز، حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ الاسراء:١٢، وقال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس:٣٧-٤٠.

فلو جاءنا إنسان وزعم أن الشمس والقمر وغيرهما من النيرات السماوية يمكن أن تشرق أو تغرب بحسب أمره ورغبته، فمتى ما أرادها أن تشرق أشرقت، أو متى ما أرادها أن تغرب غربت، أو أرادها أن تغيّر مجرى سيرها الفلكي طاعته وسلّمت له، فهل يمكن أن يُقبل منه هذا الكلام؟ بالطبع لا، وإلا لأصبحت سنن الله عبثية، وكأننا نصفه تعالى وتنزه بالمزاجية التي هي من صفات البشر، وبالتالي هذا المزاج المتوهَّم يتغير بناءً على رغبة فلان أو قرار علان، أو غير ذلك، قال الحق جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة:٢٥٨.

وكذلك شأن الموت والحياة يجريان بحسب سنن الله في هذا الكون، وليس بحسب أمزجة الناس، مثلما يروى أن رجلاً ممن تُنسب إليهم الكرامات مات وكان بقربه خادمه ــ وهو يُعتقد فيه بأنه ولي ــ، وعندما مات وثبت موته استيقظ وقال لخادمه: اخرج.

قال: لماذا؟.

قال: أريد أن أغسل نفسي غسل الأموات حتى لا يُتكشف على عورتي.

وبعد ذلك كله رجع وواصل موتته![١].

هذا لا يمكن قبوله، لأننا بذلك نصف الله تعالى وتنزه بالعبثية، قال سبحانه: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الملك: ٣-٤، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ الرعد: ٨، وقال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ الحجر: ١٩.

والعقل قاضٍ بأن من يموت لا يمكن أن يعود إلى يوم البعث، هذه الأمور ما أتينا بها من ذات أنفسنا، إنما شاهدناها من مجريات الأمور في الحياة، وكما يقول العلامة أبو طاهر إسماعيل الجيطالي في "قناطر الخيرات": (وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي، وذلك علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حَكَمتْه التجاربُ يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف به يقال إنه غمر جاهل، وهذا العقل ينمى إن استعمل، وينقص إن أهمل، لأنه من قوة ثقابة المعرفة وإصابة الفكرة، ما لم يمنعه مانع من هوى، ولا صاد من شهوة، لأنه يحصل ذلك بكثرة التجارب وممارسة الأمور)[٢].

أنت تشاهد أن النار محرقة، وتشاهد أن الشمس تطلع كل يوم وتغرب، والماء يهبط من الأعلى إلى الأسفل، وهكذا نحصل على الحقائق.

ولابد أن نذكّر بما هو معروف ومتيقن لدى الإنسان أن هذه الدلائل والحجج العقلية هي من صنع الله وتدبيره وتسييره، فإذا أثبتنا فيها الخلل والاضطراب، فنحن –والعياذ بالله– نطعن في قدرته تعالى، وهذا لا يجوز أبداً، فالكون لا يسير بالعبثية والمزاج؛ تعالى الله

١ انظر: مختار عطا الله "إشكالية اطراد خرق العادات" ص٣٥، نقلاً عن حاشية الباجوري على شرح الغزي على متن أبي شجاع.

٢ الجيطالي "قناطر الخيرات" ج١ ص٢٨.

عن ذلك علواً كبيراً، وإنما وفق قوانين محكمة، ولذلك من استدلالات محققي الأمة ضد خصومهم من الدهريين في إثبات وجود الله دليل السببية، فإن أي جهاز يدل على أن له صانعاً صنعه ومهندساً صممه، ومر بتجارب عديدة حتى خرج للناس، فلا يمكن أن نقول بأن هذا الجهاز قد أوجد نفسه بنفسه[1].

(إن الله تعالى هيأ الأسباب، وجعل بعضها آخذاً بحجزة بعض حتى يتم التكامل بينها، وتحصل نتائجها للعباد، وهي سبب لاستمرار حياتهم في الأرض إلى أن يشاء الله انتهاء هذا الكون، كل ذلك حجج الله وبراهينه التي يقيمها على خلقه ليؤمن من آمن ويكفر من يكفر)[2].

إذن فالسببية هي من الأدلة العقلية القاطعة، التي أقامها الله تعالى شاهداً للحق في هذا الكون، ونص عليها في كتابه العزيز، أمر أن ننظر إلى السماء والأرض والمياه والأنعام والزروع والثمار، وسائر المخلوقات، كل هذا مبثوث في كتاب الله العظيم ليقيم الحجة على وجوده تعالى وإبداعه، وعلى البعث وقيامه، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ يونس: ١٠١، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ النور: ٤٣.

---

١ انظر: أحمد بن حمد الخليلي "*سلسلة دروس العقيدة*"، أدلة وجود الله تعالى، ألقاها بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان.

٢ أحمد بن حمد الخليلي "*الدين الحياة*".

- **الدليل النقلي القطعي:**

لابد أن يكون الدليل في تحديد دائرة الغيب قطعياً، أي من القرآن الكريم[١]، فنحن نعرف أن خالق الكون عزَّ وجلَّ وضع خاصية الإحراق في النار، وبعقولنا نعرف أنه ما من شيء يدخل في النار إلا ويحرقه بدرجات متفاوته، ومن لا يصدق هذه الحقيقة فليدخل النار ولينظر إلى هذه الحقيقة أهي قائمة أم غير قائمة؟! والذي جعل النار محرقة هو الله تعالى، والدلالة عليه من خلال دليل قطعي يقيني، وليست الأوهام والنقول الظنية.

ولكن لو أخبرنا الله جلَّ شأنه من طريق الدليل القرآني القطعي الدلالة عن وقوع شيء في ظاهره مخالف للأمر المعتاد، فنحن نسلّم بذلك، بل يجب علينا التسليم، إلا أنه لا يمكن أن نقيس على هذه القضايا، لأنها قضايا غيبية.

فلو جاءنا أحدهم وقال: إنكم تحطون من قيمة العقل وترمون به جانباً في هذه القضية؟.

قلنا له: نحن هنا نشغِّل العقل إلى أقصى درجاته، ونقول بأن الله تعالى الذي جعل هذا الأمر قادر على أن يجعل ضده، فالعقل الموصول بالله تعالى يدرك أن أقصى مراحل فاعليته أن يسلّم بأن الله قادر على كل شيء، فعقلنا الذي استوعب أن الله يخلق الإنسان من أبوين يستوعب أن هناك كائناً اسمه عيسى بن مريم خُلِق من أم دون أب، ولكن في ذات هذا التسليم نحن نشغِّل العقل إلى أقصى درجاته فنقول: إن خالق هذا الكون مسيطر على كل جزئياته، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؛ وفق مقتضى الحكمة، وليس وفق مقتضى الأهواء والظنون، ففرق بين القطع والظن، وبين الحقائق التنزيلية والأوهام

---

١ وما ورد من الأحاديث النبوية يكون بدلالة القرآن القطعية عليه، والنبي صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله ومتبع لوحيه تعالى وهو القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ الأعراف: ٢٠٣، وقال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الأحزاب: ٢.

البشرية، فهو كالفرق بين ماء سلسبيل دافق يطفئ ظمأ العطشان، وبين سراب ﴿بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ النور: ٣٩.

فنحن قد أعملنا العقل، وقلنا بأن الله تعالى يستطيع أن يخلق هذه الكائنات كلها وليس عيسى عليه السلام فقط، ونحن نؤمن بأن للكائنات في هذا الكون نقطة بداية، لأنها محدثة، فقبل هذه البداية كانت عدماً، ولم يكن لها أب أو أم في لحظة من اللحظات، إذن ما الغريب أن يوجد بمثل ذلك عيسى عليه السلام؟!.

إلا أننا نقول بأن هذا الدليل لابد أن يأتي من رب السموات والأرض، وإلا لتسربت الخرافة إلى دائرة الغيب، ولأصبح هذا الكون عبثياً يسير حسب أهواء الناس وظنونهم، وبالتالي ستنخرم قاعدة الحكمة، ولذلك فالإنسان (لا يجوز أن يسأل ربه ما لو فعله كان فعله خروجاً من الحكمة، وذلك مثل قولهم: اللهم احي لي من أمت من أهلي وقرابتي قبل يوم القيامة وارجعهم إلى الدنيا، واجعل مدة عمري ألف سنة، وهب لي ملكاً مثل ملك سليمان بن داود النبي عليه السلام، فلو فعل هذا ودعا به كان جاهلاً متحكماً على الله تعالى، وخروجاً من حدّ مسألة المتهيب الخاضع إلى حدّ مسألة المتحكم الملزم)[1]، ويقول الشيخ محمد بن يوسف اطفيش: (ولا يتمنى ما لا يكون مما لا يكون كالطيران إلى السماء أو حيث يريد، وكون الجبل ذهباً يختص به، فإنه لا يمكن بالعادة ولو أمكن بالقدرة)[2]، فلا يجوز للإنسان أن يدعو بهذا الأمر؛ لأنه خارج عن مقتضى الحكمة، فإذا لم يجز للإنسان أن يدعو بمثل ذلك فكيف يجوز أن نصدّق بأن هذه الأشياء تحدث حسب أهوية الناس؟.

---

١ ابن بركة "الجامع" ج١ ص١٢٩-١٣٠.

٢ محمد بن يوسف اطفيش "شرح النيل وشفاء العليل" ج١٦ ص ٩٢.

انقلبت الأمور عندنا، وعلينا أن نراجع أنفسنا أيها المؤمنون، لأن في ذلك سعادتنا وتقدمنا في هذه الحياة، ونجاتنا وفلاحنا في الآخرة، علينا أن نتدارك أنفسنا في هذا الجانب وندرس مناهجنا، فمحاضرة تُعنى ببث الوهم يتزاحم الناس عليها ويتقاطرون إليها من كل صوب وحدب، ومحاضرات ممنهجة مبنية على قواعد الكتاب الله العزيز وهدي رسوله القويم ومنطق العقل لا يحضرها إلا القليل.

نعتقد أنه قد جاء الوقت الذي يجب أن ترجع فيه الأمور إلى موازينها الحقة، فكثير من الأمور التي زعمت أنها حقائق إذا بها ضرب من الوهم وجزاف من الخرافة.

لقنتُ في عصر الشباب حقائقاً في الدين تقصر دونها الأفهامُ

ثم انقضى عصر الشباب وطيشه فإذا الحقائق كلها أوهام

ونحن وإن كنا لا نوافق الشاعر في مغالاته التي هي من طبيعة الخيال الشعري، إلا أنه قد لامس بحق جرحاً غائراً في الأمة يحتاج ولا ريب إلى علاج ناجع، فعلينا أن نرجع صادقين إلى خطنا الإسلامي الأصيل، وإذا أردنا أن نعيد صياغة الأمة علينا أن نصوغ عقولنا أولاً وفق كتاب الله العزيز وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومنطق العقل.

(لقد كان من الأولى لمن خاضوا في الحديث عن عوالم الغيب الجَانّة الخافية عن حواس البشر، والتي لا مجال لحواس الإنسان وعقله الإحاطة بها، أن يقفوا عند محاكمة صحيح أخبارها من فاسدها وتمييزه، وأن يلتزموا حدود الإشارات القرآنية ومقاصدها كما جاءت في السياق القرآني، ويكتفوا بذلك القدر وتلك المقاصد، ويلتزموا مناهج النظر الصحيح فيها، التي تعتمد القواعد المنهجية الكلية ومقاصد الشريعة، وآثار الزمان والمكان، وما تواجه الأمة من حقيقة التحديات، وما تعانيه من مشكلات.

وإن من أهم القواعد المنهجية التي يجب –في رأينا– التزامها في الأمور الغيبية هي قاعدة التواتر الذي يستحيل معه الكذب، لأن شؤون الغيب مما لا يمكن محاكمته إلى العقل

والخبرة والتجربة من شؤون الحس والعلاقات الإنسانية، ولذلك فإن من الضروري أخذها من المصادر المتواترة، التي لا يمكن أن يلحق بها الكذب.

ولو التزم الدارسون المقاصد والمبادئ في فهم المتون ونقدها، والتزموا دقة التحرير في اعتماد النص ونقد سنده، لو التزموا كل ذلك لجنبوا الأمة مفازة عظيمة وكبوة قاتلة، وجنبوها قهر قداسة كثير من النصوص من المكذوبات والمحرفات والمزيدات والإسرائيليات، ومن سوء التأويل وقسره، الذي ساعد على سوق الأمة في ظل العجز والترهيب والاستبداد إلى فكر الخرافة وإلغاء العقل، وأسلمها إلى دعاوي الدجالين المشعوذين، ومكّن لها في ركب العجز والتخلف والهوان)[1].

---

١ عبدالحميد أبو سليمان "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" ص٨٧.

القاعدة الثامنة: الغيب لا يطلع عليه أحد من الخلق؛ إلا ما يكون عن طريق الوحي فقط

الغيب لا يطلع عليه أحد؛ لا ملكٌ مقرَّب، ولا نبي مرسل، ولا شيطان مريد، ولا أي مخلوق آخر، إنما استأثر الله به، إلا ما كشفه سبحانه عن طريق وحيه لأحد من خلقه، يقول المولى عزَّ وجلَّ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ الجن: ٢٦.

ويقول: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران: ١٧٩.

ويقول: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الأنعام: ٥٩.

ويقول: ﴿قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ النمل: ٦٥.

ويقول: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ الأنعام: ٥٠.

فكل ما علمه النبي صلى الله عليه وسلم من أمر الغيب هو وحي من عند الله تعالى، ولا توجد في هذا الرسول الكريم خاصية معرفة الغيب والكشف عن المغيبات، يقول الله تعالى آمراً له: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ١٨٨.

ويقول تبارك اسمه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ يونس: ٢٠.

ويقول: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ القلم: ٤٧.

ويقول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة: ١٠٩، فرسل الله عليهم السلام يسلمون الأمر لله جلَّ وعلا.

ويقول: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة: ١١٦.

هؤلاء هم أنبياء الله ورسله لا يعلمون الغيب كما أخبرنا القرآن عنهم، ثم إذا بشخص من أغمار الناس يُنصِّب نفسه عالماً بالغيب، فيأتيه آتٍ قائلاً: إني مريض. فيقول له: إنك مصاب بعمل كتبه فلان فيه كذا وكذا!.

نتساءل: من الذي أخبره بذلك؟.

إذا كان الأمر أن أحدهم أخبره بذلك، فهو يمارس الدجل ويخادع الناس، وأما إن كان قد اختلق هذا الأمر اختلاقاً –لأنه لا يعلم الغيب– فهو في هذه الحالة يمارس الدجل والخداع أيضاً؛ ولكن بأسوأ صوره، وأحط درجاته.

فعلينا أن ننتبه؛ فكثيراً ما يذهب الإنسان وهو مريض أو مهموم أو فقد شيئاً معيناً أو غير ذلك، إلى أحد هؤلاء الدجالين، وإذا بالدجال يقول له: إن مَن أصابك بهذا المرض أو ذاك الهم هو فلان، أو يقول له: إن هذا المفقود أخذه منك فلان، أو أُخِذ عليك في المكان الفلاني.

هذا كله يتصادم مع عقيدة الإسلام السمحة التي تقرر أن الإنسان لا يعلم الغيب؛ وبالتالي فالمريض بدنياً عندما يريد أن يتعالج عليه أن يذهب إلى المتخصص في طب الأبدان، والمريض نفسياً يذهب ليتعالج مع الطبيب النفسي، والذي سُرق منه شيء يذهب إلى الشرطة لعلها تكشف له عمن سرقه، إذا استطاعت أن تمسك خيطاً من الخيوط فتتوصل إلى من فعل هذه الجريمة.

وأما أن نعالج قضايانا بضروب من الوهم والأسطورة والخرافة؛ فهذا لا يستقيم في العقل أبداً، ولا يقبله الشرع قطعاً، فممارسة هذا الأمر هو تضليل للخلق، ومخادعة للنفس، فكيف يصح أن نقول للإنسان إذا أصيب بمرض، وحدث له نوع من الاضطراب النفسي: إنك مصاب بالعين؟! مَن الذي أخبرنا بذلك؟!.

فلابد للإنسان أن ينظر إلى هذه الحالة بعين العقل، وأن يُحكِّم فيها قواعد الشرع، فالشرع يقول لك: إنك لا تعلم الغيب.

فعندما يأتيني مريض ما وأنظر إلى حالته المرضية، كأن يكون مجروحاً بجرح ظاهر، أو مصاباً بمرض معروف، فيمكن أن أصف له الدواء بحكم تجاربي ومعرفتي، أما إذا كان المرض متغلغلاً داخل جسده فإنه يحتاج إلى كشف عن هذا المرض، وقد يحتاج إلى تحليلات مختبرية، حينئذ لابد له من الذهاب إلى طبيب الأبدان.

والعلم يتطور يوماً بعد يوم، وما كان بالأمس مستعصياً إذا بالعلم يكشفه كشفاً تاماً، فيعرف جرثومة المرض وماهيته، وكيفية تشخيصه، ويضع له العلاج الناجع، فكم من أمراض كانت خافية أصبحت الآن من الأمور التي تشخّص في كافة المستوصفات بسهولة ويسر، ومع ذلك تبقى أمام الأطباء الكثير من القضايا التي لم يتوصلوا إليها إلى الآن، وأقرب مثال على ذلك؛ كثير من أنواع أمراض السرطان لم يتوصل الطب إلى علاجها، وكذلك مرض الإيدز وإنفلونزا الطيور تحتاج إلى علاج ناجع وحاسم، والطب يلزم

حدّه فلا يتكلم بدون علم، إلا أنه يدرس ويجري التجارب ويواصل البحث، و(صحيح أن العلم تجابهه بعض التحديات، وصحيح أن هناك ظواهر لم يُعرف كل أسرارها بعد، وصحيح أننا لم نصل إلى نهاية المعرفة، وأن ما لا ندرك سره اليوم قد ندركه غداً، فكل شيء يتطور ويصقل، والتطور يحتاج إلى زمن، وفي كل يوم نرى إنجازات علمية جديدة، ونضيف إلى معارفنا ما لم تعرفه كل الأجيال السابقة، لكن ذلك لا يعني أن ما نعجز عن إدراكه الآن نعيده إلى "المعجزة"، بل يعني أن الوقت لم يحن بعد لإدراكه، لقصور نسبي في مفاهيمنا الحالية)[١].

(ولا بأس في هذا المجال المهم من مَثَلٍ يدل على ما يواجهه الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية من إشكالات، فنحن نعلم أن المسلم يسعى متوكلاً قوياً بإيمانه، كاسباً بعمله، لا مكان عنده لكهانة ولا عرافة ولا تنجيم ولا عيافة "الخط في الرمل" ولا طيرة ولا طرق ولا سحر ولا جبت، ولا أي شيء على شاكلتها من أمور الشعوذة والخرافة، ومع ذلك نجد صحيح مسلم يروي عن معاوية بن الحكم أنه قال:

قلت: يا رسول الله؛ إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان؟.

فقال: لا تأتهم.

قال: ومنا رجال يتطيرون؟.

قال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم.

قلت: ومنا رجال يخطون؟.

قال: كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك.

---

١ عبدالمحسن صالح "الإنسان الحائر بين العلم والخرافة" ص١٠.

يأتي هذا النص وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرّ "الخط" وما يؤدي إليه —مما يقصد إليه السائل ولا شك— من زعم كشف الغيب الذي يعارض صريح القرآن.

أما إن كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قصد إلى شيء آخر غير ذلك؛ فهو بالتأكيد ليس مما يعلمه السائل أو قصد إليه، وإذا صح ذلك فإن الأمر يدعو إلى العجب؛ من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من يوحى إليه لا يعلِّم الناس الوجه الصحيح لضرب الرمل حتى يفيدوا، ويفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الوجه العجيب المؤدي —حسب هذا النص— إلى العلم بالغيب، وحتى لا يقعوا —بسبب جهلهم بالوجه الصحيح لخط الرمل— فريسة لاستغلال الدجالين والمشعوذين.

إن مثل هذا النص بهذا الفهم من رجل علم شرعي ومكانة شرعية يُعتدّ بها يقدم دعامة، ويفتح منفذاً، ويصنع مشجباً "شماعة" لأصحاب الأغراض، والقرآن الكريم قد وضّح دون لبس وجه الحق في هذه الأمور[1] بأنه لا يعلم الغيب أحد إلا الله تعالى.

١ عبدالحميد أبو سليمان "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" ص١٩١-١٩٢.

القاعدة التاسعة: الجن لا يعلمون الغيب، ولا يستطيعون أن يغيّروا من حقائق الأشياء

علينا أن نقف عند بعض حقائق هذا الوجود، وهي حقيقة الجن، الجن خلق من خلق الله عزَّ وجلَّ، لا نعرف كيفيتهم ولا طبيعتهم، إلا من خلال ما بيّنه الله تعالى لنا في كتابه العزيز، وبالتالي علينا أن لا نتزيّد؛ لأن الزيادة على النص كالنقص منه، أي لا يجوز أن ننكر قضية معينة جاءت في كتاب الله بحجة أن عقولنا لم تصل إليها؛ لأن العقل لا يأتي بشيء بدون مقدمات، لا يأتي بشيء من فراغ، ولا يأتي بشيء من عدم، وإنما هو يبني على الحقائق الموجودة، هذه الحقائق:

– إما أن نراها مبثوثة في الكون.

– وإما أن يخبرنا الله تعالى عنها.

ولأن العقل لا يأتي بشيء من نفسه بدون مقدمات احتاجت البشرية إلى الوحي؛ لأجل أن يكون عاصماً لها من الوقوع في مزالق الهوى ومهاوي الردى، وكاشفاً عن أوليات حقائق الغيب للعقل، وبالتالي فإن تفعيل العقل في مقام التسليم هو التسليم، وقد اشتهر عن الصديق رضي الله عنه أنه قال: (العجز عن الإدراك إدراك).

ونحن نقول غير وجلين: إن التسليم هو حقيقة تفعيل العقل في المقام الذي من واجبنا أن نسلّم فيه الأمر لله تبارك وتعالى، ولا نخلط الأمور، فقد حدثت مشكلة عند كثير من المسلمين؛ فما هو من عالم الشهادة سلّموا له ولم يدرسوه ولم يعملوا فيه آلة البحث، فعندما تحدث قضية من القضايا وتُصعب دراستها ومعرفتها، تجد أحدهم يقول: هذا من فعل الجن، أو من تأثير السحر، أو من قضاء الله وقدره. وكأن دراسة الشيء والتفاعل معه ليس من قدر الله.

أما عندما يتعلق الأمر بذات الله تعالى، فنجدهم يوغلون في ذلك إيغالاً بيّناً، ويختلفون: هل صفات الله تعالى هي عين ذاته أو هي غيره؟ وهل لله صفات زائدة أو غير ذلك؟ في أمر من الأصل يجب أن لا ندخل فيه، وأن نسلّم بأن الله ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ الأنعام: ١٠٣، و﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ الشورى: ١١، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ الاخلاص: ٤، فالعجز تام عن إدراك ذات الله تعالى؛ لأنها غيب مطلق، لكن انظروا إلى كتب علم الكلام، ستجدون إيغالاً متقعراً في الحديث عن أمر يجب التسليم فيه.

لقد انقلبت الأمور عندنا، فعالم الشهادة تركناه بحجة أن دراسته تتناقض مع قضايا القدر.

ثم نوغل أكثر ونقول: هل فعل الإنسان من قدر الله؟ أو ليس من قدره؟.

ثم نزيد في الإيغال ونقول: هل يستطيع الإنسان الذي كتب عليه الشقاء أن يغيّر من حقيقته هذه؟.

مثل هذه الأمور نهينا عن الخوض فيها، ولذلك أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم النهي عن الإيغال في قضايا القدر.

وكذلك يجب أن نقف عند الحد الذي بينه الله جلَّ وعلا عن الجن وطبيعتهم، فلا نزيد على ذلك ولا ننقص منه.

ولابد من التنبيه على أن هذه التصورات الوهمية التي نتصورها عن الجن تدفعنا إلى فعل أشياء كثيرة بزعم إرضائهم، وهذا نوع من العبادة، فقد روي عن عدي بن حاتم أنه قال: أتيتُ النبيَّ وفي عنقي صليب من ذهب، قال: فسمعتُه يقول: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التوبة: ٣١. قال: قلتُ: يا رسول الله؛ إنّهم لم

يكونوا يعبُدُونهم ، قال : (أَجَلْ ، ولكن يُحِلُّون لهم ما حرَّم الله فيستحِلُّونه ، ويحرِّمون عليهم ما أحلَّ الله فيحرِّمونه ، فتلك عبادتهم لهم)[١].

فمن الغريب أن الكثير من المسلمين يأتمرون بأمر وهمي لا حقيقة له ، عندما يتصورون أن هناك أوامر تصدر من الجن فيعملون على تنفيذها ، فيقال لأحدهم : مطلوب منك أن تذبح كذا ، أو تعلق رقية كذا ، أو أن تفعل كذا ! وكلها محض أوهام يهيجها وسواس الشيطان في نفوس هؤلاء الواهمين.

وإذا كنا نعيب على هؤلاء النصارى عبادتهم أحبارهم ورهبانهم ، وهو أمر ظاهر ، فيعاب على المسلمين كذلك عندما ينحطون إلى حضيض الوهم ويرتكسون في قعر السذاجة ؛ فيطيعون أموراً ليست قائمة على وجه الحقيقة ، فمن الذي أنبأك بأن الجني مسيطر عليك ، وأنك لابد أن تفعل كذا حتى تخرجه؟ هذا ضرب من الوهم.

وقد وقفنا على قضية هي من أغرب الأمور ، يزعم أحدهم بأنه يملك مجموعة من الجن مسيطرون على هذا الكون ، وقد وضعهم في خواتم أصابعه ، أحدهم مسيطر على الشمس ، وآخر مسيطر على القمر ، وثالث مسيطر على الأرض ، ورابع مسيطر على الأنهار ، وهكذا ، انظروا إلى هذه الضلالة والوهم ، وإلى أي منحدر تنحدر بالإنسان ، أصبح المسلم —للأسف الشديد— مشبعاً بالخوف ومزروعاً بالقلق ، لا يستطيع أن يذهب إلى مفازة مقفرة وتتحرك دابة هنا أو تهب نسمة ريح هناك إلا ويتصور أن هناك جنّاً ترصده في كل جهة ، أو شياطين تتربص به الدوائر من كل صوب ، فتنتفخ أوداجه رعباً ، ويتورم إهابه هلعاً ، ولا يستطيع أن يسكن في مسكن ما إلا ويتصور أن الجن خلفه قد قصدوه بالشر ! ، فيخال الظل شيطاناً رجيماً نصب له شباكه ، ويحسب صليل الماء

١ البيهقي "السنن الكبرى" (٢٠٧٩٣).

صريخ عفريت مارد سلّ عليه صوارمه، فلابد للإنسان أن يراجع نفسه ويعرض ما عنده على كتاب الله المجيد وحقائق هذا الوجود.

يقول الشيخ أحمد بن حمد الخليلي: (والآن أصبح الناس يصدقون أن كل ما يقع عليهم إنما بسبب تأثير السحرة، كأن هؤلاء سلطوا على الناس يتصرفون في أمرهم كما يشاءون، يمرضون من يشاءون، ويعافون من يشاءون، وكأنما الجن مسخرون لهؤلاء السحرة، يسلطون من يشاءون منهم على من يشاءون في أي وقت من الأوقات، ولا يستطيع هؤلاء الجن خلافاً لأمر هؤلاء)[1].

وإن من الآفات التي ابتلي بها المسلمون أن قرَّ في نفوس كثيرين منهم أن الجن يعلمون الغيب، مصادمين بذلك ما ذكره الله في أكثر من موضع من كتابه العزيز أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ومعارضين صراحة نفيه تعالى عن الجن علمهم الغيب، حيث يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ سبأ: ١٤.

ومما روي مخالفاً لهذه الدلالات القرآنية ما رواه الرواة (عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أناسٌ عن الكهان.

فقال: ليسوا بشيء.

فقالوا: يا رسول الله؛ إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً.

فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أُذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة.

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "إعادة صياغة الأمة" ص١٠٤.

وفي رواية للبخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الملائكة تنزل في عنان السماء، فيسمعه، فيوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم.

وهكذا وفقاً لحرف هذا الحديث فإن الكهان يعلمون شيئاً من الغيب يسمعه الجان والشياطين، ويوحون به إليهم، ثم هم يضيفون لما علموا من الغيب ما شاؤوا من الكذب، والقرآن يجزم أن الغيب لا يعلمه إلا الله)[١].

١ عبدالحميد أبو سليمان "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" ص١٩٣.

القاعدة العاشرة: السحرة لا يعلمون الغيب، ولا يستطيعون أن يغيروا من حقائق الأشياء

السحر لغة هو: التخييل، وكل شيء فيه تخييل يسمى سحراً.

ولذلك جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم في وصف بعض الأشخاص عندما تكلم بين يديه: (إن من البيان لسحراً)[١]، وعلّق الامام الربيع بن حبيب على ذلك بقوله: (إنما يعني بالبيان المنطق، فلا يزال بالناس حتى يأخذ قلوبهم وأسماعهم).

(عن ابن عباس رضوان الله عليهما قال: وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم.

فقال الزبرقان: يا رسول الله؛ أنا سيد تميم، والمطاع فيهم، والمجاب منهم، آخذ لهم بحقهم، وأمنعهم من الظلم، وهذا يعلم؛ يعني عمراً.

فقال عمرو: أجل يا رسول الله؛ إنه مانع لحوزته، مطاع في عشيرته، شديد العارضة فيهم.

فقال الزبرقان: أما إنه والله علم أكثر مما قال، ولكنه حسدني في شرفي.

فقال عمرو: أما إن قال ما قال؛ فوالله ما علمتُه إلا ضيق العطن، زَمِن المروءة، أحمق الأب، لئيم الخال، حديث الغنى.

فرأى الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما اختلف قوله.

فقال: يا رسول الله؛ رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمتُ، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمتُ، وما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية.

---

١ الربيع (٣٨).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة)[١].

فعمرو بن الأهتم عندما زخرف الكلام في أول مرة أظهر صاحبه كأنه إنسان مبرأ من كل نقص، وعندما انقلب عليه صوّره كأنما هو كتلة من السوء لا يخالطها شيء من الحسن.

فهو على حدِّ قول الشاعر:

عين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السخط تبدي المساويا

وقول الشاعر الآخر:

وعينُ السُّخط تُبصر كلَّ عيبٍ   وعينُ أخي الرضا عن ذاك تعمَى

ولذلك ربما يتأثر الإنسان بمحبوبته فتسحره بجمالها، كأنما لا يتصور في الوجود شيئاً إلا هذه المحبوبة الموجودة بين يديه.

والشعراء يخلبون الألباب عندما يستخدمون اللغة الأدبية الراقية، فيؤثرون على الناس بشعرهم.

وأيضاً نفى الله تعالى عن نبيه الكريم قول الشعر، فما يوحى إليه من قرآن ليس هو من جنس الشعر الذي يخلب الألباب ويسحر العقول دون حقائق تقف خلف ألفاظه، بل هو حقيقة قائمة، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ يس: ٦٩.

إن نفي الشعر عن النبي محمد عليه السلام ليس هو ما يتصوره الكثيرون من أن القرآن لا يحتوي على قوالب الكلام المنظوم "موازين الشعر"، فإن الشعر بتراكيبه البيانية اللغوية هو أحد أجزاء اللسان العربي المبين، وهذا اللسان هو الذي أنزل به القرآن الكريم، فإن

---

١ السالمي "شرح الجامع الصحيح" ج١ ص٦١-٦٢.

وجد فيه شيء من هذه الموازين، فليس ذلك بقادح فيه، بل هو ميزة بلاغية راقية يتمتع بها الكتاب المعجز، فهو قد أتى بما يتمتع به لسانهم من ميزة، وناف على ذلك، وجاوز معهودهم إلى ما يعجزون عنه، وإنما المقصود نفي الخيال الواهم عن الكتاب العزيز والرسول الكريم، ذلك الخيال المنحرف عن صدق الواقع إلى خيالات الكذب، والذي يتلبس بروح الشاعر فيجعله يهيم في كل واد، آسراً إلى غوايته المولعين به، ولذلك جاء الربط في القرآن بين هذا الصنف من الشعر وبين ما تقذف به الشياطين في نفوس الأفاكين، مع استثناء الشعر الصادق، وخاصة إن كان فيه نصرة للإسلام، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ الشعراء: ٢٢١-٢٢٧.

إذن هو تنزيه القرآن عن تلك المضامين الشاعرة، التي تسبح في بحر لجي من الأوهام والهيام الكاذب، وليس عن الشكل الرائع الذي يوجد في اللسان العربي، والذي عُرف بالوزن، فوجوده في القرآن -إن وجد- هو مدح يتميز به، وليس مثلبة قادحة فيه.

ومثل هذا الخيال المحلّق في أجواء الأوهام الذي يخلب ألباب الناس ببريق لغته هو ما نجده عند من يمارس الكهانة، بل هو أسوأ أنواع الخرافة التي تعيّش الناس في مستنقع آسن من الأكاذيب، تخيّل للناس باسم الدين الأوهامَ بأنها حقائق من الدين يجب أن تهيمن عليهم، ولذلك نفى الله تعالى عن كتابه العزيز أي صلة بالكهانة بعد أن نفى عنه أن يكون قول شاعر، وأثبت أنه قول رسول كريم، أي أنه وحي إلهي يتنزل ليقول الحقيقة وحدها ويقيم الحجة عليها، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الحاقة: ٣٨-٤٣.

وعلى ذلك فإن ما يتغرد به الشعراء من خيالات الشعر، أو ما يمارسه الكهان من طرائق الكهانة يعد نوعاً من السحر.

وما هو ممارس من أفانين السحر -في حقيقة الواقع- لا يخرج عن باب التخييل، إذ إن هذه الممارسة لو لم تكن تخييلاً فهي ليست بسحر، وإنما هي حقيقة.

ولذلك يوجد نوعان من السحر:

- سحر التلاعب بالأبصار.

- وسحر الطلسمات والنفث.

■ **النوع الأول:**

سحر التلاعب بالأبصار، برع فيه أقوام، ولا يزال قائماً جريدُه ورائجة سوقه إلى هذا اليوم، فعالم السيرك قائم على السحر، أي التلاعب بالأبصار، وكذلك تعد الخدع السينمائية في هذا العصر أعلى درجات الخداع البصري، وهي بذلك تعد أرقى ما وصل إليه الإنسان من فنون السحر.

وكان في السابق يسخر هذا الفن -فن التلاعب بالأبصار- لأجل أن يُوطأ به أكتاف الناس للسلطة الدينية والسلطة السياسية، وبالتالي يطيع الشخص سادته وكبراءه وهو مزلزل الكيان مخلوب منخدع مما يأتيه هؤلاء من السحر، ومثال ظاهر في هذا الجانب سحرة فرعون، فالحضارة في عهد الفراعنة كانت قائمة على السحر.

لكن هؤلاء السحرة هل يقومون بتغيير الأشياء؟ ففي الظاهر –مثلاً– يأتي أحدهم بقلم ويحركه حركة تلقائية وإذا به حمامة تطير.

لكن هل فعلاً حوّل هذا القلم إلى حمامة تطير؟.

إذا حوّله فعلاً فهو أصلاً ليس بساحر، لأنه غيّر طبيعة الشيء، لكن ذلك يحدث في أنظارنا فقط، أما في الحقيقة فالقلم يبقى قلماً.

ففي السيرك يؤتى بإنسان فيدخل في صندوق ثم يقطع إلى نصفين، نصف يذهب إلى جانب، ونصف يذهب إلى الجانب الآخر، ثم بعد ذلك يرجع مرة ثانية ويخرج وهو حيٌ، أو يدخل رجل صندوقاً وتخرج منه امرأة، وغير ذلك من الأشياء.

هذا كله تلاعب بالأعين ليس وراءه أي حقيقة.

ولذلك هذا النوع من السحر هو الأشد والأنكى، وبالتالي احتاج إلى آية باهرة عن طريق نبي لتفضحه وتكشف أمره، ومن أجل ذلك حوّل الله تعالى عصا موسى عليه السلام إلى حية تسعى، فلقفت ما كان يأفك السحرة، وأول من اكتشف أن عصى موسى ليست خيالاً ووهميًا السحرةُ أنفسُهم، عرفوا بأن هذا الأمر ليس تلاعباً إنما هو حقيقة قائمة، ولذلك ما أتى به موسى عليه السلام ليس سحراً إنما هو آية، لأنه لو كان تحوُّل الأشياء يسمى سحراً لقلنا إن ما فعله موسى كان سحراً، وهذا لا يجوز أبداً، إنما التلاعب بأبصار الناس يسمى سحراً.

- **النوع الثاني:**

سحر الكتابة، وسحر النفث، والضرب في الرمل، والضرب في الودع، وغير ذلك من هذه الأمور، هذه خيالات أيضاً؛ لأن الساحر لو كان يكتب كتابة تؤثر فعلاً لما كان سحراً، ولكان حقيقة.

ولو كان هذا النفث يؤثر في الإنسان المنفوث له حقيقة لما كان هذا سحراً، وإنما كان واقعاً.

يقول الشيخ ناصر بن أبي نبهان الخروصي:

(وقيل: إن السحر أربعة أقسام: قسمان نطق بهما القرآن، وقسمان لم تقم الحجة بصحتهما.

فالأولان:

أحدهما: سحر تعلم العزائم، قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ﴾ الفلق:٤، وما ذكره الله في آيات "هاروت وماروت"، وفي سورة الجن.

الثاني: الخَيّالُ يُري الحاضرَ شيئاً على خلاف صورته، وفي الحقيقة لم يقلب صورته كما في قصة النبي موسى عليه السلام وفرعون وأصحابه السحرة.

ووجود هذين مشاهد إلى اليوم، ولا ينكره إلا من كابر عقله، أو لم يكن قد شاهد، فكان ممن وصفهم الله تعالى ذمّاً لهم فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾ يونس:٣٩.

والقسمان الآخران: أحدهما: الأكل للناس... والثاني: الغصب وإخفاؤهم طول الحياة...)[1].

وكما صرّح هنا الشيخ ابن أبي نبهان أن أدلة القرآن وحجج الواقع قائمة على النوعين الأول والثاني، وسنأتي على بيان ذلك وتحليله في القسم الثاني من هذا الكتاب.

---

١ انظر: السعدي "قاموس الشريعة" ج١ ص٩٢.

وأما النوعان الثالث والرابع فهما "قسمان لم تقم الحجة بصحتهما"، لأنه لا وجود لهما في الحقيقة.

القاعدة الحادية عشرة: قانون السببية أحد سنن الكون، وهو من خلق الله ويسير بحفظه وتدبيره

سنن الله في الكون ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، وهذا من أدلة حكمة الله وإحكامه لأمر خَلْقه حيث قال تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ الملك: ٣-٥.

وسنن الله ماضية في كل خلقه، لا تبديل لحكمه، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ الفتح: ٢٣. وقال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ فاطر٤٣.

وهذه السنن لا تتبدل لأجل فلان أو علان، وإنما هي منضبطة السير، محكمة الخلق، دقيقة الصنع، فقانون الجاذبية يعمل بدون توقف، ويأتي على كل مفردات الحياة، فلا يُخرم لمؤمن أو كافر، ولا يتسور عليه ساحر ولا كاهن.

والنار محرقة منذ أن خلقها الله تعالى.

والأشياء لا تنتقل إلا وفق قانون السببية الذي أحكم الله به الكون، وجعله دليلاً على وجوده وصدق كتابه.

(إن الله العظيم الحكيم لا يحابي أحداً في سننه المطردة في نظام خلقه؛ مسلماً ولا يهودياً ولا نصرانياً، لأجل اسمه أو لقبه، أو لانتسابه بالاسم إلى أصفيائه من خلقه، بل كانت سننه حاكمة على أولئك الأصفياء أنفسهم، حتى أن خاتم النبيين صلى الله عليه وعليهم

أجمعين وسلم قد شُج رأسه وكُسرت سنه ورُدّي في الحفرة يوم أحد ؛ لتقصير عسكره فيما يجب من نظام الحرب.

فإلى متى أيها المسلمون هذا الغرور بالانتماء إلى هذا الدين ، وأنتم لا تقيمون كتابه ، ولا تهتدون به ، ولا تعتبرون بما فيه من النذر.

ألا ترون كيف عادت الكرة إلى تلك الأمم عليكم ، بعدما تركوا الغرور واعتصموا بالعلم والعمل بما جرى عليه نظام الاجتماع من الأسباب والسنن ، حتى ملكت دول الأجانب أكثر بلادكم ، وقام اليهود الآن ليجهزوا على الباقي لكم ، ويستردوا البلاد المقدسة من أيديكم ، ويقيموا فيها ملكهم؟.

فاهتدوا بكتاب الله الحكيم وبسنته في الأمم ، واتركوا وساوس الدجالين ، الذين يبثون فيكم نزغات الشرك ، فيصرفونكم عن قواكم العقلية والاجتماعية ، وعن الاهتداء بكلام ربكم إلى الاتكال على الأموات ، والاستمساك بحبل الخرافات ، ويشغلونكم عن دينكم ودنياكم بما لم ينزله الله تعالى عليكم من الأوراد والصلوات[١] ، وما غرضهم بذلك إلا سلب أموالكم ، وحفظ جاههم الباطل فيكم.

أفيقوا أفيقوا ، تنبهوا تنبهوا.

واعلموا أن الله لم يظلم ولا يظلم أحداً ، فما زال ملككم ، وذهب عزكم ، إلا بترك هداية ربكم ، واتباع هؤلاء الدجالين منكم)[٢].

١ أي غير المشروع منها ، وخاصة الغلو فيها ، عندما تصبح شاغلة عن السعي لتحصيل رزق الله وطلب المعيشة والأخذ بالأسباب.

٢ محمد رشيد رضا "*تفسير المنار*" ج٥ ص١٥٤.

ولذلك يرفض الإسلام تلك التصورات الساذجة التي تدعي معرفة الغيب أو حقائق الحياة عن طريق التنجيم؛ وهو ما كان يسمى بعلم الفلك، أو عن طريق "الرمل"، فهذه ليست بعلوم أصلاً، فسنن الله الماضية تأبى أن يتم الكشف عنها بمثل هذه التخرصات.

ولما سئل الفقيه صالح بن سعيد النزوي عن ذلك فقيل له: (وفيمن يتعلم شيئاً من علم الفلك والرمل والرؤيا؛ فهل يجوز أن يعتقد في قلبه صحة هؤلاء العلوم، لا شك في ذلك، وأن يعتقد أن لا يخطئ إلا أن يخطئ الحاسب في حسابه، أو لا؟.

أجاب: أما علم الفلك الذي تعدّه الناس في زماننا هذا أنه علم الفلك، فعندي أنه لا يجوز للإنسان أن يعتقد صحته على الحقيقة، وأنه لا يخطئ، وكذلك الذي تعدّه الناس اليوم علم الرمل، لأن الكتب لا يؤمن أن يقع فيها تبديل النساخ.

وأما العلم الذي أنزله الله تعالى إن كان علم فلك أو رمل، فذلك واجب على الإنسان أن يعتقد صحته)[1].

فالشيخ هنا يرفض ما يتداوله الناس باسم علم الفلك "التنجيم" والرمل، لأنها علوم منشؤها الوهم، وعبّر عن ذلك بقوله: (لأن الكتب لا يؤمن أن يقع فيها تبديل النساخ)، ونحن نقول: ليس لكونها قد وقع فيها تحريف النساخ فحسب، بل لأن من الأصل قد غزلتها أفكار الوهم فنسجتها بأقلام الظنون، وهو رحمه الله يرجع العلوم المعتبرة إلى ما أنزل الله تعالى، وما أنزل الله ينطبق على الكتاب العزيز وعلى سننه في الكون، فللّه بصيرة هذا الشيخ هنا ما أحدّها.

ولا شك أن الادعاء بأن سنن الكون غير ثابتة (تضفي عليه صورة سحرية غريبة، لأنها تجعل من الجائز للنار مثلاً أن تحرق أو لا تحرق بنفس النسبة، وفي جميع الأحوال، وكأن

---

١ انظر: البشري "*مكنون الخزائن وعيون المعادن*" ج٣ ص١٦٦-١٦٧.

الأمر عبث لا يضبطه ضابط! وهذا ما لا يؤيده الواقع المحسوس، الذي يثبت لنا بما لا يدع مجالاً للشك صفة الاطراد في سنن الله التي تحكم الوجود، وبداهة ندرك أن هذا الاطراد خاضع في الوقت ذاته لمشيئة الله كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الفرقان: ٤٥.

وقد أخطأ "أولئك المتكلمون"[1]، حين ظنوا بأن الاطراد في السنن ينفي المشيئة الإلهية أو يعطلها، وقد سبق أن بينا من قبل بأن السنن التي تحكم هذا الوجود، ما هي إلا قدر من قدر الله عزَّ وجلَّ، فهو سبحانه الذي قدّرها وأراد لها أن تعمل على هذه الصورة من الاطراد، لكي يستقر أمر الخلق، ويستطيع الإنسان تسخير ما في الكون في شؤون حياته)[2].

واطراد سنن الله تعالى في الكون قائمة على أساس الحقيقة العلمية المشاهدة، وليس على ضرب من الوهم والتخمين، ولولا اطراد السنن الكونية لما تمكّن الإنسان من أداء رسالته الاستخلافية على الأرض، ولما استطاع أن يمشي في مناكبها، ويعمر جنباتها، ويمخر عباب مياهها المتلاطمة، ويطير في أجوائها العالية، فهو يستفيد من معطيات الحياة المسخرة له، وهذا ليس من اختراع البشر، بل هو حقيقة تكوينية بثها الله جلَّ جلاله في الوجود، ودعا إليها رسله الكرام، والإسلام الخاتم يبني (فكره وعقيدته على أسس العلم لا على أسس الوهم، فالله تبارك وتعالى عندما يقرر في كتابه أهم حقيقة من حقائق الوجود وهي وحدانيته سبحانه عندما يقول: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: ١٦٣، يتبع ذلك بذكر الآيات الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي

١ يقصد هنا متكلمي الأشاعرة.

٢ أحمد محمد كنعان "أزمتنا الحضارية" ص٨٠ (بزيادة وتصرف).

الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤، فكيف مع ذلك يصبح الإنسان المسلم متخلفاً؟!.

بل يقرر الإسلام أن المسلم عندما يكتشف الحقائق الكونية يدفعه ذلك إلى أن يخشى الله تبارك وتعالى ويتقيه، فالله سبحانه وتعالى بعدما ذكر طائفة من الحقائق الكونية المتعلقة بما يحصل من الإنبات؛ وخلق هذه الطبيعة كالجبال وغيرها، وتفاوت الناس وتعدد أحوالهم، يتبع ذلك بقوله: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: ٢٨، ومعنى ذلك أن العلم هو الذي يورث الخشية من الله تبارك وتعالى؛ عندما يكون هذا العلم ليس علماً شكلياً ظاهراً؛ بحيث لا ينفذ الإنسان من خلاله إلى روح العلم وأسراره، كما هو الواقع في عالم اليوم؛ عند أولئك الذين برعوا في مجالات العلوم المختلفة، ولكنهم فقدوا روحها، وإنما ذلك عندما يقترن العلم بالإيمان، فيؤدي إلى الخشية من الله تبارك وتعالى.

الإسلام يجمع بين العمل الديني والعمل الدنيوي ويقرن بينهما، فيقرن بين أقدس عبادة وهي الصلاة وبين الضرب في الأرض والابتغاء من فضل الله، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الجمعة: ١٠.

فكيف مع ذلك يبقى المسلم جاهلاً بأحوال هذه العبادة الربانية التي تنتظم أمور الدين والدنيا معاً؟!.

كذلك الإسلام يدعو إلى السير في الأرض والاعتبار بما فيها، والتفكر في أحوال الأمم، والتأمل في سنن الله تبارك وتعالى في خلقه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ العنكبوت: ٢٠، كم

من آية يأمر الله تبارك وتعالى فيها بالسير في الأرض والنظر في الأحوال والتدبر في آيات الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ الأنعام: ٦.

وهكذا يدعو القرآن دائماً إلى الاعتبار بهذه السنن الكونية والنواميس الربانية، ومع هذا نجد الأمة الإسلامية متخلفة.

رغم كل ذلك؛ يجب أن لا يدعونا هذا إلى التشاؤم بل علينا أن نتفاءل؛ ونرجو بمشيئة الله تبارك وتعالى أن ينبلج من هذا الليل البهيم صبح مسفر، وأن تعود الأمة إلى رشدها، وتتبوأ المكانة التي تليق بعقيدتها وخصائصها ومواريثها الفكرية، ولكن لابد من الجد والعمل، فالإنسان لا ينقلب من حال إلى حال بين عشية وضحاها، وإنما عليه أن يأخذ بأسباب التقدم والنجاح، وهي وإن لم تكن تفضي إليهما ذاتياً، إلا أن الله تبارك وتعالى ناط المسببات بأسبابها، ومن جدّ واجتهد فالله كفيل بأن يوفقه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت: ٦٩)[1].

هذا؛ وقد جاء في الكتاب العزيز ما يخالف —في ظاهره— هذا القانون المطرد، فنوح عليه السلام لبث في قومه حوالي ألف عام، والعصا تحولت إلى حية تسعى، ونحو ذلك، وهذا الذي جاء في كتاب الله حتماً نقبله، وكذلك قطعاً لا نقبل ادعاءات بعض الناس من خرق العوائد، وذلك للأمور التالية:

١. أن الله تعالى خالق أمم البشر ومقدر أعمارها هو من أخبرنا بلبث نوح، وكذلك بقية الآيات غير المعتادة، فخالق الكون ونواميسه والعالم به ومنزل الكتاب الحق هو من

١ أحمد بن حمد الخليلي "البناء الحضاري" ص٣٩–٤٠.

أخبرنا بهذا وذاك، فيجب أن نقبل ضبط سننه في الكون بفاعلية الشيء وفاعلية —ما يظهر لنا— ضده لأن المخبر واحد.

٢. توفر عنصر القطع عن الله تعالى فيما ورد في القرآن، وليس كذلك في ادعاءات الناس.

٣. لا نسلّم بأن قانون السببية قد بَطَل في لبث نوح عليه السلام، وإنما أخبرنا الله بلبثه، وخفي إلى الآن عنا حقيقة كيف حدث ذلك.

وعلى ذلك فما أخبرنا الله به في الكتاب العزيز —الذي ثبت لدينا صدقه بطريق القطع عنه تعالى— ويظهر لنا مخالفته للقوانين المعتادة، لا يرفضه العقل، وإنما يفعِّل العقل إلى أقصى درجاته، وذلك بتجاوز ظاهر الحياة الدنيا والأشراك الحاجبة عن الحقيقة[١] إلى الإيقان بقدرة الله المطلقة على الكون، وكذلك فيه دعوة علمية إلى الكشف عن أسرار هذه الظواهر الكونية.

ولذلك فالذي يرفض ما أخبر به القرآن الكريم من لبث نوح عليه السلام يعدّ خرافياً مادياً، أسرته المادة في مضيقها، وعاش في محبس الأشراك الحاجبة عن الحقيقة، فهذا لا يجوز أن يوصف بأنه عقلاني، فهو خرافي تماماً كالذي يؤمن بأن الأشياء تحابي زيداً أو عمراً فتنفعل له خارمة قانون السببية الإلهي، فكلاهما خرافي مادي، فهذا رفع بخرافته شأن المادة وهي مخلوقة إلى مقام الألوهية، فتصور أنها غير خاضعة لقدرة الله، وإنما لديها قدرة ذاتية، وذاك رفع بخرافته شأن البشر وهو مخلوقون إلى مقام الألوهية أيضاً، فتصور أنهم تنفعل لهم الأشياء بحسب ذواتهم.

فمن ينكر ما جاء به القرآن الكريم هو خرافي غير عقلي مهما تلبس من لبوس، والعقلاني وحده هو من يستهدي بكتاب الله، فيقرّ بما جاء فيه.

١ سيأتي الحديث عنها لاحقاً إن شاء الله تعالى.

والعقلانية هبة إلهية أسبغها الخالق على خلقه من البشر، وهي تاج عزٍّ ورفعة فوق رأس من يحملها، ووسام شرف في صدر من يوقن بها، لا كما يتصور السذج والخرافيون بأنها عيب قادح أو وصمة عار، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ النحل: ٥٩.

والإنسان (أعظم ما ميّز به فطرته وشرّف به وجوده هو العقل، الذي هو جوهرة حياته، وسر وجوده، ومناط تكليفه، ومنشأ هدايته، ولئن كان الجنس البشري نفسه متفاوتاً في أحواله، متبايناً في أعماله، فإن مرجع ذلك إلى مقدار استغلال هذه الطاقة النورانية، واستشفاف المنافع والمضار بها)[١].

وعندنا لا تنافي بين القرآن والعقل، ولا بين القرآن والسنن الجارية، ولا بين العقل والسنن الجارية، لأنها كلها من الواحد الأحد الذي لا يجوز في حقه التناقض؛ سبحانه وتعالى. ولننظر مثلاً في آية لبث نوح عليه السلام.

آية لبث نوح عليه السلام

أولاً علينا أن نقرر أن القرآن الكريم كله لا يعطي البشر أعماراً غير أعمارهم الاعتيادية، فإذن القرآن لا يصرفنا عن السنن الجارية في الكون.

والآن علينا أن نتمعن في لبث نوح عليه السلام حوالي ألف عام، ومع سكوتنا عن كل الأشراك التي قد تكون حاجبة عن الحقيقة، وفرضنا أن اللبث هنا المقصود به العمر بالأزمنة المألوفة لدينا، فإن نوح وحده من يذكره الله تعالى أنه لبث هذا الزمن الطويل، فهو حالة فريدة، بدليل أن قومه استنكروا طول مقامه، فرد عليهم قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا

١ أحمد بن حمد الخليلي "برهان الحق" ج١.

أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ يونس: ٧١، فلو كانت أعمارهم من عمره لما استطولوا لبثه واستثقلوا مقامه بينهم.

وإذ قرنا ذلك فنقول:

– إن وجود الحياة ذاتها آية من آيات الله العظيمة، ووجود الإنسان آية أخرى أعظم من سابقتها، فلماذا نستشكل أن يعيش إنسان ألف عام، ولا نستشكل وجوده ذاته، وما ذلك راجع إلا إلى الإلْف والعادة الاجتماعية، وليس إلى الاستحالة العقلية أو إلى مخالفة العادة التكوينية.

والعادة تختلف بحسب مقام الشيء؛ سواء كان اجتماعياً أو تكوينياً، فالأكل باليد مباشرة في مجتمعات مستغرب، في حين الأكل بالأداة هو المستغرب في مجتمعات أخرى، هذا على المستوى الاجتماعي، أما على المستوى التكويني؛ فمشي الدجاج على بطنه مستغرب مستبعد، في حين مشي الثعابين على رجلين مستغرب مستبعد، مع أن الانتقال من مكان إلى آخر حاصل من الاثنين، أي أن قانون السببية تظهر بمظهرين مختلفين شكلاً متفقين جوهراً.

– أعمار الموجودات تختلف؛ فمنها ما يعيش لأجزاء أقل من الثانية، ومنها ما يتجاوز ملايين السنين، فإذا جاز هذا فلماذا لا يجوز أن يعيش إنسان ما "ألف عام"، أي أن العقل لا يحيل وجوده، بل يجيزه.

– عمر الإنسان نسبي، ولنتصور إنساناً يولد ويعيش يوماً واحداً ثم يموت؛ وليكن زيداً، وإنساناً يعيش مائة عام؛ وليكن عمراً، وإنساناً يعيش ألف عام؛ وهو نوح، والآن دعونا نحلل هذه الأزمنة وفق المعادلة التالية:

زيد = ١ يوم.

عمرو = ١ يوم × ٣٦٠يوم ×١٠٠ عام = ٣٦٠٠٠يوم.

نوح = ١يوم × ٣٦٠ يوم × ١٠٠٠ عام = ٣٦٠٠٠٠يوم.

فنسبة عمر "زيد" إلى عمر "عمرو" هي ٣٦٠٠٠/١.

بينما نسبة عمر "عمرو" إلى عمر "نوح" ١٠/١ فقط.

وعلى هذا؛ فإن مشكلة أن يعيش "عمرو" مقارنة بعمر "زيد" أكبر من مشكلة عمر "نوح" مقارنة بعمر "عمرو"، ولكن لأن عقلنا اعتاد على النسبة التي بين عمري "زيد" و"عمرو" مع ضخامتها قَبِلَها، في حين ترفض بعض العقول النسبة بين عمري "عمرو" و"نوح"، وهي ضئيلة جداً مقارنة بأختها.

– وأيضاً الإنسان مع إمكاناته المحدودة؛ استطاع أن يحسّن من معدل عمر البشر بصفة مستمرة من ٤٠ سنة إلى ٨٠ سنة تقريباً، أي بنسبة ٢/١، فلماذا نستنكف من قبول أن يحسّن الله جلّت قدرته –وهو خالق الكون ومدبر أمره– نسبة ١٠/١ لمرة واحدة، مع أنه بإيجاده الإنسان من العدم حرّك النسبة بدرجة لانهائية؛ أي من العدم إلى الوجود، فأيهما أعظم؛ النسبة اللانهائية أم نسبة ١٠/١؟.

و(قال بعض الأطباء: العمر الإنساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة.

والآية تدل على خلاف قولهم، والعقل يوافقها، فإن البقاء على التركيب الذي في الإنسان ممكن لذاته، وإلا لما بقي، ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن؛ لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام، وإن كان غيره فله مؤثر، وينتهي إلى الواجب وهو دائم، فتأثيره يجوز أن يكون دائماً، فأذن البقاء ممكن في ذاته، فإن لم يكن فلعارض، لكن

العارض ممكن العدم، وإلا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع، فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل.

ثم نقول: لا نزاع بيننا وبينهم، لأنهم يقولون: العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة. ونحن نقول: هذا العمر ليس طبيعياً بل هو عطاء إلهي، وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة، فضلاً عن مائة أو أكثر)[١].

وليس يخاف أن مصطلح "العمر الطبيعي" هنا لا يعني العمر الاعتيادي، وإنما العمر الذاتي، أي أن الكائن لا يمكن أن يعيش لحظة واحدة من ذاته، فكل الكائنات وجودها وحياتها ونهايتها عطاء إلهي أي من الله تعالى، وهذا بخلاف الطبيعيين والدهريين المثبتين للكائنات طبائع ذاتية، وهو عندنا من أصناف الشرك.

هذا؛ فإن قال قائل: ولماذا لم تقبلوا أن يكون الناس في زمن نوح عليه السلام كلهم قد عُمِّروا ألف عام أو قريباً من ذلك؟.

قلنا: ليست المشكلة في تعميرهم، فهذا مما هو جائز عقلاً في ظل قانون السببية لو توفرت حلقة واحدة وهي ثبوت الواقعة قطعاً، فنحن قبلنا لبث نوح لأنه حدث ذلك قطعاً، فالمخبر عن ذلك هو الله تبارك وتعالى، فيما جاءنا عنه يقيناً وهو القرآن الحكيم.

ولأن العقل حسب المبدأ النظري يجيز أن يعيش الإنسان ألف عام أو أكثر أو أقل، فإنه يصبح هذا الجائز واجباً عقلاً لثبوت وقوعه"[٢].

---

١ محمد بن عمر الرازي "تفسير الرازي" ج٣٠ ص٦٦١.

٢ حول قانون السببية والجواز والوجوب العقليين انظر: خميس بن راشد العدوي "طرق طرق الخلاص بين الدين والعلمانية"، على موقع المجرة الإسلامية: http://www.almajara.com

الآثار السلبية للخرافة

تخلّف الخرافة وراءها آثاراً بالغة السوء على المعتقد الإيماني والالتزام الأخلاقي والسلوك العملي، وعلى مجمل التصورات والأفعال، ومن هذه الآثار:

١. تكدير صفو عقيدة التوحيد:

الخرافة في كثير من مظاهرها تكدِّر عقيدة التوحيد بما تنشره من الاستعانة بغير الله في أمور لا يجوز أن يستعان فيها بغيره تعالى كالدعاء والنذر، قال تبارك اسمه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، فالله حصر الاستعانة به كالتوجه بالعبادة له تماماً، فلا يجوز قطعاً أن يستعان بغيره كما لا تجوز عبادة سواه.

ولذا كانت طقوس الذبح أو النذر لغير الله تعالى من المحرمات العقدية، فهي في حقيقتها خرافة تتعلق بنفع أو ضر من جمادات لا تقدر على حماية نفسها، أو كائنات لا تعيش في عالمنا ولا تستطيع نفعاً ولا ضراً لأحد، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلا غُرُوراً﴾ فاطر: ٤٠، وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأحقاف: ٤.

٢. انتشار الإشاعة:

الخرافة تؤصل لمشكلة عدم التحقق والتثبت من الأخبار، فهي تحوي في طياتها اللامعقول واللامقبول الذي يراد له أن يقبل من الناس مهما بدت غرابته واشتدت سذاجته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ الرعد: ٣٣.

ومع تقبل المجتمع للخرافة واستمرائه لها فلا عجب أن يصبح بيئة خصبة للإشاعة بكافة أشكالها، مثل الطعن في أعراض الناس أو نقل عجائب الأخبار وغرائبها عنهم، لأنها تصبح الهم الشاغل للمجتمع، ولا يهمه التحقق منها وفحصها والتثبت من صدقها، بل ليست لديه القدرة على ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: ٨٣، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الحجرات: ٦.

٣. غياب التفسير العلمي للحوادث:

وهي نتيجة منطقية لانتشار الخرافة، إذ لا سبب لدى المتعلقين بها لما يحدث من أمراض أو ظواهر إلا دائرة الوهم بما تحويه من أفعال الجن وألاعيب السحرة والعين ونحوها.

والأعجب من ذلك؛ أن المجتمع الذي تسوده الخرافة نجد نخبه المثقفة في كثير من الأحيان تترك علمها وثقافتها وتجاربها ومختبراتها عندما تتعاطى هذه الظواهر، وتنضم إلى جمهور

العوام في تفسيراتهم الخرافية، ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ النجم:٢٨.

فتجد أطباء ومهندسين وقانونيين ودارسين للعلوم الإنسانية والاجتماعية –فضلاً عن دارسي الشريعة– يقبلون وبكل سهولة تفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان تجري على ألسنة العوام لظواهر إنسانية أو طبيعية، وهذه هي علمانية المثقف، فهو في حقله المعرفي التطبيقي يؤمن بقانون السببية والترابط بين الأسباب والمسببات، لكنه إذا انتقل إلى ثقافته الشعبية الموروثة رمى بكل ذلك وراء ظهره، وغدا مستعداً لقبول فكرة أن ﴿يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الأعراف:٤٠ [١].

٤. الضمور الفكري والجمود الاجتماعي:

إن وجود ظاهرة التفسير اللاعقلي للظواهر الطبيعية والاجتماعية الذي تشيعه أجواء الخرافة أدى إلى ضمور فكري طمس أنوار العقل ونشر أعلام البلادة وألوية البلاهة في أوساط المجتمع، ومع تفشي هذه الظواهر في المجتمعات يسهل تسييرها ويسلس قيادها إلى أية وجهة؛ لأنها لا تملك عقلاً سليماً وإرادة حرة، لأن من أهم ما تخلفه الخرافة في عقل الإنسان بسبب التقليد وعدم القدرة على التفكير الصحيح؛ هو قتل الحرية، وعدم الشعور بالرغبة للانطلاق نحو غدٍ أفضل من الكرامة والعزّة.

وكذلك تسعى المجتمعات التي تفشو الخرافة في أوساطها إلى التشبث بكل ما هو موجود من موروث اجتماعي دون القدرة على التمييز بين ما هو نافع وما هو ضار، وما هو ظرفي متغيّر وما هو ثابت مطلق؛ لأن الخرافة التي شكّلت تفكيرها تدفعها باستمرار إلى

---

١ هذا المقطع من الآية وارد في سياق قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ﴾ الأعراف:٤٠.

حالة من الجمود باسم المحافظة على الموروث، قال جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ المائدة: ١٠٤.

ومثل هذه المجتمعات تلقى فيها الدعوات العلمانية رواجاً كبيراً، وهو ردة فعل لهذا الضمور الخانق والجمود القاتل، ومن الأمثلة الحاضرة على ذلك انتشار الشيوعية في المنطقة الإسلامية خلال القرن الماضي.

فكلما أوغل المجتمع في الخرافة وممارساتها كان المد العلماني أكثر قوة وأوسع انتشاراً.

٥. الانحراف الأخلاقي:

تشكّل الخرافة محضناً خصباً لتوالد الانحرافات الأخلاقية، ففي أتون طقوس الخرافة تمارس الرذائل والفواحش، وتكون الخرافة أيضاً من المبررات التي تساق لأجل تسويغ الممارسات غير الأخلاقية، فكم سمعنا وقرأنا عن أناس يَدّعون أنهم لا يستطيعون مفارقة الفواحش؛ لأن الجن يريدون لهم ذلك، ولا يد لهم فيه!.

فهذا يأكل أموال الناس بغير حق؛ لأن لديه قدرة فائقة على إخراج الجن وطرد الأرواح الشريرة، وعلاج الأمراض المستعصية كالسرطان وغيره بكتابات؛ كلها من القرآن الكريم!!.

وذاك طلق زوجته ألف طلقة، وحرّمها عليه، وأحلها للكلب الأسود أو الحمار الأغبر؛ لأن الجن قد ركبته!.

وامرأة عشقت رجلاً غير زوجها، وربما أفضت إليه وأفضى إليها في فراش واحد، لأن هناك من كتب لها سحراً صدّها عن زوجها، ورمى بها في أحضان عشيقها... وهكذا القائمة تطول بالانحرافات الأخلاقية التي تحال إلى دوائر الخرافة.

٦. إيجاد بيئة خصبة للأفكار الهدامة المحملة بالمضامين الخرافية:

إن كثيراً من الأفكار الهدامة التي قد تلبس أحياناً لبوس الدين تروج بضاعتها الكاسدة عن طريق أطنان الخرافة التي تحملها، وطالما أن المجتمع قد صيغ صياغة خرافية فإن هذه الأفكار الهدامة سوف تجد أرضاً خصبة لتنمو في فراغها.

إن المجتمع الذي تسوده الخرافة مجتمع لا يستطيع التمييز بين الغث والسمين، ولا يستطيع فهم حقائق الدين من مصادره، لأنه يعيش حالة أسطورية لا تمت إلى عالمنا بصلة، فهو كالنائم الذي لا يريد أن يوقظه أحد من أحلامه الوردية.

في حين أن المجتمع الذي صيغ صياغة قرآنية يستحيل أن تخترقه الأفكار الهدامة المحملة بالمضامين الخرافية، ويبقى سداً منيعاً في وجه طوفانها الجارف، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام: ١٢٢.

٧. الخوف والقلق النفسي:

تورث الخرافة بما تغرس في النفس من تصورات وهمية الاضطرابات العصبية والقلق النفسي، لأنها تجعل الإنسان يعتقد أن السحرة تطارده، والجن تترصده، والإنس تحرقه بعيونها، ونحوها من التصورات الساذجة، يدخل دوامتها فتعصف به زوابعها، فلا يكاد يقدر أن يخرج منها أو يتحرر من تأثيرها، إلا مَن رحم ربُك، ومن رسخت في نفسه هذه

الأمور فإن حياته تكون مضطربة ضنكى، ومزاجه عصبياً متوتراً، لأنه لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه، ولا يزيلها من تفكيره، فهي ليست خاضعة للسيطرة العلمية حتى يتم رصدها، ولا واقعة تحت الفحوص الطبية حتى يتمكن من علاجها، لأنها ببساطة لا وجود لها إلا في ذهنه، فمن يعتقد أن للسحر تأثيراً عليه، فهو سيضيف كل ما قد ينتابه من لأواء الحياة إلى ساحر من السحرة يعمل -حسب تصوره- على الكيد له، فإن توهم أنه ألجم أحدهم بطلاسم اكتتبها أو تمائم علّقها ظهر له ساحر آخر، وهكذا سيعيش صراعاً دائماً في حلبات السحر، إذا ما انتهى من هزيمة ساحر أفرد له ساحر آخر عضلاته بأسوأ مما فعل سابقه!، وستجول كل صنائع السحر الوهمية في دماغه لتولد له المزيد من التوتر العصبي والأمراض النفسية، والتي قد تسلمه إلى الاضطرابات العضوية، ومن ثَمّ قد تتولد فيه الأمراض البدنية.

وهكذا من يتوهم التلبس بالجن، فإن بدنه سيغدو خشبة مسرح يعرض عليها الجن رقصاتهم الوحشية، وهي مسرحيات ولعمر الحق لا تنتهي فصولها إلا باتباع سبيل الرشد من قطعيات الكتاب العزيز، وإلا لانطبق على هذا الواهم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الجن: ٦.

وهذا الصنف من الناس الذي يؤمن بالخرافة تجده نهبة للوسواس وعرضة لكل خناس، فهو يشك بأقرب الناس إليه، وقد يسيء الظن بوالديه، ولا يرى في الناس إلا منابع سوء، ومصائد شر، يرمقونه بعيونهم الحاسدة، ويهجمون عليه بطلاسمهم وأوفاقهم، فأنى لشخص هذا معتقده أن يعيش حياة سوية، ويأكل لقمة طرية، ويسيغ شربة هنية.

القسم الثاني

التطبيقات

– الآية غير المعتادة "المعجزة"

– الكرامة والسنن الكونية

– الإلهام

– عالم السحر

– عالم الجن

– الحسد والعين

– الدعاء والرقية

– التمائم (=الحروز)

– النذر والذبح لغير الله تعالى

– الأحلام والرؤى المنامية

١. الآية غير المعتادة "المعجزة"

"المعجزة" في القرآن ؛ يتكئ عليها أصناف من المتدينين والعلمانيين على حدٍّ سواء في القول بأن الدين يفسر الكون بأسلوب أسطوري.

أما أصناف المتدينين المذكورين :

١. فقسم : تشكّل بعقل سلفي أسطوري ، ويرى –شعورياً أو لاشعورياً– في نزع الأسطورة من تفكيره نزعاً لعقله السلفي ، والخلف عنده دائماً تبعاً للسلف ، وبالتالي نزع لكينونة عقله القائمة فيه.

٢. وقسم آخر : ركّب فهم دينه على الخرافة ، ويجد "المعجزة" أي الآية غير المعتادة التي ذكرها القرآن سنداً له ، فهو يرى في نزع الأسطورة عن تفسير الكون نزعاً لقواعد تدينه.

أما العلمانيون :

١. فقسم سلفي : لا يرى إلا ما يراه أسلافه العلمانيون ، وقد قال أسلافه : إن الدين قائم على الأسطورة. فهو ينزع منزعهم ، فعقله أخٌ لعقل المتدين السلفي.

٢. وقسم آخر : عقائدي النزعة ؛ يرى في مغالطته بين حقيقة الدين وفهم المتدين المعول الذي يطيح بالدين ويقيم معتقده العلماني ، وأن التخلي عن هذه المغالطة سيؤدي إلى إضعاف العلمانية أمام الدين ، وعقل هذا أيضاً أخٌ لعقل القسم الثاني من العقل المتدين.

وفي رأينا لا يفترق في هذه القضية عقل العلماني عن عقل المتدين الذي ذكرنا إلا في الشكل دون الجوهر ، ففي حين يعتبر المتدين أسطورية تفسيره للدين أمراً إيجابياً ، يعتبره العلماني أمراً سلبياً ، وكلاهما بعيدان عن حقيقة الدين ومقاصده.

ولذلك يستلزم الأمر أن نقوم بتفكيك "المعجزة" والنظر إليها من الداخل، في ضوء من الرؤية العلمية والفلسفية والمنطق القرآني، وعلينا أيضاً أن نحرر عقلنا من كثير من الأطر الكلاسيكية التي تهيمن على تفكيرنا؛ سواء على مستوى المتدين أو العلماني، وعلينا أن نغوص في عمق خاصية الاتساع القرآنية لنصيد لآلئ المعاني المتجددة.

الآية المعتادة

إن مصطلح المعجزة لم يرد في نصوص القرآن، وإنما وردت لفظة "سنة الله" ولفظة "آية الله" للتعبير عن "السنن التشريعية" و"السنن الكونية".

والآية التي ذكرها القرآن على أقسام، وما يهمنا منها هنا قسمان:

١. قسم معتاد وقوعه؛ وهو السنن والشرائع الكونية السائرة في الوجود:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ الإسراء: ١٢.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ آل عمران: ١٩٠.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأعراف: ٢٦.

وهذا القسم من الآيات كثير جداً وروده في القرآن، وعوّل عليه في إقامة الحجة على الناس في بيان الحق.

٢. قسم غير معتاد وقوعه؛ وهو يختلف في ظاهره عن السنن والشرائع الكونية المعتادة:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ الأعراف: ١٠٦–١٠٨.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ العنكبوت: ١٤–١٥.

ولم تأت الآية غير المعتادة إلا لغة لخطاب المشركين الخرافيين، ومع ذلك أعرضوا عنها، أما المؤمنون فقد كفتهم السنن الاعتيادية.

فهي ليست قاعدة مطردة الوقوع، وإنما هي استثناء محدود جداً في ظل سياقاته الاجتماعية، فنستطيع أن نقول: إن الآية غير المعتادة ليست لغة الحجة ومنطقها المستمر، وإنما هي لغة تفنيد الشبهة، كما أنها لا تخالف قانون السببية، ولا تخرج ابتداءً عن الجواز العقلي.

بين نوعي الآيات

القرآن الكريم يسمي كلا النوعين –المعتاد وغير المعتاد– آية، ويجمعها على آيات، ومعنى الآية العلامة الدالة على قدرة الله تعالى في إيجاد الكون وتحريكه ورعايته، فالآيات المعتادة أقامها الله حجة على كل الناس، وأما الآيات غير المعتادة فقد أقامها نقضاً لشبه المشركين المعاندين.

والآيات المعتادة ليست أقل شأناً من الآيات غير المعتادة، بل هي أعظم شأناً وأخطر قدراً من غير المعتادة، لأن المعتادة تحصل باستمرار من بداية الوجود وإلى نهايته، وهي حاسمة غير قابلة للتأويل، في حين أن غير المعتادة لا تحدث إلا مرة واحدة فحسب.

فما هو الأثقل وزناً، والأعجب حصولاً، والأكثر مدعاة للتفكر؛ الذي يحدث مرة ويولي، أو ما يتكرر حدوثه ولا ينخرم ناموسه؟.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الملك: ٣-٤.

ونحن نعدل عن لفظة "المعجزة" إلى لفظة "الآية" لأن القرآن لم يستخدم إلا لفظة الآية، ولأنها في رأينا حسب التوجيه القرآني:

– تعني العلامة الدالة على قدرة الله، ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ﴾ غافر: ٧٩-٨١.

– وتدل على امتداد أثرها إلى أمد بعيد غير محدود، ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ٩١.

– وهي لا تعني عدم معرفة سر وقوعها، ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ يونس: ٩٢، فقد يأتي اليوم الذي نعرف فيه كيف حدثت الآية، حيث أخبرنا الله تعالى عن انكشاف الآيات مستقبلاً؛ دون تمييز بين معتاد وغير معتاد فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فصلت: ٥٣.

وكل هذا لا يتوفر في دلالة لفظة المعجزة، ولذلك مع عنونتنا هذا المبحث باسم المعجزة لأجل مقام الموضوع المطروح إلا أننا لا نستسيغها، ولا نستعملها في مفردات حديثنا عن الآية غير المعتادة، إلا لضرورة المقام أو حالة ورودها ضمن النصوص المقتبسة.

أشراك في طريق فهم الآية غير المعتادة

لقد نبّه مِن قَبْلُ الفلاسفةُ على الأوهام التي تحجب العقل عن الوصول إلى الحقيقة، يقول الفيلسوف الجزائري أبو يعقوب الوارجلاني في كتابه "مرج البحرين في المنطق والفلسفة": (إن من طبع بني آدم استعمال القياس من الصغر أطفالاً، وعليه تبنى علومهم.

وعلوم الأطفال خيال، وعلوم الأغبياء أوهام، وعلوم الرجال استدلال، وعلوم العقلاء برهانية، ولكل غلطات حتى ينتهي العلم إلى العقلاء أهل البراهين النيّرة.

فغلطات الأطفال في قياساتهم، إن الصبي مهما ترعرع ونظر إلى والديه وفرّق بينهما، توهم أن كل طفل له والدان، وإذا كان له أخ صغير، توهم أن كل طفل من أترابه له أخ صغير، وإذا كان لهم في دارهم بئر أو بيت أو غرفة؛ في أمثالها، تخيّل إليه أن أترابه كلهم لهم هذه الأشياء، وكذلك إن جاع أو عري أو أكل أو شرب، فإذا بلغ انقشعت عنه هذه الحالات، وترقى إلى علوم الرجال.

وكذلك الرجال لهم غلطات في اعتقاداتهم وتوهمهم.

من لم يمارس الأمور، ولم يفارق وطنه، ظن وتوهم أن بلده إذا كان فيه ريح أو غيم أو رعد أو برق توهمه في سائر الدنيا، وكذلك إن كانت بلاده مخصبة أو جدبة أو جبالاً أو رمالاً أو سبخة أو جنة أو أنهاراً أو عيوناً؛ في أمثالها، فإذا مارسوا الأمور وسافروا ورأوا البلاد والعباد انقشع عنهم جَلُّ علومهم ورجعوا إلى الحقائق.

وكذلك من شذا من العلوم شيئاً، فتغلّب عليه فن منها من الإلهيات والرياضيات والطبيعيات والصناعيات، فإنه يؤتى عليه في غيرها مثل ما يؤتى على من كان في الصيف اعتقد أنه في الدنيا صيف، وأن من طال نهاره طال نهار الدنيا كلها، ومن قصر نهاره أو ليله اعتقد هكذا في الدنيا.

فقد رأينا مشاهدة حتى يعتدل الليل والنهار أبداً، ورأينا لا تفاوت ما بين النهار الطويل والليل القصير، والنهار القصير والليل الطويل مشاهدة، فإذا ما شذا من كل العلوم انقشع عنه الجهل وتدرب.

وغرضنا الانتقال في هذا السفر من حيّز الأطفال إلى النهاية ؛ إلى البرهان العقلي)[١].

وتكلم الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون عن هذه الأوهام، وأسماها الأصنام الأربعة، وهي صنم القبيلة وصنم المسرح وصنم الكهف وصنم السوق، ودعا إلى تحطيمها[٢].

وأما الفيلسوف العماني ناصر بن أبي نبهان فقد تكلم عنها تحت مسمى "عيون العقل"، وعنده (للعقل ثلاث عيون مثلاً : عين البصيرة، وعين الغريزية، والعين المدبرة)[٣].

ونحن في ميزان دراسة هذا الصنف من الآيات غير المعتادة يتحتم علينا أن ننتبه إلى مجموعة أشراك، قد يقع فيها قارئ هذا الصنف من الآيات، فتحول بينه وبين الوصول إلى حقيقتها، وتبعده عن فهمها الفهم الصحيح :

---

١ الوارجلاني "*الدليل والبرهان*" ج٢ ص١٢١-١٢٢.

٢ انظر : محسن جهانكيري "*فرنسيس بيكون: آراؤه وآثاره*" ص١٣٣-١٥٠.

٣ ناصر بن أبي نبهان "*تنوير العقول*" ص٦٤.

١. الشرك التأويلي:

وهو ما ينصبه التراكم المعرفي التأريخي لقارئ الآية، حيث يظل اللاحق ينقل عن السابق حتى يصبح هذا التأويلُ الأصلَ الذي يصعب تجاوزه.

مثاله: ما تصوَّره بعض المفسرين من ابتلاع الحوت ليونس عليه السلام، وأنه دخل بطنه ثم لفظه بعد ذلك؛ أخذاً لغوياً من الآيات:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ الصافات: ١٣٩-١٤٥.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٨٧ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنبياء: ٨٧-٨٨.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ القلم: ٤٨-٥٠.

فالقرآن الكريم لا يقول؛ لا من بعيد ولا من قريب: إن الحوت قد ابتلع يونس في بطنه ثم لفظه، بل يبيّن أن الحوت التقمه، والالتقام ابتداءً هو الوقوع في الفم أو الإمساك به، ولذلك يطرح القرآن إمكانين لمصير يونس عليه السلام:

- إمكان الابتلاع واللبث في البطن دون خروج، أي أن الحوت يأكله، ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

– وإمكان النبذ والإلقاء واللفظ: ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾.

ولأنه مؤمن فقد اختار الله له الاجتباء بعد أن فلحه الحوت على اليابسة.

ولكن لما سبق إلى العقل تأويل تأريخي متراكم عبر الأزمان قادم من الإسرائيليات، وقع في هذه المصيدة التأويلية، وقال بابتلاع الحوت لنبي الله يونس في بطنه ثم فلحه إياه ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فقد جاء في التوراة: (وأما الرب فأعدّ حوتاً عظيماً ليبتلع يونان، فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال)[1]، (فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت. وقال دعوتُ من ضيقي الرب فاستجابني. صرختُ من جوف الهاوية فسمعتَ صوتي. لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار. فأحاط بي نهر. جازت فوقي جميع تيّاراتك ولججك. فقلتُ قد طُردتُ من أمام عينيك. ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قدسك. قد اكتنفتني مياه إلى النفس. أحاط بي غمر. التفّ عشب البحر برأسي. نزلتُ إلى أسافل الجبال. مغاليق الأرض عليّ إلى الأبد. ثم أصعدتَ من الوهدة حياتي أيها الرب إلهي. حين أعيت فيّ نفسي ذكرتُ الرب فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك. الذين يراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم. أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك وأوفي بما نذرتُه. للرب الخلاص، وأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى البر)[2].

وجاء في الإنجيل: (لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال)[3].

---

١ سفر يونان (١/١٧).

٢ سفر يونان (٢/ ١–١٠).

٣ إنجيل متى (١٢/ ٤٠).

وأما التقام الحوت للإنسان بفمه ثم دفعه إلى البر فليس هو مما يستنكر عادة، وإنما جعله الله تعالى عبرة للعالمين في سياقه التأريخي بالنسبة ليونس عليه السلام.

٢. الشَرَك البياني:

وهو ما يقع فيه قارئ الآية لانحباسه في ظاهر اللغة دون النظر في أي سياقات معرفية واجتماعية أخرى، وهذا يحدث نتيجة عدم توصل المعارف الإنسانية إلى هذه السياقات، أو الإعراض عنها بعد اكتشافها.

مثاله: ما وقع فيه بعض المفسرين من ذهابهم إلى أن تنجية بدن الفرعون في الآية: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ يونس:٩٢، مأخوذة من النجي وهو الرفع في ربوة من المكان، وأنه لما لَفظَ البحرُ فرعونَ ألقاه في ربوة، وأن الناس المقصودين في الآية هم بنو إسرائيل، وقالوا في تفسير الآية: (أي نلقيك على نَجْوة من الأرض، وذلك أن بني إسرائيل لم يصدّقوا أن فرعون غَرِق، وقالوا: هو أعظم شأناً من ذلك. فألقاه الله على نَجْوة من الأرض، أي مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه)[1].

والآية لا ترتبط بلفظ البحر للفرعون، ولا برفعه في بقعة رابية، كما أنها لا تلازم بينها وبين بني إسرائيل، فمن عادة البحر أن يلفظ جيف الأموات، وإنما هي آية ظهرت لتكون عبرة للعالمين ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾، لا تخرج أبداً عن ناموس السببية، فقد كان سبب نجاة أبدان الفراعنة هو تحنيطهم، وبقيت أجسادهم شاهدة على صدق أمر الله فيهم إلى اليوم، إلا أن عدم فهم المفسرين للتأويل الحقيقي للآية، ووقوعهم في شَرَك اللغة، أسقطهم في هذا المكمن.

---

١ القرطبي "تفسير القرطبي" ج٨ ص٣٧٩.

٣. الشرك العقلي:

وهو ما لا يتبينه قارئ الآية بسبب المغالطات العقلية التي يورثها الحس أو الخداع اللفظي ونحوهما.

ومثاله: ما حاوله الملك مع إبراهيم عليه السلام، كما أخبر بذلك القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٢٥٨.

فقد حاول هذا الملك أن يمارس مع إبراهيم خداعاً عقلياً لولا فطنة إبراهيم عليه السلام.

٤. الشرك الاجتماعي:

وهو ما لا يعيه القارئ من سير الحركة الاجتماعية وظروفها التي تحدث فيها الآية.

لا ريب أنه قد حصلت تغيّرات بيئية في الكون، وكذلك تغيّرات اجتماعية، كلها أثّرت على الحركة الاجتماعية للإنسان في الحياة، ولكن لتقادم الأزمنة تخرج عن الاستحضار العقلي الآني، ولذلك فالإنسان يقرأها بعقل غير ذلك العقل الذي وجدت في بيئته، فمثلاً القصة التي وردت بها سورة الفيل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ سورة الفيل قد حاول المفسرون منذ الطبري والقرطبي ومن سبقهما؛ إلى محمد عبده ورشيد رضا ومن لحقهما، أن يفسروا هذه السورة بسياقاتهم الاجتماعية التي تهيمن على عقلهم، فجاءت تفاسيرهم تحمل غرائب التأويل، ولو انتبهنا إلى أن كل ما طار فهو طير، وقرأنا أيضاً هذه السورة في ظل الآيات التالية لربما زال عنا الكثير من الإشكال: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا

رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ هود: ٨١-٨٣.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ الحجر: ٧٣-٧٤.

ولا نريد هنا أن نقدم تأويلاً نهائياً لهذه الآيات، وإنما قصدنا أن نشير إلى أن هناك حاجباً اجتماعياً قد يجنح بالمفسّر إلى التأويل الذي لا يقصده القرآن، فيقع في مصيدة التفسير الواهم الذي يبعده عن السببية المعهودة.

لغة القرآن في قراءة الآية غير المعتادة

ويلزمنا هنا التوضيح أن القرآن الحكيم وهو يسوق لنا هذا الصنف من الآيات لا يقصد إثبات غرابتها، وإنما يقصد الهداية الحاصلة من ورائها للناس، وعلى ذلك علينا أن لا نتشبث بتأويل سلفي بمقدار أن نبحث عن العبرة والعظة في الآية.

وهذا يلزمنا أن نعرف لغة القرآن الخاصة به، ويجب أيضاً أن نتجاوز كل الأشراك الحاجبة للعقل عن الوصول إلى هدايته.

ومما تتميز به لغة القرآن:

— نسبة كل ما يحصل في هذا الكون إلى الله، والنسبة إليه تبارك وتعالى لا تستلزم حدوث الشيء بصفة غير اعتيادية، فما من شيء في الوجود إلا هو مُحدثه، وقد ذكر سبحانه كثيراً من الأمور الاعتيادية التي تجري في الكون ونسبها إليه، من ذلك:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ إبراهيم: ٣٢.

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ الرحمن: ٣-٤.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأعراف: ٢٦.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد: ٢٥.

وهذه لغة القرآن المعتمدة من أوله إلى آخره، فإذا قرأنا فيه: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الأعراف: ٧٣، فإن إضافة الناقة هنا إلى لفظ الجلالة الله لا تعني أن هذه الناقة مغايرة لبقية النوق في بنيتها الجسدية أو طبيعة معيشتها ومشربها، فيحكمها قانون كوني غير سائر في بقية الإبل، بل هي ناقة لا تختلف عن غيرها إلا أن الله تعالى جعلها موطن ابتلاء لثمود وآية لهم، حيث إن نبيهم صالح عليه السلام نهاهم عن أذيتها و﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ الشعراء: ١٥٥، ألا ترون أن الله تعالى أضاف الأرض التي تأكل فيها إليه، لبيان أن كل ما يجري منشؤه منه ومصيره إليه.

— القرآن يستثمر الوقائع الكونية التي أبادت الأمم السالفة في ترسيخ مفهوم الطاعة لله عزَّ وجلَّ وخطورة معصيته، فإذا أخبرنا القرآن المجيد أن الله أهلك قوماً بصاعقة أو زلزلة أو طوفان، فإنه بذلك يحدد صراحة أنه لا مجال لتلك الأساطير الوثنية التي تروى في كتب

الأولين، وأن الإهلاك لم يحدث إلا بما هو قائم في الكون وفق نواميس الله العاملة في خلقه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ العنكبوت: ١٤.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ الأعراف: ٧٨.

– القرآن الكريم في لغته كثيراً ما يطوي الأزمنة والأمكنة، فيجب أن ينتبه قارئ الآية إلى ذلك حتى لا يذهب عقله بعيداً عن السياق التأريخي، فقد جعل الله نبوة عيسى بن مريم عليه السلام علماً للساعة: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الزخرف: ٦١.

واليومُ في الطي الزمني الكوني عند الله قد يصل إلى ألف سنة عندنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج: ٤٧.

وقد يكون مقداره خمسين ألف سنة: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج: ٤.

وهذه أمثال لنا فحسب لتقريب الفهم إلينا، وإلا فقد يكون اليوم عند الله أكثر من ذلك، فالله تعالى يسمي كل ما بعد الدنيا اليوم الآخر، وهو زمن لانهائي وغير محدود، قال جلّ شأنه: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ النساء: ٣٩، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة: ٦٩.

بل الزمن نسبي حتى عند البشر أنفسهم، فالسنة غير متساوية عند جميعهم، وأقرب مثال على ذلك، أن القرن القمري المعتمد عند شعوب الشرق لا يساوي القرن الشمسي المعتمد عند شعوب الغرب، فالقرن الشمسي (١٠٠ عام) يساوي ١٠٣ سنوات قمرية، والقرآن أشار إلى هذه الحقيقة الاجتماعية في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ الكهف: ٢٥.

والسنة الصينية تختلف عن السنة الفارسية، والسنة الفارسية ليست هي السنة العربية، كما أن السنة العربية مغايرة للسنة الغربية... وهكذا هي مع بقية الشعوب، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ هود: ١١٨-١١٩.

ومن أراد أن يتبيّن بجلاء طي الأمكنة والأزمنة في القرآن فعليه بقراءة سورة يوسف.

— القرآن الكريم له لغته الخاصة به في العدد:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الأعراف: ٥٤.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لقمان: ٢٧.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٩.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٦١.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ المؤمنون: ١٧.

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ الطلاق: ١٢.

ليس هدفنا هنا استقراء جميع أوجه لغة القرآن؛ فما أكثرها، وإنما ضربنا لذلك أمثلة، حتى يتبيّن لنا أن ما قد نراه خارجاً عن القانون الاعتيادي في كثير من الآيات، ليس ذلك راجعاً إلا إلى عدم وعينا بقراءة لغة القرآن الكريم.

ولغة القرآن أمر بحث في مجال الجدل العقدي في علم الكلام كثيراً، وقد بحث الكلاميون فيه ما يتعلق بالإلهيات وشؤون اليوم الآخر، ووجد علم المحكم والمتشابه[1]، لكن في مجال الحياة الدنيا لم تُقرأ لغة القرآن بعد بالحجم المطلوب، ولذلك ندعو إلى علم كلام جديد يقرأ لغة القرآن بما يتعلق بهذه الحياة، له أصوله وضوابطه، فالقرآن أولاً جاء لحياتنا هذه، وما يترتب على فعلنا فيها ينتقل إلى الآخرة، فمباحث الدنيا لا تقل أبداً أهمية عن مباحث الآخرة.

فيجب علينا أن نهتم بدراسة عالم الشهادة والبحث فيه كما نهتم بعالم الغيب.

ولا ننسى أيضاً المباحث اللغوية القرآنية التي قدمها الفقهاء في مجال استنباط الأحكام الشعائرية والقانونية، وهذا يستدعينا أن نواصل قراءة لغة القرآن في جانب السنن الكونية، وهو علم قائم بذاته، إلا أنه لم يُخدَم بعد إلا قليلاً، ولم تقدم فيه إلا دراسات محدودة جداً.

ويجب أن ننبه هنا؛ أننا لا نقصد بخصوصية لغة القرآن؛ أنها تفْلت من حائط اللسان العربي، فالله تعالى يقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ

---

١ انظر: ابن بركة "*الجامع*" ج١ ص٥٠، السالمي "*مشارق أنوار العقول*"، أحمد بن حمد الخليلي "*جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل*" الجزء الخاص بالمحكم والمتشابه.

يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ طه:١١٣، ويقول: ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الزمر:٢٨، ويقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف:٢، ويقول: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الأحقاف:١٢.

وإنما نقصد أن القرآن الكريم بكونه كلام رب العالمين الذي يعلم كل شيء، والذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، قد أحاط بتقلبات الظروف الكونية، وتغيرات الأحوال البشرية، فاستلّ منها ما يصلح للعبرة ويقود إلى الهداية ويدفع إلى التعقل -كما ذكر الله في الآيات السابقة- بأبلغ عبارة وأرفع أسلوب، ينساب عذوبة ويتدفق بالمعاني، وهذا أمر تقصر عنه فصاحة أفصح المتكلمين، وبلاغة أبلغ الكاتبين، ولذلك لا يمكن أن تقاس لغة السماء بلغة الأرض، وكلام الحي الدائم بكلام الأموات، وإنما علينا لكي نفهم لغة القرآن أن نتزود مع علمنا بالعربية بعلم طبائع العمران وطرائق الاجتماع وأحوال الأمم ومواطن العبر، فليست اللغة العربية وحدها من يتكلم في القرآن، بل اللغة العربية ومن ورائها أمم وأقوام لهم لسانهم الذي ينطقون به، وأسلوب حياتهم الذي يعيشونه، وأفكارهم التي تحركهم، كما أن لهم همومهم ومشاكلهم التي تؤثر عليهم، وفوق ذلك كله تتكلم لغة القرآن عن غيوب لا يعلم حقيقتها إلا خالقها عزَّ وجلَّ، فجاءت لغةً مسبوكةً في قالب عربي؛ إلا أنها تحوي ذخائر تلك الأيام الغابرة التي تتكلم عنها، والأيام اللاحقة التي ستنبئنا بصدق كلمات الله الخالدة، فقد يجمل القرآن في كل ذلك بغية إيصال مقصد الهداية إلينا؛ دون أن يفصّل في حركة الأكوان أو تقلبات البشر، وقد يبهم في ذلك مع تحقق الإبانة في غرضه الذي يروم إبلاغه لنا، وقد يعمِّم بلغة التخصيص، أو يقيِّد بلغة الإطلاق، أو يعكس فيهما، وللقرآن طرائقه العجيبة في كل ذلك، فلا نحمل لغته الواسعة على لغتنا المحدودة،

وإنما على اللسان العربي المبين الذي قد تنداح ألفاظه على معانيه، كما قد تتضام معانيه في ألفاظه.

وهذه جملة بديعة قالها أبو يعقوب الوارجلاني في الموازنة بين اللغة عند "واضعي اللغات" وبين ما يدل "على كنه جلالها وخصوص حقيقتها" عند الله تعالى: (إن لله سبحانه في جلاله وكبريائه صفة يصدر الخلق والإبداع عنها، وتلك الصفة أعلى وأجلّ من أن تلمحها عين واضع اللغة، حتى يعبّر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها، فلم يكن في العالم لها عبارة، لعلو شأنها، وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمد طرفه إلى مبادئ إشراقها، فانخفضت عن ذواتها أبصارُهم، كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس، لا لغموض في نور الشمس، ولكن لضعف في أبصار الخفافيش، فاضطر الذين فتحت أبصارهم ملاحظة جلالها من أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تريهم من مبادئ حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً، واستعاروا لها اسم القدرة، فتجاسرنا لسبب استعارتهم عن النطق فقلنا: لله تعالى صفة هي القدرة؛ عنها يصدر الخلق والإبداع.

ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات، ومصدر انقسامها واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعيرت لها بمثل الضرورة التي سبقت؛ عبارة المشيئة.

فمن توهم أمراً "إنما هو عند المتناطقين باللغات"[1] التي هي الحروف وأصوات المتفاهمين، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفات وحقيقتها كقصور لفظ القدرة عن كنه القدرة)[2]، وهكذا قد يقصر ما تمنحنا إياه اللغة من فهم عن الإدراك

---

١ في أصل الكتاب العبارة غير مترابطة أصلحناها هنا ليستقيم معناها.

٢ الوارجلاني "الدليل والبرهان" ج٣ ص٣٠-٣١.

الكامل لمرامي لغة القرآن وغاياتها حتى نلمَّ بكثير من السياقات الأخرى، وخاصة مقصد الهداية إلى الحق والرشاد.

ولنقرأ جميعاً الآية التالية لنرى شيئاً مما رمزنا إليه بلغة القرآن الخاصة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف: ٥٤، فهذه الآية الكريمة حوت معاني بديعة تتجاوز لغتنا الاعتيادية، فلا اليوم هو يومنا، ولا الاستواء استواؤنا، ولا الغشيان ما ألفناه، ولا التسخير قد وقفنا على كل حقيقته حتى الآن.

وهي مع ذلك لغة قد تبقى مصمتة في بعض جوانبها لا تتأتى للقارئ العادي، بل ولا حتى للمفسِّر المتخصص، وإنما تنتظر التطور المعرفي البشري عبر الأيام ينطق سكوتها، ويكشف عن مصمتها.

هذا مثال على ما نقصد بلغة القرآن الخاصة، ولسنا نقصد الانفلات عن محكمات اللغة وقواعدها، ولا المياعة في ضروب التأويل والتفسير غير المنضبطين.

القطع والتأويل في معنى الآية غير المعتادة

وعلى ذلك؛ فمن يريد أن يقرأ الآيات التي ساقها القرآن الكريم عليه أن يفقه لغته الخاصة به، وأن لا ينزلها القارئ حسب سياقاته الاجتماعية الآنية، وأن لا يكون أيضاً محمّلاً بتأويلات سلفية تجنح به بعيداً عن الواقع المعقول، وأن يكون منتبهاً للأشراك التي تحول بينه وبين الحقيقة.

والتأويل بما تستوعبه اللغة العربية يمنحنا مقداراً هائلاً من السعة لقراءة عاقلة للقرآن، وذلك لأن القرآن يتسم بما أسميناه بخاصية الاتساع.

والاتساع في القرآن كثير جداً لا يحصى، والمقصود بالاتساع هو أن الكلمة القرآنية أو الجملة أو الآية تتسع لأكثر من معنى في نفس الوقت، مما يجعلها أكثر شمولاً، وصالحة لكل زمان ومكان، ومتوائمة مع طبيعة تغيّر الفهم الإنساني.

ولنأخذ على ذلك مثالاً واحداً من القرآن:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة: ٣١، من هو آدم؟ وكيف كان؟ وما طبيعته؟ وما هي هذه الأسماء؟ وما طبيعة التعلم الذي تمكَّن منه آدم؟ المجال مفتوح للعقل الإنساني ليحلل عبر هذه اللفظة الشخصية الإنسانية وطبيعتها، وبإمكان القارئ لهذه الجملة القرآنية الكريمة أن يستنبط منها العديد من المعاني، وأن يعالج بها النفس البشرية، وأن تتسع للتطورات العلمية والتغيرات الحضارية.

والاتساع هو من خصائص النص القرآني الذي يمد القارئ بمعان لا نهائية تستوعب المتغيرات الكونية.

وخاصية الاتساع القرآني هذه قد تكلم عنها المستشار عبدالجواد ياسين في كتابه "السلطة في الإسلام" تحت مسمى خاصية "الاكتناز"، وقد أبدع في عرضها، حيث لخّصها بمجامع كلمه فقال: (يلزم أن يكون النص مهياً لوظيفته، مزوداً بآلية تمكّنه من مجاراة التغيير، وإلا تناقضت وظيفته مع مجاله، وهو مخالف لأصل الدين ومقتضى الإيمان، إنّ بالنص منطقة مخبوءة متحركة، أو طاقة مكنوزة مجهزة للتمدد والانتشار)[1].

إلا أننا آثرنا مصطلح "الاتساع" لما يوحي به من التمدد اللانهائي لمعاني كلمات القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لقمان: ٢٧.

---

١ عبدالجواد ياسين "السلطة في الإسلام" ص٥٤.

وقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ الكهف: ١٠٩.

في حين أننا نرى أن إيحاء كلمة "الاكتناز" قد يدل على الانكماش الذي ربما يفهم منه البعض المحدودية، وعلى كلٍ لا مشاحة في الاصطلاح.

وعلى ذلك؛ فعلينا أن لا نحكم على الآية بأنها غير معتادة، حتى يتحقق الآتي:

– مجئ الخبر المقطوع بتواتره أن الآية قد حدثت، فلو دخلت نسبة ضئيلة من الظن فلا تقبل، فوقائع الكون المقطوع بها مقدمة على أي ظن، ولو كان ضئيلاً جداً، وعلى ذلك فلا نقبل الآية إلا من القرآن الكريم وحده.

– أن نفقه لغة القرآن الخاصة به.

– أن نتجاوز الأشراك الحاجبة عن الوصول إلى الحقيقة.

– أن لا تَقْبل الآية التأويل أبداً، فإن قبلته فيجب الذهاب إليه، دون الوقوف عند التفسير الذي لا يتسق مع العادة الجارية في الكون.

ومثال ذلك:

قوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران: ٣٧.

فوجد في كتب التفسير أن ذلك الرزق كان فاكهة الشتاء في الصيف، أو فاكهة الصيف في الشتاء، أي أنه يأتي بطريق غير معهود، وعدّ ذلك من الآيات التي وقعت لمريم عليها السلام.

لكن الآية تقبل التأويل، فإضافة الرزق هنا إلى الله تعالى لا يعني أنه يأتي إلى مريم بطريق غير معهود، فقد ورد في الكتاب العزيز إضافة الرزق إلى الله تعالى مع مجيئه بطريق معهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ البقرة: ١٢٦.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ البقرة: ٢٥٤.

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ الملك: ١٥.

فقبول الآية للتأويل يبعدنا عن قبول أي تفسير غير معهود واقعاً، فيمكن أن يكون هذا الرزق الذي أضيف إلى الله تعالى من عند أناس قدّروا هذه المرأة الصالحة المتبتلة، فكانوا يأتون لها بشتى احتياجاتها مما لم يكن زكريا عليه السلام —وهو من كفلها— على علم به، وما وصلت إليه مريم بنت عمران من كسب احترام الناس بسبب تقواها وصلاحها دفع بزكريا إلى تمني الولد ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ آل عمران: ٣٨.

الآية غير المعتادة والحلقة المفقودة

ركّب الله تعالى هذا الكون على أسباب تحصل بها المسبَّبات، وقانون السببية هذا صارم يحكم كل الوجود، ويدلّ على وحدانية الخالق جلّ وعلا، وهو منبثق من الحكمة التي تصدر عنه عزَّ وجلَّ، والقرآن الكريم من أوله إلى آخره يحيل الناس إلى هذا القانون المحكم، ولا تجد فيه آية واحدة تشير إلى خرمه، ولنا في قصة ذي القرنين عبرة في حصول

الأمور بقانون السببية، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ الكهف: ٨٣-٨٥، ويقول سبحانه وتعالى في تسلسل وجود الإنسان وفق أسباب الخلق: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون: ١٤، ويقول أيضاً في اتخاذ أسباب العيش في الدنيا وأسباب السعادة في العقبى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٧٧، وهذا كله لا يحدث عبثاً بل هو نابع من الحكمة، فالله حكيم، قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ سبأ: ١، ومرد كل الأمور بما فيها انضباطها بقانون السببية إلى الله تعالى وحده، قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ آل عمران: ١٢٦.

وقد أتى على العقل حين من الدهر لم يكن قادراً على استظهار تتابع حصول كل الأشياء وفق حلقات السببية، إلا أن ذلك لا يقضي بخروج أي حلقة ندّت عن فهمه عن هذا القانون، ونذّكر هنا بالعديد من الظواهر، كالفيروسات والكهرباء؛ فقد كانت قبل فترة غير معروفة، مع أن أثرها كان قائماً منذ القدم، وربما منذ بداية الخلق، وأصبح هذا واضحاً لا يحتاج إلى التدليل عليه.

وقد ظل جدول "مندليف" الدوري في الكيمياء ناقصاً بعض مواده، نتيجة الفراغات التي خلّفها الجهل بالأوزان الكتلية لهذه المواد، وهذا النقص حفز الكيميائيين على البحث عن باقي المواد حتى توصلوا إليها، واكتملت فراغاته المفترضة.

وكان يرجع سقوط الجرم إلى قوة مسيطرة عليه أو كامنة فيه، حتى جاء إسحاق نيوتن ورجع قوة الجذب إلى الكتلة، ثم جاء إنشتاين وقال بعكس ذلك ورجعها إلى الفراغ.

فقد كان الناس قبل نيوتن يتصورون أن هناك قوة كامنة في الجرم، واختلفوا في تفسيرها، بحسب ما سمح لهم العقل آنذاك من تفسير.

منهم من يقول: إن الجرم يحمله مَلَك وينزل به إلى الأرض. ومنهم من قال: لا، ليس بمَلَك وإنما هو جني. وثالث قال: لا، إنما هي روح كامنة في الجرم. وجاء الرابع وقال: بل هي خاصية ذاتية فيه.

ولما جاء نيوتن: كان محملاً بفكرة هذه القوة التي تسقط الجرم من أعلى إلى أسفل، وكل ما فعله هو أنه لم يلتفت إلى مَن يسقِط الجرم، وإنما التفت إلى قياس هذا السقوط، وقال بقوانينه في الحركة.

ولا يعنينا هنا نقل قوانينه هذه، وإنما الذي يعنينا هو أن نيوتن بيّن أن هناك قوة جذب للأرض جذبت هذا الجرم، وترتكز هذه القوة على مقدار الكتلة بالمقام الأول.

وكان هذا فتحاً كبيراً في عالم الميكانيكا، بل هو من يعود إليه فضل وجود هذا العلم وترسيخ أركانه.

وقامت الاختراعات الحديثة على هذه القوانين.

حتى جاء إنشتاين بنظريته النسبية ليقول: إن قوانين نيوتن صحيحة حسب الظاهر فقط، لكنها لا تعطي التفسير الصحيح، والصحيح أن أمر الجاذبية لا يرجع إلى الكتلة بالمقام الأول، وإنما إلى الفراغ الكامن في المادة.

وهذا يعني أن الأمر برمته انعكس، فالجاذبية لا ترجع إلى الكتلة، وإنما إلى الفراغ المجاور لها.

وبهذا تم تجاوز مقولات الفيزياء الكلاسيكية لتحل محلها مقولات الفيزياء النسبية.

ثم جاءت الفيزياء الحديثة لتقول: إن الكون لا يعرف الفراغ، وإن قوانين النسبية عجزت عن تفسير ظاهرة الثقب الأسود الذي يجذب إليه كل الأجرام السماوية التي يصل تأثيره الكهرومغناطيسي إليها.

والثقب الأسود هو بؤرة كونية شديدة الكهرومغناطيسية، تجذب إليها ما يقع تحت نطاق تأثيرها من الأجرام الكونية.

والفيزياء لم تتوصل إلى حد الآن إلى تفسير دقيق لهذه الظاهرة، إلا أنه مما فسر به هذه الظاهرة؛ أنها انكماش مغناطيسي لجرم سماوي، وهذا الانكماش أدّى إلى "اصطكاك" مواد الجرم، وشكّل قوة كهرومغناطيسية هائلة جداً، حتى أنها تجذب إليها كل جرم يقع تحت تأثيرها، وتحوّل حجمه المعتاد إلى حجم صغير جداً، حتى أننا يمكن أن نتصور الأرض فيما لو جذبها ثقب أسود أن تتحول إلى أصغر من بيضة الدجاجة.

هذه الظاهرة حيّرت فعلاً علماء الفيزياء، لو كانت قوة الجذب تعود إلى الكتلة لكانت الأجرام الضخمة هي التي يجب أن تكون أكثر جذباً، ولو كان الفراغ الأنشتايني هو السبب، فمعنى ذلك أنه يجب أن يتضخم الثقب الأسود وليس ينكمش، وهنا جاءت نظرية الفوتونات لتحاول تفسير كيفية تحرك السببية في الوجود.

وهكذا إذا فقدنا فهم حلقة من حلقات الآية غير المعتادة لا يفضي بنا أن نجعلها في دائرة الأسطورة كما يتصور العلمانيون.

ومن عالم الآيات التي ذكرها القرآن نأخذ مثلاً: تكليم سليمان عليه السلام النملةَ والهدهدَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ

أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ النمل:١٨-٢٤.

فإذا تجاوزنا الأشراك التي تحجبنا عن الوصول إلى الحقيقة، ونظرنا إلى هذه المخلوقات لوجدناها بلغة عصرنا أن لها لغة، وأصبحت لغات الحيوانات والحشرات داخلة ضمن العلوم الطبيعية، هذه اللغة قبل برهة من الزمن حلقة مفقودة من الفهم العقلي، بينما كشفت لنا الدراسات الآن كثيراً من حروفها الأبجدية، وهذا طبعاً يتجاوز الفهم الساذج الذي يجعل من هذه الحيوانات والحشرات تتكلم بكلامنا البشري.

لو قرأنا هذه الآية قراءة حضارية؛ ألم يكن من الممكن أن ينشأ لدينا علم "لغة الحيوانات والحشرات" قبل فترة طويلة، وبذلك نكون قد خدمنا الإنسانية خدمة جليلة، لكن ظللنا نلهث وراء أساطير الأولين، فوقعنا في مستنقع الخرافة، وأصبح امتدادنا المعرفي متجهاً إلى الخلف الأسطوري، بدلاً من الأمام العلمي الحضاري.

إن فقدانا لفهم بعض الحلقات التي تفسر حصول الحدث كثيراً ما كان يلجئنا إلى التصورات الساذجة السلبية حضارياً؛ ومثال ذلك فهمنا لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ النمل:٣٨-٤٠.

حيث إننا ارتددنا إلى الخلف لَمّا فهمنا "علم" ﴿الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ بأنه كتابات طلسمية تنقل الأشياء بها، وكأن علم الكتاب الذي يشير إليه القرآن الكريم هو علم الطلسمات والخزعبلات والخرافات، لا علم البناء الحضاري والوعي المعرفي، لم نأخذ حقيقة الانتقال، وسعينا إلى فك رموز هذه الآية بالبحث العلمي العقلي، بل قرأناها بعقل خرافي وهمي، وقلنا: إن هذا العلم هو علم الأوفاق والطلسمات. وأخذنا نكتبها ليل نهار لقرون متعاقبة، فلم ينتقل شيء، بل لم يتزحزح قيد شعرة.

وكان يجدر بنا أن ندرس تلك الأوضاع دراسة حضارية واعية، تربط أسباب النهوض الحضاري بمسبباته، وبالتالي كان يمكن أن يشكّل لنا نقلة نوعية في التفسير التأريخي لحركة الأمم وخط سيرها الحضاري، وأفضل ما قيل في تفسيره هذه الآيات والذي يتفق مع منطق العقل ومقتضيات الواقع؛ هو بأن عرش ملكة سبأ -وهو الكرسي الذي تتربع عليه أثناء جلوسها- كان محمولاً لديها، ولما كانت في طريقها إلى سليمان عليه السلام أراد أن يريها قدرته عليها وعلى مملكتها بأخذ عرشها، وأخذ شيء مهم من الممالك كان يعدّ قديماً رمزاً لرغبة السيطرة عليها، ولا ريب أن سليمان لم تكن رغبته في السيطرة لذات الملك، وإنما لدخول الناس في دين الله أفواجاً.

وبينما هذه الملكة تنتظر المثول بين يدي سليمان أعظم ملك آنذاك، كان هو يتناقش مع حاشيته فيمن يستطيع أن يحقق له هذا المطلب، فقال العفريت: أنا أستطيع أن أتحايل عليه حتى آتيك به قبل نهاية هذا المجلس.

لكن هذا لم يكن يحقق رغبة سليمان في إبراز هيبته، إذ إن هذا المجلس قد يستغرق وقتاً طويلاً إلى آخر النهار، وربما تبعته جلسات أخرى في أيام متوالية، فهو مجلس يتداول فيه فتح مملكة سبأ العظيمة آنذاك، ولابد أنه يستغرق وقتاً من الزمن ليس هيّناً.

إلا أن سليمان عليه السلام يريد أسرع من ذلك العرض الذي تقدم به العفريت؛ أولاً لأن الوقت بات وشيكاً، وثانياً لأنه يريد إيقاع الهيبة في نفسها وحاشيتها بأشد ما يمكن من الضغط النفسي.

حينها قام رجل عنده علم من الكتاب، أي أنه درس طبائع الأمور، وحصّل أساليب فنية من دراسات علمية سابقة مكتوبة، وحصل له بذلك معرفة بطبيعة مملكة هذه المرأة، وحكمة في استلال هذا العرش من بين حاشيتها دون أن تعلم هي بذلك، ومن يقف على أساليب المخابرات بين الدول يعرف القدرات الفائقة على مثل هذا العمل، والذي لا ريب له ما بعده في مملكة سليمان، فهو ينبئ عن قدرات ملكه الفائقة، ولذلك توجه إلى ربه عزَّ وجلَّ بالشكر والاعتراف له بالفضل.

"وارتداد الطرف" ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو كناية عن الإسراع، فهذا الرجل، وقد يكون وراءه جهاز بأكمله، على حسب طبيعة الدول والممالك كما هو معهود، قادر على أن يأتي بالعرش على أسرع وجه، وأساليب المبالغة والطي الزمني معروفة في القرآن الكريم لتحقيق أغراض بلاغية يرومها النص القرآني.

وقيل: (المراد بارتداد الطرف مدة رجوع نظره إليه بحسب اختياره، لا إلى خصوص نفسه، فإنك تنتقل من نظر شيء إلى ما شئت من إمساكه عن النظر، ومن نظره إلى آخر)[1]، وهذا التفسير يؤيد ما ذهبنا إليه من كون المراد بارتداد الطرف هو السرعة، بل قد يمدنا ببعد تأويلي آخر؛ وهو أن المقصود بارتداد الطرف كناية عن رفع النظر عن قضية إلى أخرى، أي قبل أن تصرف نظرك عن قضية مملكة سبأ إلى غيرها من القضايا،

---

١ محمد بن يوسف اطفيش "تيسير التفسير" ج٩ ص٣٥٠.

وهو يصب في نفس مصب الغرض البلاغي ؛ أي الكناية عن (استقصار المدة، كما تقول: افعل كذا في لحظة وفي رد طرف، تريد السرعة لا الحقيقة)[١].

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير" :

(ثم يحتمل أن يكون سليمان قال ذلك بعد أن حطت رحال الملكة في مدينة "أورشليم" وقبل أن تتهيأ للدخول على الملك، أو حين جاءه الخَبَر بأنها شارفت المدينة فأراد أن يحضر لها عرشها قبل أن تدخل عليه لِيُرِيَها مقدرة أهل دولته.

وقد يكون عرشها محمولاً معها في رحالها جاءت به معها لتجلس عليه خشية أن لا يهيىء لها سليمان عرشاً، فإن للملوك تقادير وظنوناً يحترزون منها خشية الغضاضة...

ولّما علم سليمان بأنها ستحضر عنده أراد أن يبهتها بإحضار عرشها الذي تفتخر به وتعدّه نادرة الدنيا، فخاطب ملأه ليظهر منهم منتهى علمهم وقوتهم.

وارتداد الطرف حقيقته ؛ رجوع تحديق العين من جهة منظورة تَحُول عنها لحظة، وعبّر عنه بالارتداد لأنهم يعبّرون عن النظر بإرسال الطرف وإرسال النظر، فكان الارتداد استعارة مبنية على ذلك.

وهذه المناظرة بين العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوة، وأن الحكمة مكتسبة لقوله: ﴿عِندَهُ عِلۡمٌ مِّنَ الۡكِتَابِ﴾، وأن قوة العناصر طبيعة فيها، وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضاً، فذكر في هذه القصة مثلاً لتغلب العلم على القوة.

١ محمد بن يوسف اطفيش "هميان الزاد" (ج١٢/ق١) ص ١٧٠.

ولما كان هذان الرجلان مسخرَيْن لسليمان كان ما اختصا به من المعرفة مزية لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته أن سخر الله له مثل هذه القوى، ومقام نبوته يترفع عن أن يباشر بنفسه الإتيان بعرش بلقيس.

والظاهر أن قوله: ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وقوله: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ مثلان في السرعة والأسرعية، والضمير البارز في ﴿رَءَاهُ﴾ يعود إلى العرش...

ولما ذكر الفضل أضافه إلى الله بعنوان كونه ربّه لإظهار أن فضله عليه عظيم إذ هو عبد ربه، فليس إحسان الله إليه إلا فضلاً محضاً، ولم يشتغل سليمان حين أحضر له العرش بأن يبتهج بسلطانه ولا بمقدرة رجاله، ولكنه انصرف إلى شكر الله تعالى على ما منحه من فضل، وأعطاه من جند مسخرين بالعلم والقوة، فمزايا جميعهم وفضلهم راجع إلى تفضيله)[1].

وعلى كل حال نجمل القول في ذلك فنقول: طالما أن الله تعالى أخبرنا بالحدث وثبت لدينا هذا الخبر ثبوتاً قطعياً، فإن علينا أن نؤمن به ثم نبحث عن الحلقة المفقودة من الفهم، لا أن نردَّ الحدث.

وبهذا، وبناءً على تكشف بعض الآيات التي ذكرها الله تعالى، وللوعد الذي قطعه للناس بقوله: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فصلت:٥٣، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ النمل:٩٣، بناءً على كل ذلك نقول: إن من المأمول في هذه الحياة أن ينجلي غموض فهم الناس لهذه الآيات.

---

١ ابن عاشور "التنوير والتحرير" ج١٩ ص٢٧٠-٢٧٢.

ونحن نرى في الآية غير المعتادة امتداداً معرفياً مستقبلياً، يمكن للإنسان أن يقطع أشواطه العلمية فيصل إليه، فبدلاً من وصم هذه الآيات بالأسطورة يجدر بالعقل الإنساني أن يسعى إلى بيان مبهماتها اللغوية والفلسفية، وحلّ رموزها العلمية والسببية.

وقولنا هذا لا يعني بحال أن الآية تتحقق بنفس ما قامت به أول مرة، وإنما نقصد أن ما تحقق بالآية غير المعتادة يمكن أن يتحقق بأمر معتاد، أي أن السببية طالما تمظهرت بمظهر ما —وإن بدا غريباً على العقل— فيمكن أن تتمظهر بمظهر آخر لا يكون غريباً عليه.

على أننا مع كل ذلك نتفهم حركة أدوار التأريخ ولزوم أخذها الزمن الكافي للتطور العقلي والعلمي، ولكننا ننكر على أصناف من المتدينين ظلوا يعتنقون الخرافة ويلصقونها بالدين بعد قطع العلم كل هذه الأشواط الحضارية والمعرفية، وننكر على العلماني أن يأتي بعد ذلك ولا يفرق بين حقيقة الدين ووهم المتدين.

هذا؛ والآيات التي قد نراها غير معتادة قد تكون في حقيقتها معتادة، ولكن جاءت بألفاظ متشابهة لحكمة يريدها الله تعالى[1]، ثم لا تلبث أن تتجلى مع مرور الزمن حقائقها، فتنتقل من كونها متشابهة إلى محكمة بعد أن ظهر للعيان معناها بمرور الأيام وتطور العلوم وتدبر الأفهام لها، (والناظر في القرآن يمتلكه العجب من هذا الأسلوب العجيب في عرض حقائقه، وسلوكه هذا النهج في الدعوة إلى الله، بحيث يجمع للإنسان في موقف واحد صنوفاً من العلم، ويفتح له أبواباً من العبر، ويطوف به على آفاق من الحقائق، على أن الإنسان وهو يتدرج في مدارج الحياة يظل في رحلة دائبة في آفاق العلم والمعرفة، لأنه في كل حين يكتشف الجديد من آيات الله في الأنفس وفي الآفاق، وعندما يصطحب القرآن في رحلته هذه يظل يرى سر الله يتجلى في هذا الاقتران والوئام بين آياته

١ لمعرفة بعض هذه الحكم انظر: ابن بركة "الجامع" ج١ ص٥٦–٥٧، أحمد بن حمد الخليلي "جواهر التفسير" الجزء الخاص بتفسير الآية السابعة من سورة آل عمران، ص٢٨–٤٣.

الناطقة في كتابه وآياته الصامتة في مخلوقاته، فينجذب انجذاباً إلى هذه الآيات، ويزداد تعلقاً بالإيمان به.

على أن هذا الأمر ليس بالنظر إلى عمر الإنسان الفرد المحدود فحسب، بل هو يشمل وضع حالة الإنسان باعتباره جنساً منطوياً على جميع أفراده، تمتد حياته عبر قرون، إلى أن يأتي أمر ربك، فإن سنة الله اقتضت أن تكون حياة الناس في تطور مطرد، يقترن باكتشاف الغوامض من حقائق الوجود، وسبر أغوار من مجاهيل هذا الكون.

وقد شهدت الإنسانية في خلال قرن مضى من الاكتشافات العلمية ما لم يكن يدور بخلد إنسان قط، حتى عاد ما لم يصل إلى أن يعلق حتى بالخيال والوهم حقيقة ناصعة لا يتمارى فيها اثنان، والقرآن مع كل هذا يتحدى كل مكابر ومعاند؛ بما يظهر للناس من أسرار آياته التي أخذت تتجلى حقائقها من خلال ما اكتشف من حقائق الوجود، تصديقاً لوعد الحق في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فصلت: ٥٣.

وبهذا تحول كثير مما كان يعدّ من متشابه القرآن إلى غير متشابه بما اتضح من معانيه التي كانت غامضة قروناً وقروناً، نحو قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الحديد: ٦، فإن معنى الآية الكريمة ظل بعيداً عن مدارك الأفهام، إذ لم يكن الناس يتصورون كروية الأرض، وأن الليل والنهار يتلاحقان بدورانهما المطرد على الكرة الأرضية، حيث إن كلاً منهما يلج في بطن الآخر، وإنما كانوا يتصورون أن الليل ينزل دفعة واحدة على الأرض كلها فيغشاها، ويرتفع كذلك عنها دفعة واحدة ليحل محله النهار، ولذلك شاع أن المراد بالآية ما ينقص من الليل ويزيد في النهار في الصيف، وما ينقص من النهار ويزيد في الليل في الشتاء، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ

يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ الأعراف: ٥٤، وقوله عزّ وجلّ: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ الزمر: ٥.

فإن حقيقة معاني هذه الآيات لم تكتشف إلا بعد اكتشاف أنه لا يرتفع النهار عن الأرض كلها، ولا الليل، وإنما يجلل أحدُهما نصفَ الكرة الأرضية حينما يكون النصف الآخر مجللاً بالآخر، فيكون كل منهما فوق غيره ككور العمامة.

وإنما يظهر تشابه مثل هذه الآيات على من لم يطلع على مثل هذه الحقائق)[1].

المعجزة الخارقة طلب الخرافيين

القرآن الكريم لم يردّ الناس إلى الآية غير المعتادة ولا مرة واحدة، و(جميع ما خاطب الرب تعالى به المشركين في القرآن –الذين لا يقرّون بالقرآن والنبوة– من الأمور العقلية، لأن الأمور العقلية ضرورية، فمن أنكر الأمور الضرورية كابر وتجنن)[2]، وإنما كان الكافرون به والمشركون الخرافيون هم من يطلب هذه الآيات، والقرآن لم يستجب لهم ولا لمرة واحدة، بل كان في كل مرة يردهم إلى السببية الطبيعية.

ولنا هنا أن نستعرض بعض هذه الطلبات، وما أكثرها!:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ﴾ الإسراء: ٩٠-٩٣.

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "جواهر التفسير" الجزء الخاص بتفسير الآية السابعة من سورة آل عمران، ص٣٥-٣٧.

٢ الوارجلاني "الدليل والبرهان" ج١ ص٣٦.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ البقرة: ١١٨.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: ١٠٩.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ الأنعام: ١٥٨.

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ العنكبوت: ٥٠.

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام: ٣٧.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ٢٠٣.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ يونس: ٢٠.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد: ٧.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ الرعد: ٢٧.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ آل عمران: ١٨٣.

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ الأنعام: ٨.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ هود: ١٢.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ۝ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً ۝ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ الفرقان: ٧-٩.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾ الفرقان: ٢١.

ولذلك فإنه من المستغرب جداً مع هذه البيان القرآني المستفيض أن يظل بعض الناس يتشبثون إلى الآن بالخوارق، ويتوهمون حصولها في حياتهم اليومية، ويجعلونها من أمر الدين، فهلاّ تدبروا القرآن ووعوا معانيه ودلالاته؟.

الآية غير المعتادة جاءت لدحر الخرافة

إن الخرافة جاءت جواباً لخطاب المشركين الخرافيين، فهم كانوا لا يعرفون إلا لغة الغرائب والأوهام والأساطير، وهذا أمر كان سائداً في العصور الغابرة، حيث كان السحر والكهانة والأسطورة تسيطر على عقول الناس آنذاك، وبالسحر والكهانة ادعى

الملوك الألوهية، واستعبدوا الناس، واتخذوهم سخرياً، كما أن سدنة الدين أكلوا باسم الكهانة المؤصلة للسحر أموال الناس سحتاً، ولذلك جاءت الآيات غير المعتادة لدحر هذه الخرافات، وذلك لأن هؤلاء الذين يستغلون السحر والخرافة والكهانة يزعمون أنهم قادرون على السيطرة على مفردات الوجود، فهم يزعمون أن الأشياء تنفعل لهم، وأنهم يعملون على تغيير حقائقها، وأن بالسحر يديرون الكون، فجاءت هذه الآيات لفضح كل ذلك، وبيان حقيقة أنهم أناس عاديون كسائر البشر، ولكن لأن الخرافة قد رسخت في أعماق الناس، وتغلغلت في سويداء قلوبهم، وانطوت عليها تلافيف نفوسهم، فقد حالت بينهم وبين رؤية حقائق الأشياء المتمثلة في الآيات الظاهرة البيّنة التي تعمل كل حين في الوجود، ولم يعتبروا بمن جاءهم بالحق إلا إن يأتيهم بالآيات العجيبة.

وكانوا أيضاً يتوهمون أن في الكائنات خصائص إلهية، فالبشر آلهة لأنهم يؤثرون في الآخرين بالسحر، والنار آلهة لأنها قادرة على الإحراق، والمياه آلهة لأنها قادرة على التدمير، والكواكب آلهة لأنها علوية تسيطر على المخلوقات السفلية، وهكذا.

و(كانوا إذا خرجوا إلى السفر أقسموا أمام أول كائن يبصرونه، إنهم يخصونه بأنواع العبادة إذا وفقوا في سفرتهم، فعبدوا لذلك الأشجار وأغصانها وجذورها وقشورها، والعظم والريش والناب والمخلب والحافر والسن والظفر، والحجر، وأنواع الحيوانات، وآلات الحرب، والشمس والقمر، وغير ذلك، معتقدين أن لها قوة مؤثرة، وقدموا لها القرابين باعتبار الروح التي تتصل بها أو تحتلها، واتخذوها تميمة تقيهم عوادي الأيام، وهذه ديانة كل الأمم المتوحشة، واعتنق هذا الدين كثير من العرب)[1].

---

١ محمد عبدالمعيد خان "*الأساطير العربية قبل الإسلام*" ص٦٥-٦٦.

فجاءت الآيات لتفضح كل ذلك، وتقول: إن هذه أوهام وخرافات وخزعبلات، والله تعالى هو المحرك لكل الوجود ومفرداته ونظامه، فالنار محرقة لأن الله جعلها كذلك لا لكونها قادرة بذاتها على الإحراق، بل لا نار أصلاً بدون إيجاد الله لها، والكواكب لا قدرة لها على التأثير على الكائنات الأرضية، والسحر ضرب من الوهم الخادع الذي لا حقيقة وراءه ولا تأثير، وهكذا في بقية الأمور.

وحتى تتضح الأمور أكثر نضرب على ذلك مثالين:

١. آية نبي الله موسى عليه السلام التي أبطلت السحر:

كانت الحضارة الفرعونية قد ساد فيها التصور السحري، وكان للفرعون السحرة الكبار الذين يحشدهم لخداع الناس وسوقهم بعصا المكر، على اعتبار أنه إلهٌ تطيعه الأشياء، وتتغير على يده حقائق الأمور، فلما جاءهم موسى عليه السلام وبدأ دعوته معهم اصطدم بالسحر والسحرة، وكان لابد من زحزحة خرافة السحر من عقول الناس لإقامة صرح الإيمان في نفوسهم شامخاً صلباً، وهذا يستدعي كشف عوار السحر، فالناس قد تعلقت بأفعال السحرة وخدعهم الماكرة، ولذلك أيده الله بآية العصا التي تنقلب حية تسعى فأخذت تلقف السحر، وتبطل ما كانوا يصنعون إفكاً ويهرفون كذباً.

دعونا الآن نتأمل هذه الآيات الكريمة من القرآن:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى
اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ
جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾
وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾
يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ

كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ
وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ
وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾
فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ
السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ
آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى
رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا
مُسْلِمِينَ﴾ الأعراف: ١٠٤-١٢٦.

فالفرعون كان يمارس هيمنته على الناس باستخدام السحر، وذلك باسترهاب نفوسهم وخداع عيونهم، فجاءت آية موسى عليه السلام للكشف عن بطلان تأثير هذا السحر، وأنه لا حقيقة وراءه، فالآية كما أنها جاءت جواباً على الخطاب الوثني للفرعون؛ فهي في المقام نفسه جاءت لزحزحة الخرافة من عقول الناس، وإقامة حجة الإيمان محلها، ولذلك لما رأى السحرة أن ما جاء به موسى ليس من جنس السحر، وإنما هو حقيقة قائمة، آمنوا برب موسى، وتحملوا في سبيل ذلك نكال الفرعون.

وكان هذا يكفي أن يؤمن الناس زمن موسى، لولا أن الخرافة قد تأصلت في نفوسهم، وأن البشرية تحتاج إلى أدوار تأريخية تتحرك بها إلى الأمام.

وكان أيضاً هذا الكشف العظيم في القرآن الكريم لمكر السحر وخداعه كافياً للناس من هذه الأمة لولا سريان أدواء الأمم إليها، ولولا تأصل وهم السحر بقوة في النفس البشرية، بيد أن خلود القرآن وقوة حجته جدير أن ينقل البشرية إلى حجة العقل وبرهان الحق.

وهكذا نجد الآية غير المعتادة تأتي لدحر الخرافة ، ولأن الإنسان مقهور بفكر أسلافه يظل غير قادر بسهولة على التحلي بحقائق العقل التي جاء القرآن الحكيم ليشيد بها بنيان الحياة.

٢. آية النبي عيسى عليه السلام التي جاءت لإبطال ألوهية المخلوقين:

ولعت الأمم بتأليه عظمائها من الملوك وكبراء الملأ وغيرهم ، وسرى هذا الداء الوبيل إلى المتدينين بالرسالات السماوية فألّه الأنبياء ، فكانت الآلهة لدى الأمم الغابرة تتسلسل آباً عن جد ، فالإله يلد إلهاً وهكذا ، وقد سرى هذا الأمر الجلل في بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم مجموعة أنبياء ، فجعلوا أنبياءهم أبناءً لله ؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل جعلوا من أنفسهم شعوباً مقدسة مختارة تتصف بخصائص الألوهية ، قال تعالى حاكياً ذلك عنهم : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ المائدة:١٨.

وهذه خرافة بشعة جداً يستلزم علاجها ، فجعل الله تعالى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام آية للناس ، ليعالج هذا الداء العضال ، فبيّن لهم أنكم إن كنتم تزعمون أن لأسلافكم صفة الألوهية والتقديس الرباني ، فها نحن نرسل إليكم عيسى بن مريم ، وخلقته أعجب من خلقتكم وخلقة آبائكم ، فهو من أم دون أب ، وتظهر على يديه الآيات.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ
﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى

بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ آل عمران: ٤٥-٥١.

ورغم هذه الآيات التي كانت تحدث لعيسى وتتحقق على يديه؛ إلا أنه بشر، ولدته أنثى من البشر، يشمله القانون الذي يسري عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ آل عمران: ٥٩، وهو عليه السلام يبيّن هذه الحقيقة للناس بنفسه، وينفي عن نفسه أي صفة للألوهية: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة: ١١٦.

فمجيء عيسى بن مريم إنما لنفي خرافة ألوهية البشر، وأن ما يحدث في هذا الكون هو من الله وحده، وإن ظهر الأمر غريباً على الناس.

وهكذا جاء النبي عيسى ليحارب أسوأ خرافة عرفتها البشرية، وهي خرافة الشرك وادعاء الألوهية، ويقيم صرح الإيمان مكانها، ولكن البشرية لا زالت تنتكس في حمأة الخرافة وتتمرغ في أوحالها النتنة، فيُدّعى لعيسى من قِبل من يزعم اتِّباعه ما ادّعي للسابقين من الألوهية، وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المائدة: ١٨،

وقـال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ التوبة: ٣٠.

وهكذا نرى أن الآيات تظهر لخمد الخرافة واجتثاثها، وتأبى عقول الناس السادرة في الانحراف الفكري إلا أن تحيي الخرافة وتسلك مسالكها.

ونحن لو تأملنا كافة أنواع الخرافة لوجدنا القرآن العزيز جاء لدحرها والقضاء عليها، إلا أن أهواء الناس تقلب حقائق القرآن لصالح الخرافة التي توارثوها من الأمم السابقة، وتعمقت في نفوس أتباعها، فإذا بمحاربة القرآن للسحر يتكئ عليها الناس من هذه الأمة لادعاء تأثيره، وإذا بنفي الألوهية والمشابهة لله الخالق، يتحول إلى تشبيه الخالق بخلقه، وتشبيه المخلوقين بخالقهم، وإذا الآية غير المعتادة التي جاءت للقضاء على الخرافة يُسوَّغ بها ما يسمى عندهم بالكرامة.

وهكذا حال البشر، يأتي الأنبياء لطمس الخرافة وقلعها وإقامة منهج العقل والحق، وإذا بالعقول الخرافية تطمس معالم هذا المنهج الإلهي في الوجود، لتسير وراء أهوائها، وتعربد تحت أوهامها.

القرآن جاء بإيقاف الآيات غير المعتادة

ورغم تلك الآيات التي كانت تأتي إلى الناس الأقدمين لتخرجهم من ظلمات الخرافة إلى نور الحقيقة، إلا أنها لم تجدِ فيهم، وقد آذن القرآنُ بمجيئه دخولَ البشرية مرحلةً عقلية واعية، تختلف عن الحقب الزمنية التي سبقتها، ولذلك كان يخاطب الناس خطاباً عقلياً، وكان يردهم إلى العقل السببي في الكون، ويحيلهم إلى التدبر في حركة مفردات الوجود والحياة.

فبمجئ القرآن أغلقت الآيات غير المعتادة كلياً، وأصبح الخطاب خطاباً عقلياً، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً﴾ الإسراء: ٥٩، وقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ العنكبوت: ٥٠-٥١.

وقد بيّنا في موضع آخر من هذا الكتاب أن مرحلة الآيات غير المعتادة أغلقت قبل فترة غير يسيرة من الرسالة الخاتمة، وهذا من الناحية التكوينية، والقرآن بهذه الآيات الكريمة وغيرها يعلن هذا الغلق نهائياً من الناحية التشريعية، وذلك حتى لا يبقى شيء من تأثيرها عالقاً في الذهن الإنساني، مما قد يؤثر على سائر الحجج العقلية التي عوَّل عليها القرآن وحدها.

والقرآن هو الآية الوحيدة التي يعجز الناس عن الإتيان بمثلها، ولم تأت إلى محمد صلى الله عليه وسلم أي آية أخرى غير معتادة، ولم يوجه الله تعالى إلى الناس أي خطاب غير خطاب الآيات المعتادة، ولم يستجب لمطالب الوثنيين الخرافيين: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُوراً ۝٨٩ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾ الإسراء: ٨٩-٩٣.

وحدد الله تعالى صفة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه بشر مثلنا، لم يُعط شيئاً من الآيات غير المعتادة لإلزام الناس وتحديهم، فالقانون الطبيعي الذي يسري علينا يسري عليه؛ دون زيادة أو نقصان، إلا أنه يوحى إليه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ فصلت: ٦ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الكهف: ١١٠.

وبيّن الله تبارك اسمه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلّغ القرآن ويتلوه على الناس، وأن أمر الهداية راجع إليهم بأنفسهم، وأن الآيات التي يطلبونها حلّت محلها الآيات الكونية الطبيعية التي وجّه الله الناسَ إليها، وسيعرفونها أنها لا تصدر إلا منه سبحانه: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ النمل: ٩١-٩٣.

٢. الكرامة والسنن الكونية

وبعد كل ما سبق ؛ فندخل إلى دراسة ما يسمى بالكرامة ، وقبل ذلك علينا أن نعلم أن هذا المصطلح لم يرد في نصوص الكتاب العزيز ، وإنما وردت لفظة "سنة الله" ولفظة "آية الله" للتعبير عن "السنن التشريعية" و"السنن الكونية" ، كما بيّنا ذلك في مفهوم الآيات المعتادة وغير المعتادة.

ف(هي لفظة غير واردة لا في القرآن الكريم ، ولا في السنة النبوية الشريفة ، ولا في أقوال السلف)[١].

إذن آية الله —كما قلنا— هي :

١. الكون وما حواه ؛ من الذرات إلى المجرات والسنن والنواميس المنظمة لحركة الموجودات ، كقوانين الحركة والجاذبية وغيرها مما تظهر لنا نحن البشر من خلال النظر الكوني ، قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ يوسف:١٠٥ ، وهذا الصنف من الآيات معتاد قائم في الوجود من بداية الخليقة وإلى أن يشاء الله تعالى.

٢. ما يؤيد الله به أنبياءه ورسله الكرام عليهم الصلاة والسلام لإقامة الحجة على المشركين المعاندين للإيمان بالله ووحدانيته وشرائعه ، أو ما يتجلى في أحد من عباده فيسوقه الله تعالى لنفس الغرض الإيماني كإقامة الحجة باليوم الآخر ، ويكون ذلك بقوانين كونيّة تبدو لنا ظاهراً أنها تختلف عن القوانين المعتادة ، ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء:٩١.

---

١ مختار عطا الله "إشكالية اطراد خرق العادات" ص٢١.

وهذا الصنف جاء وانقضى، ولذلك لا يثبت إلا عن طريق الوحي القطعي الثبوت والدلالة، لأنه بات من غيب الماضي.

وعلى هذا تكون آية الله أو آياته: نواميسه وسننه التكوينية والتدوينية.

فالكتابان (=التدويني والتكويني) هما من عند الله ومن خلقه وتسييره وبحفظه ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ فاطر: ٤١.

وكما أسلفنا في المبحث السابق؛ فالآية غير المعتادة لا تخرج عن كونها تمظهر آخر للقانون الكوني لأجل إثبات الرسالة أو البعث والنشور، ولم تأتِ الآية غير المعتادة إلا لإقامة الحجة على المشركين المعاندين، أما المؤمنون فقد كفتهم آيات الله المعتادة، ومع ذلك أعرض المشركون، وأسلم المؤمنون.

فمثلاً حمل السيدة الطاهرة مريم بالمسيح عيسى عليه السلام آية من آيات الله؛ قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ٩١، فتجدون أن الله جعل السيدة مريم وابنها آية للعالمين، فهذه السيدة العفيفة هيئت من قبل لهذه المهمة، ولا غرو في ذلك فهي من سلالة النبوة المصطفاة بالإيمان من عند الله تعالى، ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ آل عمران: ٣٦.

فالمسألة كلها هي آية الله، وهي تجلٍ للقانون الكوني بمظهر آخر في دائرة ضيقة لا تتعداها.

والعبد الصالح الذي ذكره الله تعالى في قصة موسى عليه السلام قال عن نفسه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى﴾ الكهف: ٨٢ وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ الكهف: ٨٢ فالمسألة أولاً وآخراً هي أمر من الله لهذا الرجل وتنفيذ منه لهذا الأمر، وهذا العبد الصالح علّمه الله مما يشاء، فهل يستطيع أحد الآن أن يفعل ذلك ثم يدعي أنها كرامات، ويفلت بعد ذلك من طائلة العقاب؟.

وهذا يقودنا إلى بيان أمر هام نطق به القرآن الكريم، وهو أن الله تعالى يخبر عباده الذين تأتيهم الآية بمجيئها، قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الأعراف: ١١٧

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ آل عمران: ٤٥

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يوسف: ٣٧

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ الكهف: ٨٢

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ القصص: ٧

فهل هؤلاء الذين يزعم لهم الكرامات الخارقة لا يزال يأتيهم الوحي ينبئهم بها؟! فالكرامة الخارقة من أي جهة تأتيها تجدها باطلة، ولا ندري من أين جاءنا مصطلحها، ولا من رمانا به؟!.

ولعل بعضهم أخذ هذا المصطلح من قول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يونس: ٦٢-٦٤، فقالوا: إن هذه البشرى هي الكرامة.

لكن السؤال: لِمَ تحمل البشرى مضامين خرافية لا تمت بصلة إلى الكون الذي خلقه الله تعالى؟!.

مع أن البشرى في حقيقتها لا تخرج عن إطار القوانين ونطاق السنن التي أودعها الله هذا الكون.

- فمثلاً عندما يدعو إنسان صالح أو عالم من العلماء فتستجاب دعوته هل هذا خارق للقانون الكوني كما يزعمون؟ بالطبع لا، فالله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة: ١٨٦ فإجابة الدعاء من سنن الله في كونه، ومن مقتضى حكمته، وكذا نصره سبحانه لعباده الصالحين ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ الحج: ٣٨ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ غافر: ٥١.

وإجابة الدعاء لا يختص بها أحد دون آخر، فالله هو من يجيب الدعاء، والأمر كله راجع إليه، فكل أحد من عباد الله عندما يسأله قد يستجيب له سبحانه، ولو كان السائل كافراً، فالأمر برمته راجع إلى الله تعالى وحده، قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ النمل: ٦٢، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ

مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يونس: ١٢.

– أو تتيسر للإنسان أموره في الحياة، وتتذلل له العقبات واحدة تلو الأخرى، فهل نعد هذا من خوارق السنن الكونية؟ بالطبع لا، فالله تعالى قال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح: ٦ وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ الطلاق: ٤ فهذه بعض السنن الاجتماعية التي نتفاعل معها في حياتنا اليومية، ولا يوجد فيها خرق للناموس الكوني.

القوانين والسنن الكونية

في اصطلاح أصحاب العلوم النظرية والتطبيقية يعنون بـ"القانون": الفكرة التي تصل إلى درجة القطع بها بعد اختبارها والتأكد من قطعيتها على أفراد عمومها.

وأما "النظرية" فهي: الفكرة التي لم تصل إلى درجة القطع، ولكنها موضوعة لتفسير ظاهرة ما.

أو هي: منظومة من القضايا؛ ثبت بعضها بالقطع، بينما لم يثبت بعضها الآخر بنفس هذه الدرجة.

ولا تعارض بين التعريفين، حيث يحوي كلاهما أموراً ظنية.

فالقانون ثابت لا يتغيّر في عموم أفراده، في حين أن النظرية لم ترتق إلى درجة القانون في الثبات والقطع، لكنها إذا اختبرت وأثبتت كفاءتها وصلاحيتها على أفراد عمومها قد تنتقل إلى درجة القانون.

إن الثبات هو سمة القانون بعكس النظرية التي تتأرجح بين ظنيات متعددة، وقد يصل بها الأمر إلى الإلغاء إذا ما ظهرت نظريات أخرى تعكس أوجه قصورها أو تنفي صحة مدلولاتها.

والقوانين لا تقتصر على العلوم التطبيقية والنظرية، بل تتعداها إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية.

فالقانون هو سمة الحياة وسنتها الدائمة التي لا تتغير، والله سبحانه وتعالى أوجد سنناً وقوانين في هذا الكون، واقتضت حكمته وإرادته ومشيئته أن تكون هذه السنن والقوانين ثابتة لتحكم هذا الوجود بأسره:

– قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ الإسراء: ٧٧.

– وقال: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ الأحزاب: ٦٢.

– وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٣٠.

– وقال: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يونس: ٦٢-٦٤.

سنة الله (=قانون) في الكون لا تتغير ولا تتبدل، وهذه القوانين من خلق الله وبحفظه، لا تبديل لخلقه ولا لكلماته، فالكون ليس خبط عشواء، أو ضرباً من العبث، بل هو يسير وفق نظام محكم دقيق، ووفق قوانين لا تتخلف ولا تتبدل ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾.

إن من أهم ميزات القانون الثبات، فهو سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير، ولذا فهو محتاج في إثباته إلى القطع في المصدر، ولا مجال لذلك إلا من طريقين:

١. الوحي الإلهي القاطع: ويتمثل في قطعي الدلالة من كتاب الله العزيز.

٢. التأمل والنظر في كتاب الكون وصفحاته.

ولو تأملنا كتاب الله؛ لوجدنا أن من أول ما نزل على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من وحي هو وجوب الرجوع إلى هذين المصدرين في إثبات السنن الإلهية، قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ العلق: ١-٤.

فهذه الآيات توجّه العقل المسلم من أول يوم إلى قراءة باسم الله مرتبطة به، ومقرّة بهيمنته على هذا الوجود من أصغر ذراته إلى أعظم مجراته.

وهذه القراءة تأتي لشيئين اثنين هما:

١. الخَلْق الدال على عظمة الخالق ووحدانيته ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

٢. الوحي المسطور بالقلم ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

فاكتشاف القوانين والنواميس الإلهية من خلال النظر في كتاب الكون، وكذا أخذها من الوحي المسطور؛ يجب أن يكونا بطريق قطعي لا يحوم حوله أدنى ريبة.

فعلى هذا لا يمكن إثبات أي قانون بطريق ظني استقلالاً، ولا يمكن معارضة أي قانون مستقر ثبت بأحد هذين الطريقين القطعيين بشيء جاء من طريق ظني، فضلاً عن أن يكون مصدره الوهم والخرافة كالقول بالكرامة الخارقة مثلاً.

تنقسم القوانين الكونية إلى ثلاثة أقسام:

١. قوانين ديناميكية: وهي قوانين تحكم حركة المركبات المادية وتفاعلها مع العناصر الأخرى كقوانين الجاذبية والحركة والطاقة وما شابهها.

٢. قوانين اجتماعية: وهي قوانين تحكم حركة الإنسان وتفاعله مع الكون والتاريخ، وهذا النوع من الصعب إثبات قطعيته والوصول به إلى رتبة القانون الديناميكي، لذا فإننا نجد الكثير من النظريات في هذه الدائرة لم تصل إلى رتبة القانون، لذلك فالمصدر الأكبر لهذه القوانين هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٣. قوانين غيبية: وهذه قوانين تتعلق بشؤون العباد وارتباطهم بالعمل والدار الآخرة، وما إلى هنالك من أمور غيبية كقوانين المغفرة والتوبة والجنة والنار والحساب والمعاد، وهذه لا تؤخذ إلا من الدليل القاطع في مصدره ودلالته؛ أي قطعي الدلالة من القرآن الكريم.

قد يلتبس الأمر على البعض فيما يخص القانون الكوني؛ ويظن أننا نقصد الحكم الشرعي في إثبات القطعية في المصدر، لكن هذا اللبس يندفع عندما نرى أن هناك فروقاً جوهرية بين القانون الكوني وبين الحكم الشرعي، فمن هذه الفروق:

١. الحكم الشرعي منوط تطبيقه بالإنسان فقد يطبقه، وقد يعرض عنه، في حين أن القانون الكوني سائر في الخليقة لا يتخلف ولا يتبدل.

٢. الحكم الشرعي قد تعتريه أحوال تعطل تطبيقه كأحوال الضرورات، في حين أن القانون الكوني لا تعتريه هذه الأحوال.

ورغم هذا الاختلاف الواضح بين هذين الأمرين، إلا أن الكرامة في جميع أحوالها تأتي متعارضة مع القانون الكوني، كما أنها قد توقع القائل بها في مخالفات للأحكام الشرعية، ومنها ما هو ناقض لعرى الإيمان رأساً.

وبعد كل هذا البيان، فإننا نرفض نظرية الكرامة الخارقة للعادة لكونها تصطدم مع هذه القوانين والسنن الكونية، التي رأينا قطعها ثابتاً بأدلة الشرع الحنيف وبراهين العقل السليم، وكل ما يخالف القطع لا يعتدّ به في هذا المقام، وهذا أمر ضروري:

– أولاً: لأنه الحق الذي لا محيص عنه، فهذه القوانين هي من وضع الله تعالى، بثها في كونه، وسيّر بها مخلوقاته.

– ثانياً: حتى نعصم عقولنا من الوقوع في الوهم والخطل، لأجل أن نتخطى فترتنا العلمية وكبوتنا الحضارية.

كيف نفهم المشيئة الإلهية؟

عندما يسمع البعض مثل هذا الطرح حول الكرامات يعترض ويرجع الأمر إلى مشيئة الله تعالى.

والسؤال الآن: هل المشيئة تقتضي عبثية الكون كما يتصور هؤلاء؟.

مثلاً هل نتصور أن تكون هناك ثيران ذات أجنحة تطير بها، أو نتصور أسماكاً تسبح في اليابسة، أو نتصور أنهاراً تجري في الهواء؟.

هل نستطيع تصور ذلك على تقدير أنها تحدث وفق مشيئة الله؟.

وهل هذا هو الفهم الصحيح للمشيئة الإلهية على اعتبار أن كل شيء ممكن الحدوث، وأنه جلّت قدرته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؟.

إذا كان الجواب بنعم ؛ فنحن أمام مشكلة خطيرة جداً في العقائد ، فالله تعالى يقول : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المائدة: ١١٨ ، وهذا في حق الذين اتخذوا عيسى وأمه إلهين مع الله تعالى ، ويقول سبحانه أيضاً : ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ٢٨٤ ، ويقول : ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ آل عمران: ١٢٩ ، ويقول : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة: ٤٠.

المرجئة[١] عبر تاريخهم الطويل قالوا : إن كل شيء ممكن ، وأن العبد المذنب داخل تحت المشيئة ، والتي هي أعم من آيات الوعيد ، إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له.

والذي قاله الذين لا يفهمون سنن الله أنه لا شيء ثابت وكل شيء ممكن وداخل تحت المشيئة ، فإن شاء الله طار الثور بجناح ، وإن شاء سبح السمك في الهواء.

ونحن نرفض كلام كلا الطرفين : فكلاهما وجهان لعملة واحدة ؛ هي سوء الفهم لسنن الله تعالى.

أهل الإرجاء وأهل الخرافة كلاهما يرى في المشيئة الإلهية تعبيراً عن عبثية الكون ، ويتصوران أن سنن الله في الكون ليست تعبيراً عن تلك المشيئة ، وإنما تَفلُّتٌ من سنن الله.

إن المشيئة الإلهية معبِّرة عن التصرف المطلق لله تبارك وتعالى في خلقه ، واقتضت مشيئته سبحانه هذه السنن والنواميس ، قال تعالى : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المائدة: ١١٨ وهذا من كلام السيد المسيح عليه السلام في حق الذين

---

١ المرجئة هم من يرجون أهل الكبائر ، فلا يقطعون بتعذيب المذنبين في الآخرة.

اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، فهل نقول: إنهم كذلك في هذه المشيئة إن شاء الله عذبهم وإن شاء غفر لهم؟!.

كلا بالطبع: فالأمر لا يعدو أن يكون تسليماً من العبد المعترف بعبوديته لله والمستسلم لأمره ومشيئته، وليس فيه خرق لسنن الله التي نصت على أنه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ الزلزلة: ٧-٨ ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ يونس: ٢٧ ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ الجن: ٢٣.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى إِلا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ الأعلى: ٦-٧ وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هود: ١٠٧. وكذا الأمر في ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ المائدة: ١ و﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ البقرة: ٢٥٣ و﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ البقرة: ٢١٢ فهذه المشيئة تعبير عن الناموس الإلهي البديع الذي نراه من حولنا، الذي لا يمكن أن تخرمه عبثية الخرافيين، فعلى الناس أن يجتهدوا في اكتشاف سنن الله في كونه، لا أن يتعلقوا بالخرافات والأوهام ثم ينسبوا ذلك إلى دين الله[1].

والقائلون بالكرامة الخارقة يقولون: إن الأمة أجمعت على أن لله تعالى من خلقه صفوة كراماً هم أولياؤه وأحبابه ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس: ٦٢ كما اتفقت على أن هذه الولاية لا تكون إلا لمؤمن موفٍ عارف بحلال الله وحرامه ملتزم بما يلزمه تجاه كل ذلك قال تعالى: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الجاثية: ١٩.

وهم يحملون هذا الكلام على الكرامة الخارقة للنواميس الكونية.

وهذا الكلام -بعرضه على كتاب الله- نجد عليه مآخذ، منها:

---

١ وسيأتي بإذن الله مزيد حديث عن المشيئة لاحقاً.

١. الناظر في كتاب الله العزيز يجد أن الولي هو من وفى بدين الله تعالى قولاً وعملاً ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ المائدة: ٥٥، وقال تعالى: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الجاثية: ١١٩، فإذن كل مؤمن موف بدين الله قولاً وعملاً هو من الأولياء، والله ولي المتقين.

٢. وإذا علمتَ ذلك فلا معنى لقول القائل: (أولياء الله العارفين وعامة المؤمنين) فكل مؤمن موف لله بالقول والعمل هو من الأولياء، وآيات الكتاب العزيز ناطقة بذلك، وفقه الولاية والبراءة قائم على هذا الأساس.

فالناس إما مؤمن موف يتولى، وإما خارم لهذا الإيمان بالقول أو العمل يبرأ منه، وإما شخص مجهول الحال نقف عنه[1]، وليس هناك أولياء عارفون يكشف لهم الحجاب إلى ما هنالك من مصطلحات صوفية غنوصية، فهؤلاء ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس: ٦٢، فالخوف الذي أذهبه الله عنهم هو ما بينته آيات الكتاب العزيز:

– عند دخولهم الجنة ﴿أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ الأعراف: ٤٩.

– من اتبع هدى الله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٣٨، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة: ٦٩.

١ انظر أبو سعيد الكدمي "**الاستقامة**"، السالمي "**بهجة الأنوار**".

ما هي البشرى؟

يقول القائلون بالكرامة الخارقة : إنه قد (نفتها المعتزلة وأثبتها الجمهور، والكرامة ظهور أمر خارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة على يد من عرفت ديانته واشتهرت ولايته في اتباع نبيه فيما جاء به)[١]، وكثيراً ما يرددون أن الأمة قاطبة ماعدا المعتزلة ويضمون إليهم الفلاسفة اتفقت على أن لأولياء الله تعالى كرامات لدنية يفيضها عليهم ويكرمهم بها، ويوردون على تأييد دعواهم تلك قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ويفسرون البشرى بأنها الكرامة الخارقة يونس: ٦٤.

وهذا الكلام عليه عدة ملاحظات:

أولاً؛ هذا الكلام غير دقيق من حيث نسبة الكرامة إلى الأمة ما عدا المعتزلة والفلاسفة، فلا الأمة قاطبة قالت بهذه الكرامة، ولا جميع المعتزلة[٢] والفلاسفة[٣] قد أنكرها، بل إن الفلسفة العرفانية قائمة على نظرية الكرامات الخارقة، وهي ما تسمى عندهم بالفيض، ويسميها الفيلسوف ابن سينا الكشف[٤].

وهذا الكشف أو الفيض –حسب تصور معتقديه– يمنح متعاطيه تصرفاً بالكون أو بمفرداته، كما يمنحهم معرفة الغيب، وهذا باطل لا أساس له، ولما سئل الشيخ السالمي عن (ما يوجد؛ أنهم يقولون: إن من حصل له علم الكشف يتصرف على ما أراد، ويوجد ذلك في كتب القوم، ويوجد في بعض كتبهم أن أهل الكشف منهم يجدون رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهدة بعدما مات عنا في الدنيا، فما معنى هذا كله؟.

١ محمد بن يوسف اطفيش "**شرح النيل وشفاء العليل**" ج١٧ ص١٩٦.

٢ انظر: محمد أبو الفضل بدران " **أدبيات الكرامة الصوفية**" ص٥٣.

٣ **المرجع السابق** ص٥٥.

٤ **المرجع السابق** ص٥٥.

كان جوابه: دعوى التصرف في الكائنات باطلة، كذّبها العيان، وما يوجد في كتب القوم فهو أشد بطلاناً، ولا ترى هذه الدعوى مأثورة في شيء من الكتب المعتبرة إلا في كتب الأوفاق والطلسمات، وأصل ذلك من الأحبار)[١].

ثم نتساءل: هل يمتلك من يقول بذلك نصاً قطعياً في ثبوته ودلالته على أن البشرى هي أمر خارق للعادة، يجريه الله تعالى على يد من شاء من أوليائه؛ تأييداً أو تثبيتاً أو تكريماً، على أن تكون خالية من أي سبب مباشر من هذا الولي المكرّم لحصولها، بل هي من الله تعالى امتناناً وفضلاً؟!.

في حين أننا عندما نقرأ كتاب الله نجد فيه أن البشرى:

– نوع منها يكون في الحياة الدنيا من الرزق بالمولود وغيره ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ هود: ٧٢–٧٤ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[٢] الذاريات: ٢٨.

– ونوع آخر هو التبشير بالتأييد بالملائكة تثبيتاً للمؤمنين ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً

---

١ السالمي "جوابات الامام السالمي" ج٥ ص٥٧٤–٥٧٦ (بتصرف).

٢ والوصف بالعجز والشيخوخة أمر نسبي تهيمن عليه الأنساق الاجتماعية وأعرافها، وتحكمه طبيعة البيئة وظروفها، كما أنه خاضع أيضاً للذوق النفسي، فلا يتنافى تعجبها مع قوانين الله وسننه السائرة في الخلق، فسننه ماضية، وأمره مقدر موزون ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ الأحزاب: ٣٨.

مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الأنفال: ٩-١٢.

- والبشرى في الآخرة هي دخول الجنة ﴿ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ الأعراف: ٤٩.

وهذه الوجوه هي التي يجب أن يصار إليها في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ يونس: ٦٤، وخير ما يفسر القرآنَ القرآنُ.

الآيات غير المعتادة بعد عهد الرسالة

أيدت بعض الرسالات السماوية السابقة بآيات عُدَّت على خلاف السنن الكونية المعتادة كتحول العصا إلى حية تسعى، وهذه الآيات غير المعتادة يريها الله تعالى عباده على يد أنبيائه ورسله، أو يجريها في بعض عباده، وهي تجري ظاهراً على خلاف سنن الحياة المعهودة، والآية غير المعتادة لم تأت لترسيخ خرق سنن الحياة بل لتثبيت ديمومتها، فعبر تاريخ الإنسانية كانت أهواء الناس تجنح باستمرار لإعطاء ما يعبدون من آلهة غير الله تعالى سلطة تسيير الكون وتنظيم شؤونه، فكانت عندهم آلهة للمطر والحب والخصب والجمال والرياح، (وفي فهرس الأصنام نجد أسماء الأشياء الطبيعية مثل: الشمس والقمر والأرض والسماء والشجر والحجر، وقد جعل الإنسان علاقته بها كعلاقة العبد بالمعبود، فخاطبها كما خاطب الإله)[1]، و(إنما نشأ الإنسان الأول يعبد الشمس والقمر

---

١ محمد عبدالمعيد خان "**الأساطير العربية قبل الإسلام**" ص٥٥.

والنجوم والمطر والنور وغيرها من آلهة الخير، والرعد والبرق والنار والظلام وغيرها من آلهة الشر، وقدّم القرابين والذبائح استدراراً لخير الأولى واتقاءً لغضب الثانية، فكان الدين على هذا الرأي وليد اللذة كما كان وليد الألم والخوف)[١]، فكان من أغراض الآيات غير المعتادة إثبات أن سنن الحياة وإحكامها هو بأمر الله وخلقه وتدبيره وتسييره، وليست بيد تلك الآلهة المزعومة التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً.

وأيضاً لنفي الزعم القائل بأن في هذه الكائنات خاصيّة ذاتية ترفعها إلى درجة الألوهية.

وليس معناه كذلك نفي قانون السببية وإثبات عبثية الكون.

ولكن للأسف الشديد إذا بهذه الآيات التي أتى الله تعالى بها لكي تقضي على مزاعم الوثنيين، وتكشف عن زيف المعتقد القائل بأن الآلهة المزعومة أو الكائنات المخلوقة تتلبس بشيء من خصائص الألوهية، إذا بهذه الآيات تتحول على أيدي كثير من المسلمين الذين ران على قلوبهم غبار الجهل إلى عكس مقصدها الشرعي، فإذا بهم ينسبون بها إلى "الأولياء والخواص" قدرات من جنس القدرة الإلهية.

وبعبارة أخرى انعكس مقصد الآية غير المعتادة عند القائلين بالكرامات الخارقة إلى الضدّ، فبدلاً من أن تزيل الخرافةَ من أذهانهم إذا بها تثبتها وترسخها في نفوسهم، ولأجل هذا لم يعوِّل الله تعالى لهذه الأمة على الآيات التي في ظاهرها مخالفة للقانون المعتاد.

ولذلك رغم أن هذه الآيات الحسية قد شاهدها الذين وقعت لهم وعاينوها إلا أنها لم تكن سبباً في إيمانهم:

---

١ المرجع السابق ص١٠٨.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ الأنعام: ٤.

وقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً﴾ الإسراء: ٥٩.

وبعد وصول البشرية إلى درجة من النضج كانت الآية التي أيد بها خاتم الأنبياء والمرسلين آية معنوية تمثلت في القرآن الكريم، فقد جاء القرآن بعد أن تعدت البشرية بحقب زمنية طور الآيات غير المعتادة التي كانت في الأمم السابقة إلى دائرة السنن والنواميس، ويذهب بعض المختصين في دراسات الأديان إلى أن الإنجيل في أصله لا الذي حرفه الناس وتلاعبوا به جاء ليرسخ مفهوم السببية في الكون[1]، فإذا ثبت هذا؛ فإنه يعني أن الآيات المعتادة التي أظهرها الله تعالى على يد المسيح عليه السلام هي المرتاج الذي أوصد به باب هذا الصنف من الآيات، وهو كذلك يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الأنبياء الكرام صلى الله عليهم وسلم جاءوا لإقرار مبادئ السببية في عقول الناس، لإخراجهم من حنادس الوهم والخرافة المسيطرة عليهم.

إلا أن النفوس البشرية التي ألفت المادة وتمرغت في وحلها ظلت تطالب النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الآيات ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ﴾ الإسراء: ٩٠-٩٣، فكان يؤمر بأن يجيبهم بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَراً رَسُولاً﴾

١ قاسم الكاكائي "الله ومسألة الأسباب" ص ٢٧٠.

الإسراء: ٩٣، فالآيات بأمر الله تعالى ووظيفة الرسول هي التبشير والبلاغ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام: ٣٧، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ العنكبوت: ٥٠.

ويبيّن الله تعالى أن توقف الآيات الحسية غير المعتادة كان بعدم جدواها في تحقيق الإيمان، وذلك بتكذيب الناس بها ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً﴾ الإسراء: ٥٩.

و(لقد تمكنت الرسالة الخاتمة من نقل الإنسان من عالم الكهانة والشعوذة إلى عالم البحث العلمي والمعرفي؛ عندما خلصته من التصور السحري للطبيعة وزودته بتصور علمي لها)[1].

و(كلنا يعلم كما يبيّن لنا القرآن الكريم أن الخوارق الطبيعية البائدة لم تكن في يوم من الأيام سبباً لإيمان منكري الكتاب الكريم، كما أنها لن تكون سبباً للاعتقاد بقدرة السحرة والمشعوذين على خرق النظام الطبيعي، فقد بيّن لنا القرآن الكريم أن المعجزات لم تؤد إلى إيمان الجاحدين بالرسالة والنبوة، بل إلى التشكيك في صدق أحاسيسهم واتهام رسلهم بالسحر:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ الحجر: ١٤-١٥

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الأنعام: ٧)[1].

١ لؤي صافي "**إعمال العقل**" ص ٢١٤.

والقرآن الكريم (يبيّن لنا كذلك أن الرسالة الخاتمة تمثل منعطفاً هاماً في تاريخ الرسالات، ينتهي معه التأييد الإلهي بالمعجزات ويعول بعده على الأسباب، لذلك يرفض القرآن الكريم الاستجابة لطلب المعاندين رؤية الخوارق، ويدعوهم إلى النظر وإعمال العقل في الوحي والكون، ويجعله السبيل الوحيد للإيمان:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام: ٣٧.

كذلك يبيّن الله تعالى أن النصر والهزيمة متعلقان بالأسباب، المادية والنفسية سواء، فيطالب المؤمنين بالإعداد ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الأنفال: ٦٠، ويعلمنا أنه قادر على إلحاق الهزيمة بالمعاندين، لكنه شاء أن يجعل النصر والهزيمة اختباراً للاستعداد النفسي والمادي للمتصارعين ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ محمد: ٤)[٢].

وهذه الآيات غير المعتادة لا تتكرر، وإنما هي جاءت لغرض محدد وهو إلزام المعاند الحجة، والقضاء على الخرافة، بحسب الوضع الاجتماعي الذي ظهرت فيه.

يقول الشيخ ناصر بن أبي نبهان الخروصي: (فمعجزات الأنبياء لا يمكن أن يشبهها شيء)[٣].

ويقول العلامة سلطان بن محمد البطاشي: (وإن كان مولانا الجليل قد قضى بالنجاة من نار نمرود اللعين لأبينا إبراهيم الخليل، فذلك من كرامات الأنبياء صلوات الله وسلامه

١ المرجع السابق ص ٢٣٣.

٢ المرجع السابق ص ٢٣٦.

٣ السعدي "قاموس الشريعة" ج١٢ ص٧١.

عليهم، كما وقع لموسى ولعيسى عليهما السلام من المعجزات الخارقة للعادات، فلا عبرة بها في غيرهم)[١].

ويقول في ذلك العلامة محمد حسين فضل الله: (إن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت للخروج من الطريقة المثالية الخوارقية اللاسننية إلى الطريقة السننية، فقد كان البشر قبل بعثته عليه الصلاة والسلام يعيشون حياة الخوارق والمعجزات، فجاء الإسلام لينقلهم إلى حياة السنن والقوانين، وحين كان المعاصرون للدعوة الإسلامية يطلبون من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتي بالمعجزات كما أُرسل الأولون، كان يرفض ذلك، وقد سجل القرآن الكريم طلبهم، وسجل الرفض لطلبهم أيضاً، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ العنكبوت: ٥٠-٥١، ولكن الشعوب لم تدرك هذه النقلة فظلت تعيش الخوارق والمعجزات، ولم تتكيف مع حياة السنن)[٢].

ويقول الشيخ أحمد بن حمد الخليلي: (ولكن مما يؤسف له أن هذه الصحوة أصيبت بشيء من غبش التصور في بعض الأمور، وذلك مما جعل أبناءها يعيشون في عالم الأوهام، أسارى للخيالات المختلفة، وقد دفعهم ذلك إلى تجاهل سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه، مع أن الله سبحانه خلق الخلق، وجعل لخلقه سنناً لا تتبدل حتى يرث الله الأرض وما عليها، وما يقع من الخوارق التي قد تكون رأي العين خارجة عن هذه السنن؛ فإنما ذلك يرجع إلى أمر الله سبحانه عندما يريد أن يتعطل شيء من السنن في قضية معينة، مع أن هذه الحالة لا يمكن أن يقاس عليها، وهي حالات في عهد النبوات لا

---

١ سلطان محمد بن البطاشي "جوابات درسائل العلامة البطاشي" ص ٢٦٩.

٢ محمد حسين فضل الله "أحاديث في قضايا الاختلاف والوحدة" ص٣٨٧.

يمكن أن تتكرر مرة أخرى ؛ لأن السنن تسير حسب ما شاء الله سبحانه وتعالى مما رسمه لهذا الكون من نواميس معينة لا تتبدل ولا تتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن غبش التصور هو الذي يحول بين البصائر والرؤية الصحيحة لحقائق الأشياء، وذلك مما يجعل هذه النفوس أسيرة الأوهام، فتبتعد كل البعد عن هذه الحقائق)[1].

ويرى القاضي عبدالجبار المعتزلي القول باستمرار ما يسميه بـ"المعجز الناقض للعادة" وسميناه بالآية "غير المعتادة" فيه مفسدة عقدية قد تفضي إلى التنفير من الرسالة الإلهية: (إنّا لا نجيز في المعجز الناقض للعادة أن يحدث على الدوام في المستقبل، لا لأمر يرجع إلى أنه لا يجوز أن يصير نقض العادة بالاستمرار عادة مستأنفة، لكن ذلك يقتضي التنفير والمفسدة، فلابد منه تعالى أن يجنبه الأنبياء عليهم السلام، فإذا لم يتم ذلك إلا بأن لا يديمه وجب القطع أنه تعالى لا يديم ذلك[2]، وهذا هو الذي اختاره شيخنا أبو عبدالله رحمه الله)[3].

وقال الفقيه المتكلم ابن حزم: (ذهب قوم إلى أن السحر قلب للأعيان، وإحالة للطبائع، وأنهم يرون أعين الناس ما لا يرى، وأجازوا للصالحين على سبيل كرامة الله عزَّ وجلَّ لهم اختراع الأجسام، وقلب الأعيان، وجميع إحالة الطبائع، وكل معجز للأنبياء عليهم السلام.

ورأيت لمحمد ابن الطيب الباقلاني ؛ أن الساحر يمشي على الماء على الحقيقة وفي الهواء، ويقلب الإنسان حماراً على الحقيقة، وأن كل هذا موجود من الصالحين على سبيل

١ أحمد بن حمد الخليلي "إعادة صياغة الأمة" ص ٩٤-٩٥.

٢ نحن نتحفظ على كلامه هذا لأنه مبني على نظرية "الحسن والقبح العقليين" المعتزلية، والتي نرى فيها وفقاً لمعطياتنا الفكرية جدالاً فكرياً مبالغاً فيه يحتاج إلى تحرير، ولكن ما يهمنا هنا هو رفضه للقول باستمرار الآية غير المعتادة بعد عصر النبوات.

٣ انظر: مختار عطا الله "إشكالية اطراد خرق العادات" ص٤٥، نقلاً عن القاضي عبدالجبار "المغني".

الكرامة، وأنه لا فرق بين آيات الأنبياء وبين ما يظهر من الإنسان الفاضل ومن الساحر أصلاً إلا بالتحدي، فإن النبي يتحدى الناس بأن يأتوا بمثل ما جاء هو به، فلا يقدر أحد على ذلك فقط، وإن كل ما لم يتحد به النبي صلى الله عليه وسلم الناس فليست آية له، وقطع بأن الله تعالى لا يقدر على إظهار آية على لسان متنبئ كاذب.

وذهب أهل الحق إلى أنه لا يقلب أحد عيناً، ولا يحيل طبيعة، إلا الله عزَّ وجلَّ لأنبيائه فقط، سواء تحدّوا بذلك أو لم يتحدوا، وكل ذلك آيات لهم عليهم الصلاة والسلام تحدوا بذلك أم لا، والتحدي لا معنى له، وأنه لا يمكن وجود شيء من ذلك لصالح ولا لساحر، ولا لأحد غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والله تعالى قادر على إظهار الآيات على أيدي الكذابين المدعين للنبوة، لكنه تعالى لا يفعل كما لا يفعل ما لا يريد أن يفعله من سائر ما هو قادر عليه.

قال أبو محمد: وهذا هو الحق الذي لا يجوز غيره، برهان ذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ الأنعام: ١١٥، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة: ٣١، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس: ٨٢، فصح أن كل ما في العالم مما قد رتّبه الله عزَّ وجلَّ الترتيب الذي لا يتبدل، وصح أن الله عزَّ وجلَّ أوقع كل اسم على مسماه، فلا يجوز أن يوقع اسم من تلك الأسماء على غير مسماه الذي أوقعه الله تعالى عليه، لأنه كان يكون تبديلاً لكلمات الله تعالى التي أبطل الله عزَّ وجلَّ أن تبدل، ومنع من أن يكون لها مبدل، ولو جاز أن تحال صفات مسمى منها التي بوجودها فيه استحق وقوع ذلك الاسم عليه لوجب أن يسقط عنه ذلك الاسم الذي أوقعه الله تعالى عليه.

فإذ ذلك كذلك ؛ فقد وجب أن كل ما في العالم مما قد رتّبه الله على ما هو عليه من فصوله الذاتية وأنواعه وأجناسه فلا يتبدل شيء منه قطعاً ، إلا حيث قام البرهان على تبدله ، وليس ذلك إلا على أحد وجهين :

– إما استحالة معهودة جارية على رتبة واحدة ، وعلى ما بنى الله تعالى عليه العالم من استحالة المني حيواناً ، والنوى والبذور شجرة ونباتاً ، وسائر الاستحالات المعهودات.

– وإما استحالة لم تعهد قط ، ولا بني الله تعالى العالم عليها ، ولذلك قد صح للأنبياء عليهم السلام شواهد لهم على صحة نبوتهم وجود ذلك بالمشاهدة ممن شهدهم ، ونقله إلى من لم يشاهدهم بالتواتر الموجب للعلم الضروري ، فوجب الإقرار بذلك.

وبقي ما عدا أمر الأنبياء عليهم السلام على الامتناع ، فلا يجوز البتة وجود ذلك لا من ساحر ولا من صالح بوجه من الوجوه ، لأنه لم يقم برهان بوجود ذلك ، ولا صح به نقل ، وهو ممتنع في العقل كما قدمنا ، ولو كان ذلك ممكناً لاستوى الممتنع والممكن والواجب ، وبطلت الحقائق كلها ، وأمكن كل ممتنع ، ومن لحق هاهنا لحق بالسوفسطائية على الحقيقة.

ونسأل من جوَّز ذلك للساحر والفاضل : هل يجوز لكل أحد غير هذين ، ألا يجوز إلا لهذين فقط ؟.

فإن قال : إن ذلك للساحر والفاضل فقط. وهذا هو قولهم.

سألناهم عن الفرق بين هذين وبين سائر الناس ، ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هؤلاء وبين غيرهم إلا بالدعوى التي لا يعجز عنها أحد.

وإن قالوا : إن ذلك جائز أيضاً لغير الساحر والفاضل. لحقوا بالسوفسطائية حقاً ، ولم يثبتوا حقيقة ، وجاز تصديق من يدعي أنه يصعد إلى السماء ، ويرى الملائكة ، وأنه يكلم

الطير، و يجتني من شجر الخروب التمر والعناب، وأن رجالاً حملوا وولدوا، وسائر التخليط الذي من صار إليه وجب أن يعامل بما هو أهله إن أمكن، أو أن يعرض عنه لجنونه)[1].

روايات الكرامات

قبل أن نشرع في رد الاستدلال بالروايات في إثبات الكرامات الخارقة، يجب التذكير بأن العقيدة لا مجال فيها للظنون أو الاحتمال، لذا فهي تؤخذ من النصوص القطعية في ثبوتها ودلالتها[2]، وهذا مذهب جمهور الأمة، وعليه الإباضية قاطبة لم يخالف في ذلك أحد منهم، بل إنهم شددوا كثيراً في هذا الباب، ورفضوا الكثير من الروايات فيما هو أشد منه خطراً بناءً على هذا الأصل الأصيل للدين.

خذ على سبيل المثال الروايات الواردة في الميزان والصراط والكثير من تفاصيل الحياة الأخروية، لماذا لم يأخذوا بها؟ ولماذا لم يعدّوها عقيدة يطالبون الناس بها؟! لأنها وببساطة شديدة من الآحاد الذي لا يقبل في الاعتقاد.

بل إن هناك قضية كقضية عذاب القبر قد أفردوا لها باباً مستقلاً لمناقشة الآراء المختلفة الواردة فيها، فمنهم من أثبتها، ومنهم من نفاها، ومنهم من توقف في أمرها[3].

والكثير من الأغمار في أيامنا هذه لا يعرفون سوى الشعار الساذج (إن صح الحديث فهو مذهبي)، ولم يتعمقوا في العلم ليعرفوا مناهج الفقهاء والعلماء في الاستدلال، ولا يعرفون كيف يتعاملون مع هذه القضايا.

---

١ ابن حزم "*الفصل في الملل والأهواء والنحل*" ج٥ ص٩٩-١٠٠.

٢ أي من نصوص الكتاب العزيز القطعية في دلالتها.

٣ انظر: الأصم "*النور*" ص٢٤٢-٢٤٣.

فالعلماء اتفقوا على أن الاعتقاد لا يكون إلا من نصوص قطعية متواترة، ومن المعلوم أن مصدر العقائد الإيمانية هو كتاب الله الحكيم، فيه كافة الاعتقادات ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨، وأما الروايات الواردة عنه صلى الله عليه وسلم، فهي:

١. إما أن تكون موافقة للكتاب، فتكون بمثابة تعبير عن المضامين التي بين دفتيه.

٢. أو تكون مخالفة له فترد وترفض لأجل ذلك، مثل روايات الخروج من النار والشفاعة والتجسيم والتشبيه، وأشباهها.

٣. أو تكون مستقلة بقضايا غيبية ليس لها أصل قطعي من الكتاب، فهنا اختلفت نظرة العلماء إليها، فمنهم من قبلها على سبيل الرأي؛ إلا أنه لم يقطع عذر مخالفيه لعدم وجود الدليل القطعي، ومنهم من رفضها لأن الغيبيات إما أن تثبت بالدليل القطعي وإما أن لا تثبت أصلاً، ومنهم من توقف في أمرها، وهذا كله على اعتبار أن المسألة من قبيل الرأي دون رفعها إلى مستوى العقائد، وهذه الأقوال الثلاثة موجودة في المذهب الإباضي، وتظهر جلية في مسألة عذاب القبر.

وهذا التقسيم لأجل حل إشكال الرواية وفض الاشتباك بين مسائل الرأي ومسائل الدين، لكن قضايا الاعتقاد هي في كتاب الله وحده دون زيادة أو نقصان ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الأنعام: ٣٨ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ العنكبوت: ٥١، يقول ناصر بن أبي نبهان: (التوحيد والوعد والوعيد والأخبار؛ ففي التنزيل بيان علم ذلك كله فلا يحتاج فيه إلى معرفته بالسنة)[١].

١ ناصر بن أبي نبهان "تنوير العقول" ص٣٨.

فأين نجعل مسألة الكرامات هذه وقد وضح الصبح لذي عينين أنه لا أصل لها في كتاب الله الكريم سوى ما يحاول أن يُلزَّ به من دعاوى واهية في هذا الخضم، هل يوجد لها نص كقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الله﴾ محمد: ١٩ أو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى: ١١.

ومن الروايات التي تساق عادة في إثبات مثل هذه الكرامات:

- قصة جريج العابد:

روى البخاري (٢٣٥٠) ومسلم (٢٥٥٠) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كان رجل في بني إسرائيل يقال له جريج يصلي، فجاءته أمه فدعته فأبى أن يجيبها، فقال: أجيبها أو أصلي. ثم أتته فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه المومسات. وكان جريج في صومعته فقالت امرأة: لأفتنن جريجاً. فتعرضت له فكلمته فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها، فولدت غلاماً، فقالت: هو من جريج. فأتوه وكسروا صومعته، فأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب. قال: لا، من طين).

- أصحاب الغار الثلاثة:

روى البخاري (٢١٠٢): ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر، فدخلوا في غار في جبل، فانحطت عليهم صخرة، قال: فقال بعضهم لبعض: ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه.

فقال أحدهم: اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت أخرج فأرعى، ثم أجيء فأحلب، فأجيء بالحلاب فآتي به أبوي فيشربان، ثم أسقي الصبية وأهلي وامرأتي، فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان، قال: فكرهت أن أوقظهما والصبية يتضاغون

عند رجلي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى طلع الفجر، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء. قال: ففرج عنهم.

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء، فقالت: لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه. فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة. قال ففرج عنهم الثلثين.

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيراً بفرق من ذرة، فأعطيته وأبى ذاك أن يأخذ، فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقراً وراعيها. ثم جاء فقال: يا عبد الله أعطني حقي. فقلت: انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك. فقال: أتستهزئ بي. قال: فقلت: ما أستهزئ بك، ولكنها لك. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فكشف عنهم).

وغيرها من الروايات المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين.

قبل كل شيء وكما بينا من قبل أن هذه الروايات الآحادية لا يمكن أن تستقل بإثبات غيب لأن غاية ثبوتها ظني، وإثبات الغيب والعقائد لا يكون إلا بالقطع.

الأمر الآخر: نتساءل من أين جاءت هذه الروايات التي يقال إنها مما ثبت في "الصحاح"؟!.

إن غالب هذه الروايات وارد في كتاب الأنبياء من هذه "الصحاح"، وهذا الباب بالذات مما دخلته الإسرائيليات بصورة كبيرة، وللتأكد من ذلك دعنا نتصفح هذا الباب من بعض كتب "الصحاح":

١. يبتدئ كتاب الأنبياء في صحيح البخاري بحديث ينسبونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً)[١]، وهذا السياق من رواية أبي هريرة مقتطع من أصله وهو (خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً)[٢] فيبتدئ هذا الباب بخرافات اليهود وأساطيرهم التي تسربت إلى المسلمين، فقد جاء في العهد القديم الإصحاح الأول من سفر التكوين: (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الارض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم)[٣]، وهو في أصله نص أسطوري تسرب إلى التوراة من الأمم القديمة، فقد جاء في نص فرعوني قديم: (بالرعاية الحسنة قد حظي البشر مواشي الله، لقد صنع السماء والأرض حسب مشيئتهم، وصدّ وحش المياه عند الخليقة، وصنع نَفَس الحياة لخياشيمهم، إنهم صور له انطلقت من جسده)[٤].

وهذا التسرب الخطير ظهر عند المسلمين –وللأسف الشديد– منذ وقت مبكر جداً، مما حدا بالخليفة علي بن أبي طالب أن يخطب في الناس قائلاً:

(يا أيها الناس اتقوا هذه المارقة.

فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ وما المارقة؟.

قال: الذين يشبهون الله بأنفسهم.

فقالوا: وكيف يشبهون الله بأنفسهم؟.

---

١ **البخاري** (٣١٤٨).

٢ **البخاري** (٥٨٧٣).

٣ **سفر التكوين** (١/٢٦–٢٧).

٤ فرانكفورت وآخرون "**ما قبل الفلسفة**" ص٧١.

قال: يضاهئون بذلك قول الذين كفروا من أهل الكتاب، إذ قالوا: خلق الله آدم على صورته، سبحانه وتعالى عما يقولون، سبحانه وتعالى عما يشركون، بل الله الواحد الذي ليس كمثله شيء، استخلص الوحدانية والجبروت، وأمضى المشيئة والإرادة والقدرة والعلم بما هو كائن، لا منازع له في شيء، ولا كفؤ له يعادله، ولا ضد له ينازعه، ولا سمي له يشبهه، ولا مثل له يشاكله، ولا تبدو له الأمور، ولا تجري عليه الأحوال، ولا تنزل به الأحداث، وهو يجري الأحوال وينزل الأحداث على المخلوقين، لا يبلغ الواصفون كنه حقيقته، ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته، لأنه ليس له في الخلق شبيه، ولا له في الأشياء نظير، ولا تدركه العلماء بألبابها، ولا أهل التفكير بتدبيرها، إلا بالتحقيق أيماناً بالغيب، لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين، وهو الواحد الذي لا كفؤ له ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ الحج: ٦٢(١).

٢. ثم تأتي الروايات تباعاً في تفسير الظواهر الكونية التي خلقها الله تفسيراً خرافياً، فتفاجئنا رواية (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها)(٢)، ويخنز معناه ينتن، أي أن اللحم كان لا ينتن وبدأ النتن –كما يظهر من سياق الرواية– من أيام بني إسرائيل، وكأنه كان عقوبة لهم!، فعلينا بناءً على هذه الرواية أن نعيد النظر في دراسة ظاهرة فساد اللحم ونؤرخ لها بظهور بني إسرائيل!.

وكذلك فإن خيانة زوج آدم له لا أصل لها سوى التوراة ولم يذكرها القرآن الكريم، رغم التفصيل في قصة آدم وخروجه من الجنة.

---

١ كتاب الترتيب، آثار الربيع في الحجة على مخالفيه (٩٦).

٢ البخاري (٣١٥٢).

٣. ثم لا تنسى هذه الروايات أن تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقتل الوزغ —دويبة صغيرة— الذي ناصب خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام العداء ونفخ عليه كما تقول الرواية في كتاب الأنبياء[1]!.

٤. ويختم الباب بتبرير هذا النقل المكشوف لكثير من روايات اليهود بمقولة ينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)[2]، وهل النبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالتحديث عن أناس حرَّفوا ما أنزل الله؟ وهل يأمرنا بترك هداية القرآن والاشتغال بمرويات بني إسرائيل؟.

(من المعلوم أن اليهود منذ أن بعث الله تعالى نبيه صلوات الله وسلامه عليه ظلوا يخططون من أجل الانحراف بفكر هذه الأمة عن المنهج السوي، فلذلك دخل في أدمغة هذه الأمة الكثير من الأفكار التي خطط لها اليهود بطريقة أو بأخرى، وقد صدّق الناس كثيراً أولئك الذين تظاهروا بالإسلام من أهل الكتاب وتلقوا عنهم، ووجدت رواية تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلّم هي أبعد ما تكون عن الحقيقة أنه قال: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"، فلذلك دخلت الأفكار المنحرفة في صميم عقيدة هذه الأمة، وكان ذلك سبباً لزيغ هذا الفكر عن المنهج السوي)[3].

٥. أما الفأرة فقصتها أغرب، فقد رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فقدت أمة من بني إسرائيل، لا يدرى ما فعلت. ولا أراها إلا الفأر. ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته؟).

---

١ في *صحيح البخاري* (٣١٨٠) عن أم شريك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ وقال: كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام.

٢ *البخاري* (٣٢٧٤).

٣ أحمد بن حمد الخليلي "*إعادة صياغة الأمة*" ص١٤٢–١٤٣.

قال أبو هريرة: فحدثت هذا الحديث كعباً فقال: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: نعم. قال ذلك مراراً. قلت: أأقرأ التوراة؟[1].

فالفأرة من المحتمل أن تكون من بني إسرائيل، لا تعليق، وإنما ندع المجال للعقل البشري أن ينظر في كتاب الله وملكوته ويستخلص العبر والدروس والمواعظ.

وانتبهوا جيداً للحوار بين أبي هريرة وكعب الأحبار حول هذه الأمور وصلتها بالتوراة، وهذا كان مدخلاً للكثير من الإسرائيليات، قال بُسر بن سعيد وهو أحد التابعين: (اتقوا الله وتحفظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة، فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثنا عن كعب ثم يقوم، فأسمع بعض من يجعل حديث رسول الله عن كعب، ويجعل حديث كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2].

وتتلمذ أبي هريرة على كعب الأحبار أمر ثابت فيما يتعلق بالتوراة، حتى أنه كان يعرض ما يرويه عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام على كعب، وكان كعب يصدّق على ذلك اعتماداً على اتساقه مع المنظومة التوراتية، فقد روى الربيع (٢٨٢): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة قال: خرجت إلى الطور، فلقيت كعب الأحبار فجلست معه، فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان فيما حدثته أن قلت له: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم عليه السلام، وفيه تاب الله عليه، وفيه أهبط من السماء إلى الأرض، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مسيخة ليلة الجمعة حتى

---

١ البخاري (٣١٢٩)، مسلم (٢٩٩٧).

٢ الذهبي "سير أعلام النبلاء" ج٢ ص ٦٠٦. للتوسع في موضوع الإسرائيليات، انظر عبد الجواد ياسين "السلطة في الإسلام"، خميس العدوي "المنهج العقدي الإباضي"، زكريا المحرمي "قراءة في جدلية الرواية والدراية"، خالد الوهيبي "أشراط الساعة... النص والتاريخ".

تطلع الشمس إشفاقاً من الساعة إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه.

قال كعب: ذلك في كل سنة يوم؟.

فقلت: بل في كل جمعة يوم.

فقرأ كعب التوراة؛ فقال: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول المستشار عبدالجواد ياسين: (أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً "أن الله خلق آدم على صورته" ومن مروياته، أي آدم، ستون ذراعاً، ونحن نقرأ في الإصحاح الأول من العهد القديم "التوراة" النص التالي "وخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه"، وقد كان البخاري يعلم، كما نحن نعلم الآن أن أبا هريرة لم يطلع على التوراة قراءة، لأنه لم يكن يعرف القراءة بالعربية ذاتها، فقد روى البخاري نفسه عن أبي هريرة قوله "كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام"، ووفقاً لعلاقة أبي هريرة المعروفة بكعب، وتقريظ هذا الأخير له بأنه كان يعلم التوراة، فإننا نقترب من حدِّ الجزم بأن أبا هريرة في هذا الحديث ناقل عن كعب الأحبار)[1].

٦. أما الشمس فحكايتها حكاية غريبة ومثيرة في كتاب بدء الخلق من "الصحاح"، فهي لما تغرب (تذهب تسجد تحت العرش)[2]، أما قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يس:٣٨ فصار نسياً منسياً، وكذلك متابعتنا للشمس بتلسكوباتنا

---

١ عبدالجواد ياسين "السلطة في الإسلام" ص٢٧٥-٢٧٦.
٢ البخاري (٣٠٢٧).

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ يونس: ١٠١ فلا يعتد بها في مقابل الرواية؟!.

أبعد هذا يقال تعالوا خذوا عقيدتكم وأثبتوا الغيبيات من روايات آحادية من أبواب فشت فيها الإسرائيليات بمختلف أطيافها.

تعطيل السنن الكونية

إذا كان ظهور الآيات بمظهر غير معتاد لنا بحسب ما نرى من السنن الكونية وارد، فإننا نحتاج إلى الدليل القطعي لإثباته، لا مجرد روايات يتداولها فلان وعلان من الناس، وهذا الدليل المتواتر من جهة ثبوته والقطعي من حيث دلالته؛ لا يتوفر إلا في الكتاب العزيز.

وإذا كان الأمر كذلك فنحتاج إلى نقل قطعي متواتر لإثبات أن:

- الأنوار ترى عياناً على القبور.
- العلامة ابن عبدالباقي يجري فلج الغنتق بمكة المكرمة.
- الشيخ أبا مسلم يعلم الغيب.
- الشيخ درويش المحروقي يحول الرمل إلى أرز.
- أية كرامة أخرى ننسبها إلى العلماء أو غيرهم من الناس.

فمثلاً عندما نريد أن نثبت قضية كقضية رؤية الأنوار على القبور علينا أن نثبت ذلك بشكل قطعي، فهذا الأمر بما أنه يُرى عياناً فلابد للجم الغفير من الناس من مختلف المناطق والبلدان والأعمار أن يروه حتى يرتفع إلى درجة القطع، وإلا فإنه غير مصدق، قلت (=خميس بن راشد العدوي؛ أحد مؤلفي هذا الكتاب): (أخبرني جدي القاضي علي بن ناصر بن سيف المفرجي؛ وكان أحد تلاميذ الإمام محمد بن عبدالله الخليلي، أن

رجلاً مسلماً من الهند جاء إلى الإمام بنزوى وجدي حاضر، فقال الرجل للإمام: إني قرأت ما قاله الشيخ السالمي عن الأنوار التي تُرى على قبور أئمتكم وعلمائكم، فجئت لأرى ذلك بنفسي.

ويقصد الرجل بذلك ما قاله الشيخ السالمي في منظومة "كشف الحقيقة"[١]:

قد كانت الأنوار في الإسلام في المصطفى وصحبه الكرام
وبعد الافتراق صارت فينا لم يذكروها في مخالفينا

فقال الإمام الخليلي: ليت الشيخ السالمي لم يقل ذلك.

وأخذ يردد هذه العبارة عدة مرات.

ثم إن الرجل الهندي ذهب إلى مقبرة الأئمة بنزوى، ورابط في مسجد يوجد بالمقبرة مشرف على القبور، ثم رجع إلى الإمام وقال: لم أر شيئاً من الأنوار.

ثم رحل بعد ذلك عن نزوى.

قلت (=خميس): وقد سألت شيخنا المفتي أحمد بن حمد الخليلي عن هذه الرواية فأكد سماعها عمن رواها عن الإمام.

وأخبرني جدي القاضي علي بن ناصر أيضاً أن في زمن الإمام محمد بن عبدالله الخليلي خرج ستة نفر من أهل نزوى إلى مقبرة الأئمة في ليلة مظلمة غير مقمرة، وانتظروا هناك إلى الفجر لعلهم يرون الأنوار تسطع، فرجعوا إلى الإمام وأخبروه بأنهم لم يروا شيئاً، وكان جدي القاضي حاضراً مع الإمام) اهـ.

١ السالمي "*منظومتي أنوار العقول وكشف الحقيقة*" ص٢٢.

ثم من غريب هذا الدهر أن يأتي الناس من بعد وينسبون هذه الأنوار الموهومة للإمام محمد بن عبدالله الخليلي، وهو من كان يتمنى أن لا تصدر مثل هذه التصورات من علماء الأمة، حيث يُروى عمن تولى حفر قبره أنه قال: (لقد ذهبنا للحفر قبيل الفجر، وإذا نحن بأنوار تضيء بالمكان الذي هممنا بالحفر فيه، ونحن نمشي والأنوار تتقد حتى شرعنا في الحفر، فإذا أرض دمثة ورائحة تتضوع منها، لا نستطيع أن نصفها، ولم تزل الأنوار تقصف علينا حتى فرغنا من مهمتنا)[١].

ولا ندري هل زار مثبتو هذه الكرامة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فشاهدوا تلك الأنوار التي تقصف، والأرض التي تتضوع رائحة لا توصف؟!.

ويبلغ الخيال الخصب في الثقافة الشعبية مداه عندما يصور كرامة الأنوار على أنها مصدر تنفير لملازمي المساجد، حيث (يروى أن هندياً كان يؤذن بمسجد الإمام الوارث (=بن كعب، في نزوى) وذات يوم تأخر بعد صلاة العشاء في المسجد، ولما خرج أبصر قبر الإمام الوارث وهو يشع نوراً، فخاف مما شاهد، فلم يكن يهدأ له بال منذ شاهد الأنوار، وطلب السفر من عمان، فولى هارباً إلى بلاده)[٢].

ويرى الشيخ حمد بن عبيد السليمي أن مثل هذه الحكايات التي يتناقلها عامة الناس عن الأنوار التي تُرى على القبور ليست معياراً للحكم على الناس بالصلاح أو عدمه، وأن المعيار هو الوفاء بدين الله قولاً وعملاً، فقد أجاب عن سؤال نظمي حول هذه القضية فقال:

وكـم مـن الزهـادِ والعُبـادِ ... مـع أنبيـاء الله في العبـادِ
مـاتوا ولم تُنظـرْ لهـم أنـوارُ ... مـع أنهـم أجـلُ قـدراً صاروا

---

١ الأغبري "**الكرامة لأهل الحق والاستقامة**" ص١٠٨.
٢ **المرجع السابق** ص٨٢-٨٣.

وأنبيـــــاءُ الله في الجِنـــــانِ نـــص علـــى ذلـــك في القـــرآن
وكـــل مـــن مـــات بـــلا عـــصيانِ ممتـــثلاً أوامـــرَ الـــرحمنِ
ومخلـــصاً لله في عقائـــدهْ عنـــد رجائـــه وفي شـــدائدهْ
يُرجـــى لـــه أن يَـــدخلَ الجنانـــا لـــو لم نـــر النـــورَ عليـــه بانـــا
ولا يجـــوز غـــير هـــذا فاعـــلما والله يـــهدينا الطريـــق الأقومـــا[1]

وكذا الحال في سائر الكرامات الخارقة، فهي أخبار ظنية لا يمكن أن ترقى إلى درجة سنة الله، فهذه الأمور —لو فرضنا جدلاً حدوثها— لا يمكن إثباتها إلا بالقطع، وأنى للقطع أن يشهد بمخالفة سنة الله في خلقه؟!.

وإذا أدركنا ذلك يمكننا القول إنه لا توجد كرامة واحدة مما نسبت إلى العلماء من الخوارق الكونية إلا ونقلت آحاداً؛ وإن دونت في بعض الكتب واشتهرت بين الناس، فتدوينها لا يلغي عنها صفتها الآحادية.

(إن كل ما لدى المثبتين للكرامة الصوفية[2] في هذا المجال الانتشار وليس التواتر، والانتشار ليس دليلاً على الصحة، فليس كل ما هو منتشر بين الناس ويحدّث به الجميع ويكون محل إجماعهم صحيحاً، فإن هذا قانون من قوانين التفكير العلمي الذي يمنع من الخضوع لسلطة المنتشر من الآراء والأفكار والمعتقدات، فإن الكثرة مذمومة غالباً في القرآن الكريم)[3].

والناس مولعة بالغرائب، فهي تحوِّل الأمر المعقول إلى أمر غير معقول، وتنسبه إلى العلماء، وتظن أن في ذلك رفعة لشأنهم، وما هو بذلك، وإنما هو تحريف للحقائق،

---

١ السليمي "*قلائد المرجان*" ص ٢٤٨.

٢ أي الخارقة للسنن الكونية.

٣ مختار عطا الله "*إشكالية اطراد خرق العادة*" ص٣٤.

ووهم في حق علماء الأمة لا يليق بنا إضافته إليهم، وكم من قضية حرفت عن سياقها التأريخي الواقعي إلى خيال جامح منبتٍّ عن أرض الواقع، ومثال ذلك ما ينسب خطأً إلى الشيخ أبي زيد عبدالله بن محمد الريامي بأنه أوقف طائرة في السماء، وهي قصة خيالية منتشرة بين أوساط الناس، قلت (=خميس بن راشد العدوي): (وقد تتبعت هذه القصة فوجدتها بعيدة كل البعد عن هذا التصور الساذج، أخبرني جدي الشيخ القاضي علي بن ناصر المفرجي عن الشيخ أبي زيد الريامي، وأخبرني كذلك الشيخ المفتي أحمد بن حمد الخليلي عن جدي الشيخ القاضي علي عن أبي زيد، أنه في زمانه مرت على بهلا طائرة، وكانت مستغرَبة في ذلك الزمان.

فقال الناس يشيرون إليها: هذه الجن والشياطين يسحبونها في الهواء.

فرد عليهم الشيخ أبو زيد: لا، بل هذه من صنع البشر، والله علّم الإنسان ما لم يعلم) اهـ.

ومن الأمثلة التطبيقية على قضية ثبات السنن الكونية، وتفنيد زعم القائلين بتعطيلها:

١. كلنا يعلم أن المطر ينزل بمشيئة الله وقدرته:

﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ٥٧.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ النور: ٤٣.

هذه هي سنة الله في تكوين المطر، وهذه هي مشيئته في نزوله، وهي أن يرسل الرياح فتثير السحاب، فيؤلف بينه، ثم يجعله ركاماً، فترى حبات المطر تتناثر منه، وكل إنسان عاقل يدرك ذلك.

جئنا في ثقافتنا الشعبية ونسبنا إلى أحد العلماء أن الله تعالى استجاب لدعائه فنزل المطر من دون سحاب! بالطبع كلنا يسلم بقدرة الله وأنه لا حد لها ولا راد لكلمة الله ومشيئته، فسنة الله التي اقتضتها مشيئته كما بينها في محكم كتابه عزَّ وجلَّ هي أن المطر ينزل من السحاب، فإذن نحتاج لإثبات تعطيل هذه السنة الإلهية إلى نص بنفس الدرجة من الثبوت والدلالة، فهل نملكه؟!.

سؤال نوجهه إلى كل مؤمن بكتاب الله العزيز.

هل نعد قصة الكرامة نصاً نثبت به تعطيل السنة الإلهية معبرين بها عن مشيئة الله؟!.

أم نعدّها مخصصة للنص القرآني على اعتبار أن خبر الآحاد يخصص النص القرآني؟! ومن المحتمل أن ينسخه؟!.

٢. وكلنا يعلم أن مشيئة الله اقتضت أن الشمس تجري في مستقرها، تطلع على الناس من جهة الشرق وتغرب في جهة الغرب بفعل دوران الأرض حول نفسها، وهذا الأمر عاينه البشر كونياً منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس: ٣٨-٤٠، فكل هذه الأجرام تسبح في مدارها بتقدير الله ومشيئته، واقتضت مشيئته تعالى أن تبقى هذه السنة إلى أن يأذن سبحانه بانفراط عقد هذا النظام الكوني وحدوث الانقلابات الهائلة مؤذنة بقيام الساعة: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ التكوير: ١.

فبقاء حركة هذه الأجرام سنة من سنن الله في هذا الكون، فالشمس والقمر آيتان من آيات الله؛ لأنهما من خلق الله الدال على عظمته وكبريائه في هذا الكون.

إذن إثبات تعطيل سير هذه السنن وفق مشيئة الله محتاج إلى دليل بنفس قوة الدليل الأول من ناحية الثبوت والدلالة.

فلو أتانا آت وقال: إن الشمس حُبست له ساعة من النهار حتى ينتهي من عمله. أو قال: إن الشمس رجعت قليلاً لأنه نام عن صلاة العصر ولم يستيقظ إلا عند الغروب ليؤدي الصلاة كرامة له. فنقطع يقيناً أنه كذاب، لأن مشيئة الله اقتضت أن ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ يس: ٣٨، وهي في سيرها هذا وبقية الأجرام ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الأنبياء: ٣٣، إلا أن يأتينا بدليل قاطع على ذلك التعطيل لهذه السنة الكونية وفق مشيئة الله؛ وأنى له؟!.

وما رواه الطحاوي في "مشكل الآثار" من طريق أسماء بنت عميس أن النبي كان يوحى إليه ورأسه في حِجر علي بن أبي طالب فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله: أصليت يا علي؟ قال: لا. فقال رسول الله: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فأردد عليه الشمس. قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقعت على الجبال والأرض وذلك بالصهباء في خيبر) فلا يصح أبداً، وهذه الرواية باطلة سواء صح سندها أو لم يصح، (ولو رُدَّت الشمس بعدما غربت لرآها المؤمن والكافر ونقلوا إلينا أن في يوم كذا من شهر كذا في سنة كذا ردت الشمس بعدما غربت)[1].

١ ابن كثير "البداية والنهاية" ج٣ ص ٧٦.

بل إن حركة الأجرام السماوية كما يظهر من السياق القرآني ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس:٣٨-٤٠ مرتبطة بمشيئة الله، ولا ارتباط لها بما يحصل للبشر من أحوال الولادة والوفاة وما بينهما، وهذا هو الذي علَّمه النبي لأمته، فعندما مات ابنه إبراهيم في يوم كسفت فيه الشمس قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عزَّ وجلَّ لا يخسفان لموت بشر ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله)[١].

(وكان الرسول صلى الله عليه وسلم شديداً على مَن يتعامى عن هذه الأسباب، أو يتجاهل سنن الله سبحانه في هذه الحياة، فالكون كله مسيَّر حسب أمر الله سبحانه، وفق نواميس وسنن أرادها الله تبارك وتعالى له إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

وعندما يطرأ على الناس في عهده صلى الله عليه وسلم شيء من التوهم، يردهم من الوهم إلى الحقيقة ليستبصروا ولا يتيهوا في متاهات الوهم، فعندما مات إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم –وكان في سن الطفولة الباكرة– حزن النبي صلى الله عليه وسلم عليه حزناً شديداً، وفي ذلك اليوم كسفت الشمس، فتراءى للناس أن كسوف الشمس إنما هو بسبب موت إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم لما ألَم به صلى الله عليه وسلم من المصاب، ولكن في هذه الساعة الحرجة الحزينة أبى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يرد الناس إلى الجادة ويبصرهم بالحقيقة، فقال لهم: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت بشر ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروه"، فالشمس والقمر آياتان من آيات الله؛ لأنهما من ضمن خلق الله سبحانه الدال على جلاله وشهود كبريائه في هذا الكون.

---

١ الربيع (١٩٧).

وللشمس والقمر سنن في هذا الدوران ، كما أن ذلك لسائر الأجرام السماوية التي تدور في مداراتها وفق السنن ، ووفق هذه السنن التي أرادها الله قد يختفي شيء من ضوء الشمس ، أو شيء من ضوء القمر ، أو ضوء القمر كله ، بحيث يصيبه المحاق ، وبما أن هذا الأمر هو أمر خارج عن المألوف المطرد مما يراه الناس في الشمس والقمر ، أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجعوا إلى ذكر الله سبحانه وتعالى ، بحيث يأخذون العبرة من ذلك ، وأن كل شيء يطرأ عليه ما يطرأ بأمر الله سبحانه وتعالى ، وهذه سنة كونية أرادها الله تبارك وتعالى)[١].

ثم جئنا رافعين راية الكرامات ونسبنا كرامة إلى الإمام المظفر ناصر بن مرشد مفادها أن النجوم تهاوت يوم مولده ، فقد جاء في (ذكر كراماته رضي الله عنه... ما قيل : إن ليلة مولده رؤيت النجوم كأنها تتهاوى بعضها على بعض فارتاع الناس لذلك)[٢].

القرآن يقول بصريح العبارة : ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس:٤٠ ، والنبي صلى الله عليه وسلم يؤكد هذا المعنى يوم مات ولده إبراهيم ، ثم نأتي لنقول : إن النجوم تهاوت يوم مولد الإمام ناصر رضي الله عنه.

وهذه القصص في رأينا عبارة عن حكايات كان العوام يتداولونها دون مستند ، حيث درج الناس على إطراء عظمائهم ، ونسج هالات أسطورية حولهم ؛ في محاولة تعظيم مقاماتهم حتى الغلو ، وهذا أمر قد ساد العقلية الجاهلية قبل الإسلام ، فقد أطرى النصارى المسيح عيسى عليه السلام حتى ألهوه وعبدوه من دون الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "*إعادة صياغة الأمة*" ص١٠٠-١٠١.

٢ السالمي "*تحفة الأعيان*" ج٢ ص ١٧.

وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ النساء: ١٧١، ولذلك حذّر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أمته من إطرائه، فقد روي عنه أنه كان يقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله)[١].

وقد امتد تأثير هذا الغلو إلى هذه الأمة، والأمر لله وحده، فحيكت حول كثير من الصالحين ورموز الأمة القصص التي ترفع من شأنهم حتى التقديس والإفراط، ثم جاء أهل العلم ودوَّنوا هذه الحكايات الشعبية، وهنا حصلت المشكلة، (فلا ينبغي أن يأخذ الإنسان هذه القصص مأخذ الجد ويصدقها وليعلم الطالب "أن السيرا تجمع ما صح وما قد أنكرا")[٢]، أي أن كتب السير والتاريخ تحوي في ثناياها الصحيح وغيره، فعلينا التدقيق فيها قبل اعتمادها.

٣. اقتضت مشيئة الله وحكمته وقدرته أن يقضي على المخلوقين بالفناء وهو الموت، فلا دائم سوى الحي القيوم تبارك وتعالى، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ آل عمران: ١٨٥، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد: ٣٨ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ النساء: ٧٨.

والإماتة وإفناء الخلق من الأمور التي اختص بها المولى سبحانه، قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يونس: ٥٦.

---

١ البخاري (٣٢٦١).

٢ أحمد بن حمد الخليلي "**إعادة صياغة الأمة**" ص ١٢٨.

لذا فمن خرجت روحه من جسده ومات لا يمكن أن يعود إلى الحياة مرة أخرى، وهذه هي سنة الله في خلقه التي اقتضتها مشيئته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجمعة: ٨.

وقـال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ السجدة: ١١.

وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ الأنعام: ٦١-٦٢.

فبعد الموت لا يكون إلا ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾، ولا يرجع الإنسان إلى الحياة مرة أخرى في الدنيا، هذه سنة الله التي اقتضتها مشيئته.

وإذا شاء الله تعالى أمراً آخر غير ذلك فإنه لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ محمد: ٤، ولكي نثبت رجوع الحياة إلى الإنسان الميت في هذه الدنيا فلابد أن يكون لدينا الدليل القطعي في ذلك.

والبشر لا يملكون إحياء الموتى، ولذا لما يأتينا خبر يقول: إن فلاناً كان ميتاً فرجع إلى الحياة مرة أخرى!. علينا أن نتريث ولا نتسرع في القول بخرق سنن الله التي بثها في كونه ونص عليها في كتابه، ونتساءل: هل المخبر صادق فيما يقول؟ وهل ثبتت الوفاة بالفعل؟! فمثلاً حدث أن بعضهم حُملوا على الأكتاف، وذهب الناس بهم إلى الدفن دون أن يتأكدوا من وفاتهم وهم لا يزالون أحياء، أو أن بعض المحتالين خدعوا الناس بانتحال شخصيات مَن ماتوا باستغلال الشبه بينهم وبين الميت.

ولذا قال الشيخ صالح بن سعيد النزوي: (فإن قال أحد: إن أحداً حيٌّ بعدما مات، فهو عندي كاذب)[١].

كيف تنشأ أساطير الكرامات؟

درس المتخصصون كيف نشأت الأساطير قديماً، ونحن هنا سنذكر ملخص نتائج دراساتهم، وندعو القارئ الكريم إلى الرجوع إلى الكتب المختصة بهذا الفن.

جاء طور على الإنسان من أطوار تفكيره؛ قام فيه باختراع الأساطير، وذلك لأن عقله حينها لم يستطع أن يتوصل إلى أسباب حدوث الظواهر من حوله، ولما كان العقل مولعاً بالتعليل وسد الفراغات الذهنية، فإنه اتجه إلى صنع فكرة من نفسه تسد الفراغ الواقع بين الحدث وأصل نشأته، أي سبب الحدوث، ولأن هذا العقل يجهل السبب الحقيقي فإنه أخذ يعلل الأسباب بأقرب ما يوجد لديه من معرفة ساذجة، وهذه المعرفة تولد معارف أخرى أشد سذاجة وأفدح خطأ، ولكن الإنسان آنذاك كان غير مهيأ لاكتشاف خطئه، ومع تقادم الزمن، ودخول هذه الأفكار السطحية دائرة أقوال الآباء والسلف، تحولت إلى دين أو ما يشبه الدين، ومن أراد بعد ذلك أن يغيّرها أو يلغيها أو يعدّل فيها فإنه يتهم بالمروق من الدين، أو بالطعن في السلف على أقل تقدير.

وتغيير هذه (الأساطير التي اشتملت على مميزات مشتركة بين أمم مختلفة صعب كل الصعوبة، نظراً لتقاليد وراثية انتقلت إليهم من عصر يسمى في الاصطلاح الحديث "عصر توليد الأساطير"، وهذا العصر يماثل العصر الحجري والحديدي في تمثيله طوراً من

---

١ السعدي "*قاموس الشريعة*" ج٦ ص٣٤٠.

أطوار ارتقاء الفكرة الإنسانية، أو قل إنه وظيفة من وظائف الذهن الإنساني لأن هناك أساطير صنعت واخترعت في عصر التاريخ أيضاً)[1].

ولذلك عندما جاء الإسلام حمل حملته الشعواء على هذه الآبائية والتقليد الممقوت للأسلاف، وحاربها في كثير من آيات الكتاب الحكيم، من ذلك:

- ما انتقل إلى العرب من آبائهم الأقدمين من أساطير البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي[2]، قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ المائدة: ١٠٣-١٠٤.

- أسطورة سيطرة الشياطين والجن على بني آدم، والاعتقاد بقدرات الجن التأثيرية على الإنسان، حيث كان هذا الانحراف الفكري يتناقله الأبناء عن آبائهم، وقد عدّ الله تعالى هذا الضلال من الفواحش المحرّمة، حيث قال سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا فَعَلُوا

---

١ محمد عبدالمعيد خان "*الأساطير العربية قبل الاسلام*" ص١٥.

٢ روي عن (سعيد بن المسيب قال:

البحيرة: من الإبل يمنع درها للطواغيت.

والسائبة: من الإبل كانوا يسيبونها لطواغيتهم.

والوصيلة: كانت الناقة تبكر بالأنثى ثم تثنى بالأنثى فيسمونها الوصيلة يقولون وصلت اثنتين ليس بينهما ذكر فكانوا يذبحونها لطواغيتهم.

والحامي: الفحل من الإبل كان يضرب الضراب المعدود، فإذا بلغ ذلك يقال حمى ظهره فيترك فيسمونه الحامي).

انظر: الجصاص "*أحكام القرآن*" ج٤ ص١٥٣.

فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: ٢٧-٢٨، وبيّن جلّ اسمه أن الشيطان ليس له تأثير على الناس، وإنما الغاوون منهم يتبعونه بأنفسهم فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الحجر: ٤٢، واعترف الشيطان بنفسه أنه ليس له عليهم من تأثير إلا أنهم قد اتبعوا دعوته الكفرية: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إبراهيم: ٢٢، رغم هذه الآيات البينات إلا أن كثيراً من الناس منغمسون في أسطورة سيطرة الجن والشياطين عليهم.

– أسطورة تأثير السحر، والزعم بأن الحجج الإلهية القاهرة التي يأتي بها الأنبياء من ربهم ما هي إلا من قبيل السحر، وتشبث الوثنيين بما وجدوا عليه آباءهم من خرافات مضلة: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٧٧-٧٨.

– أسطورة الوثنية وعبادة الأصنام، قال جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الأنبياء: ٥١-٥٤.

– أسطورة الانحراف عن السنن الكونية المطردة في الوجود، بحيث لم يعد المشرك قادراً على التأمل فيها حقيقة التأمل الذي يدفعه إلى الإيمان بالشرائع الربانية، وكل ذلك سيراً

منه على نهج الأسلاف الوثنيين، قال تبارك اسمه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ لقمان: ٢٠-٢١.

– أسطورة تقديس الملائكة والزعم بأنهم بنات الله، وهي الأخرى أسطورة نشأت قديماً وتناقلتها الأجيال، حتى جاء القرآن لمحوها وإزالة آثارها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ۝ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۝ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الزخرف: ١٩-٢٥.

يقول الشيخ أحمد بن حمد الخليلي ناعياً على الأمة الإسلامية وقوعها في الآبائية وتقليد الأسلاف بدون حجة من الشرع أو برهان من العقل:

(ولعمر الحق؛ إن هذه الأمة لم ترتكس إلى الحضيض إلا بهذه العقليات الضيقة والأفكار المظلمة، وما وزع هذه الأمة عزين إلا استمساك كل طائفة بما ورثته عن آبائها الأولين، مع حبس عقولها عن التفكر وأبصارها عن النظر في ما أوحاه الله عزَّ وجلَّ لهدايتهم وتبصيرهم.

وأعجب من ذلك أن يكون هذا المنطق المتداعي من المسلّمات عند الكثير، حتى عند من يعدّون من الراسخين في العلم، فقد حكى العلامة محمد رشيد رضا؛ أن الإمام محمد عبده كان في حوار عند شيخ من أكبر الشيوخ سناً وشهرة في مجلس إدارة الأزهر، فقال ذلك الشيخ على مسمع الملأ من العلماء: من قال إنني أعمل بالكتاب والسنة فهو زنديق. فرد عليه الإمام بقوله: من قال إنني أعمل في ديني بغير الكتاب والسنة فهو الزنديق)[١].

ولنشأة الأسطورة أسباب عدّة؛ من أهمها:

١. (أن القدماء كانوا عاجزين عن الإعراب عن ضمائرهم بلسان مبين)[٢]، فاللغة عندهم لم تتطور بعد بحيث تعبِّر عن مرادهم، وكانت تعبيراتهم القاصرة تتناقل من بعدهم فتتحول لدى الأخلاف إلى حقائق واردة من الأسلاف.

٢. أن الأولين كانوا (قاصرين عن فهم معنى الموجودات... فهم يخطئون في إدراكها)[٣]، فإذا رأوا ظاهرة معينة ولم يدركوا سبب حصولها، فإنهم يفسرونها خطأ، فينتقل ذلك الخطأ إلى من يأتي بعدهم، ثم تأخذ مكانها عند الأجيال اللاحقة بأنها حقائق.

٣. (الأسطورة تفسير أو تأويل لشعائر دينية... تؤلف بعدما تزول أو تضيع الفكرة البدائية التي دعت إلى اتخاذ الشعائر والتقاليد)[٤]، فقد وجد الإنسان ووجد معه الدين؛ سواء كان هذا الدين حقاً منزلاً من عند الله أو من وضع البشر، فإنه بعد حين من الزمن ينسى هذا الإنسان مقاصد دينه ليقوم بنسج الأساطير حول رموز دينه من أفكار وأشخاص.

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "*برهان الحق*" ج١.

٢ محمد عبدالمعيد خان "*الأساطير العربية قبل الإسلام*" ص١٦.

٣ *المرجع السابق* ص١٦.

٤ *المرجع السابق* ص١٧.

٤. (الأسطورة قد تستخرج من العادات والتقاليد)[١]، فحركة الإنسان في الحياة تنشأ منها عادات اجتماعية، بمرور الزمن لا يعرف كيف نشأت هذه العادات فتنشأ الأسطورة لكي تفسر وتأوِّل هذه العادة.

٥. والأسطورة قد (تنبعث من حالة ذهنية يلعب فيها الوهم والوسواس بالنفوس)[٢]، وما أكثر تلك الأساطير والخرافات التي تنشأ من الأوهام.

٦. والأسطورة قد تكون (عبارة عن تفسير علاقة الإنسان بالكائنات، وهذا التفسير هو آراء الإنسان فيما يشاهده حوله في حالة البداوة)[٣] أي السذاجة، فالأساطير ليست أكثر من مرحلة ساذجة من مراحل نمو الفكر الإنساني.

والذي نراه أن هناك الكثير من المواقف التي أساء الناس فهمها، وبسبب إجلالهم الزائد عن الحدِّ للعلماء والأئمة أخذوا ينسبون إليهم مثل هذه الخوارق التي استساغوا وقوعها بسبب الثقافات التي سادت في أوساطهم.

كما أن للوهن والضعف الذي مرت به الأمة الإسلامية الأثر البالغ في رواج هذه الكرامات الخارقة، حيث يعوِّض الخيال ما أخفق فيه الواقع، فهي ظاهرة اجتماعية (من حيث الدوافع التي دفعت إلى ظهورها وانتشارها، ومن حيث الغايات التي رمت إليها، ومن حيث المظاهر التي تجسدت فيها، فقد قامت الكرامة لكي تقدم البديل الخيالي للظروف المجتمعية القاسية والأوضاع السياسية التي قمعت وقهرت الشخصية، وظهرت الكرامة نتاجاً يجسد آمالاً ورغبات خاصة في تحقيق الذات، فما لم يتوفر للفرد والأمة

١ المرجع السابق ص١٨.
٢ المرجع السابق ص١٩.
٣ المرجع السابق ص١٩.

أيضاً على الصعيد العملي والعياني الواعي كانت توفره الكرامات بطرائق غير مباشرة، أي على المستوى الخيالي والرمزي واللاواعي)[١].

والأمة الإسلامية أعطاها القرآن الكريم والتربية النبوية دفقة هائلة نحو النهوض الحضاري أهّلها للانطلاق والتصدر الأممي، إلا أن وضعها انقلب بعد الحقبة الراشدة فـ(وقعت جماهير الأمة فريسة مظالم الاستبداد والإرهاب السياسي والترهيب الفكري، فاتسمت بالخنوع والسلبية، والانصراف تدريجياً عن خوض غمار البحث والتنقيب والبناء والإبداع، لتغرق في غمار الفقر والخرافة والجهل، وهنا يفقد الإنسان ثقته بنفسه، ويفقد زمام المبادرة في شؤون حياته، ويفقد التحكم في مقدرات عالمه.

إن من الطبيعي أن يجنح مثل هذا الإنسان في غمار عجزه وآلام معاناته صوب الخرافة والشعوذة، وما يروج لها من التأويلات والقصص والأساطير، ويعيرها أذناً صاغية، وتروج لديه بضاعتها، ويستنجد في جهالاته بأوهامها الرخيصة المخدِرة، ضد ما يحيق به من الآفات التي لا يعرف بسبب جهله أسبابها، ولا يملك بسبب عجزه القدرة على شيء من دفعها، لأن ثقافته ونفسيته وقدراته قد أصابها الكثير من العطب، وحرمت من القوة العقلية السننية، ومن نفسية الإبداع والمبادرة، ومن القدرة على البحث والتقصي والتنقيب؛ التي لم تكن أمة من أمم الأرض أولى بها من أمة كتاب القرآن العظيم)[٢].

وجاءت الكرامة الخارقة لتعوض ذلك فـ(ارتبطت بالخرافة ارتباطاً عضوياً، فقد ارتكزت في كثير من حالاتها على قبول العقلية الخرافية للتجاوز المطلق للواقع بغير تحفظ، وتغذت بالخرافة من جهة، وغذت التفكير الخرافي من جهة أخرى، وروجت للمعتقدات الشعبية المتعلقة بالسحر والتنبؤ بالغيب وكشف الطالع إلى آخره، بحيث يصبح القول بأن الفكر

١ مختار عطا الله "إشكالية اطراد خرق العادات" ص٢٢-٢٣.

٢ عبدالحميد أبو سليمان "أزمة الارادة والوجدان المسلم" ص٨٣.

الكرامي والفكر الخرافي وجهان لعملة واحدة، وهي مساحة اللاوعي في الذات)[١] المؤمنة بالكرامة الخارقة.

تيار رافض للكرامة الخارقة

هناك تيار عريض في الأمة -يضم متقدمي الإباضية والمعتزلة- لم يثبت هذه الكرامة لصحابة النبي صلى الله عليه وسلم ولا لغيرهم، وفي رأينا يعود ذلك إلى نفورهم الشديد من الإرجاء، وقولهم بتلازم القول والعمل، وأن الولي لله هو كل طائع له جلَّ وعلا، وليس مرتبة مخصوصة بخرق العوائد.

ولا ننسى كذلك موقف ابن حزم الرافض بشدة لهذه الكرامات الخارقة، ودافعه في نظرنا اتساق منظومة الكون التي لا تسمح للنشاز مكاناً فيها، مع الاستناد على عدم ثبوت ذلك عن الأنبياء، إلا ما أثبته الله تعالى في كتابه العزيز على صفة القطع، وأما الإباضية والمعتزلة فدافعهم الأول يتمثل في تلازم القول والعمل كما قلنا، مع استنادهم إلى نفس ما استند إليه ابن حزم في عدم ثبوت ذلك عن النبي الأعظم عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام والسلف الصالح.

وقد كان عنصر الحكمة الإلهية المانع من العبثية التي تستلزمها الكرامة الخارقة حاضراً في التفكير الإباضي المتقدم.

وأما في هذا العصر؛ فالكثير من العلماء والباحثين ينكرونها، ولا يكاد يوجد مذهب إسلامي إلا وتجد فيه الآن مجموعة من المفكرين يصرحون برفضها.

١ مختار عطا الله "إشكالية اطراد خرق العادات" ص٢٣.

يقول القاضي عبدالجبار المعتزلي: (لو كانت تظهر على الصالحين لكانت بأن تظهر على السلف الصالح من كبار الصحابة أولى بأن تظهر على غيرهم ممن يشك في حالهم، وقد صح وثبت بتواتر الأخبار أنها لم تظهر عليهم، ولأن القوم لم يدعوا ذلك فيهم)[١].

وخلا التراث الإباضي المتقدم من ذكر الكرامة الخارقة من جهة الرواية ومن جهة الفقه، فمن يطالع الروايات الحديثية الإباضية يجدها خالية من روايات الكرامات التي قد توجد عند غيرهم، وكذلك التنظير الفقهي لم يُعر هذه القضية اهتماماً يذكر، فلا تجد كرامات تروى عندهم عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ولا عن جابر بن زيد، أو أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، أو ضمام بن السائب، أو سالم بن ذكوان، أو أبي نوح صالح الدهان، أو جعفر بن السماك، أو الربيع بن حبيب، أو وائل بن أيوب، أو محبوب بن الرحيل أو ابنه محمد بن محبوب، أو عبدالله بن عبدالعزيز، أو أبي المهاجر هاشم بن المهاجر، أو أبي المؤرج عمر بن محمد، ثم بعد ذلك بقرون بدأت تطفو على السطح أساطير الكرامات وتتداول في الأوساط الشعبية، ثم تطورت لاحقاً إلى التدوين في كتب محترمة من قبل علماء لهم وزنهم ككتاب "الطبقات" للدرجيني و"السير" للشماخي و"تحفة الأعيان" للسالمي، وغيرها من الكتب التي عنيت بالجمع التاريخي لأخبار العلماء، ثم صارت تبحث في مباحث العقيدة أثناء الحديث عن معجزات الأنبياء.

وربما اعترض علينا البعض في قولنا بخلو التراث الإباضي المتقدم من الكرامات الخارقة برواية موجودة في مسند الإمام الربيع (١٣٣) وهي: أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك قال: (حان وقت الصلاة فالتمس الناس وَضوءاً فلم يجدوه، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بوَضوء فوضع يده في الإناء، فأمر الناس أن يتوضؤوا، قال أنس: فرأيت الماء ينبع تحت أصابع النبي صلى الله عليه وسلم فتوضؤوا إلى آخرهم). قال

---

١ انظر: **المرجع السابق** ص٣٤، نقلاً عن "**المغني**" للقاضي عبدالجبار.

الربيع: الوَضوء بفتح الواو؛ وهو الماء الذي يتوضأ منه، والوُضوء بضم الواو؛ وهو الفعل.

زاعمين بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نبع الماء من أصابعه، وهذا خلاف ما تذهبون إليه.

قلنا: من تدبر هذه الرواية بعين البصيرة التي انزاحت عنها غشاوة الوهم والتقليد لم ير شيئاً مما يذهب إليه هؤلاء، فالرواية لم تنص على أن الماء ينبع من أصابعه الشريفة، وإنما من تحتها، والفهم الصحيح لها، أنه عندما حان وقت الصلاة أخذ الناس حسب عادتهم يبحثون عن الماء للوُضوء، ولمّا لم يجدوه رجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبروه، فطلب أن يؤتى بالوَضوء، ولعله ما بقي لديهم من ماء، والظاهر أنه كان قليلاً، فوضع يده في الإناء، أي أمسك به حتى لا يتوضأ منه كل إنسان بحسب عادته فينفد، وإنما الوضع يحتاج إلى طريقة آخرى من الاقتصاد في الماء، فأخذ يقسطه لكل متوضئ بيديه، قليلاً قليلاً، وهذا ما يعبّر عنه كلام أنس بن مالك رضي الله عنه (فرأيت الماء ينبع تحت أصابع النبي)، كما أن الحديث لم يذكر مقدار عدد الناس؛ قلة أو كثيرة، حتى لا يعترض بقلة الماء أنها لا تكفي للكثرة، على أنه قد ورد النهي عن الإسراف في الماء للوضوء، فالمتوضئ يكفيه مد يديه ماء، وهذا معلوم بالتجربة، ففي الحديث تربية على هذا الأدب النبوي بعدم الإسراف، ولذلك نجد هذا الحديث في باب "جامع الوضوء" المفتتح بحديث –رواه الربيع (١٣١)–: أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغني عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لبدء الوضوء شيطاناً يقال له: الولهان، فاحذروه)، قال الربيع: وإنما قيل له الولهان لأنه يلهي النفوس.

فالحديث يؤخذ منه فوائد تربوية وسلوكية عظيمة، لا كما يتوهم هؤلاء بأنه مدخل لقبول الخرافة بغية تسويقها في الوسط الإباضي.

وعند المقارنة بين الإباضية والمعتزلة، نجد –حسب رأينا– أن متقدمي الإباضية أكثر أصالة في عدم قبول الكرامة من المعتزلة، لأن الإباضية لم يقبلوا في حقلهم الروائي الأول أية رواية لكرامة خارقة لناموس الكون، بينما المعتزلة جاءوا ردةَ فعلٍ للسيل الهادر من هذه الروايات، ولا ريب أن التأسيس المنهجي للفكرة سابق على ردة الفعل، وهو مقدم عليها وأقوى منها.

وهذا لا يمنعنا من أن نعترف بأن هذا التيار (الإباضي/المعتزلي) غير القابل للكرامة الخارقة قد اكتسحته جحافل الروايات المؤسسة لهذه الكرامة، حتى أردت الشق المعتزلي قتيلاً، بينما لا يزال يعاني الشق الإباضي صعوبة النهوض من وهدة السقوط، وكذلك بالنسبة لابن حزم الذي اندثر متبعوه منذ قرون.

ولكن كما قلنا هناك أوبة رائعة في الأمة بمجموعها، تتمثل في عدد لا بأس به من مفكري الأمة، والحق يكون (أولاً عند آحاد الرجال، ثم يفشوا شيئاً فشيئاً حتى يرجع إلى الفطرة، وهي دعاية الإسلام التي بُعث بها محمد عليه الصلاة والسلام، وتضمحل البدع شيئاً فشيئاً)[١]، وهذا ما نرجوه بإذن الله.

وتتكئ الكرامة الخارقة على تفسير المشيئة بعدم ثبات القانون الكوني بدعوى أن الله تعالى على كل شيء قدير، ولكن الإباضية يفسرون المشيئة في باب الوعد والوعيد الأخروي بما اقتضته آيات الوعد والوعيد ذاتها، وهو نفس تفسيرهم للمشيئة في الهداية والضلال، أي أن الهداية والضلال يتحققان بالأخذ بأسبابهما، وقد شرحنا ذلك بالتفصيل في الفصول السابقة، لكن الذي يعنينا هنا أن مَن قبل الكرامة الخارقة وقال بها وأخذ يدافع عنها من متأخري الإباضية؛ قد خالف أصله في تفسير المشيئة، فيلزمه في باب الكرامة الخارقة أن يعود إلى أصله الذي التزمه في الأبواب الأخرى.

---

١ السالمي "العقد الثمين" ج١ ص ١٢٦–١٢٧.

وكذلك فإن من أصول الإباضية الاعتماد على القطع في إثبات الغيبيات، والكرامات الخارقة أدلتها ظنية واهية من جهة إثبات الفكرة، وأوهى وأضعف من جهة القصص التي تتداول في شأنها، فلا تتماشى هذه القصص مع أصولهم.

ومن أصول الإباضية في الاستدلال عرض ما يتداوله الناس من روايات على كتاب الله، قال جابر بن زيد إمام المذهب عن بعض الروايات التي تخالف القرآن: (أدركت جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألتهم: هل يمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم على خفيه؟ قالوا: لا. قال جابر: كيف يمسح الرجل على خفية والله تعالى يخاطبنا في كتابه بنفس الوضوء؟ والله أعلم بما يرويه مخالفونا في أحاديثهم)[1].

(ورد الرواية بسبب مخالفتها نص القرآن قاعدة وضعها النبي صلى الله عليه وسلم نفسه لمعرفة الصحيح مما يروى عنه من غيره، فقد أخرج الإمام الحافظ الحجة الربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى عليه وسلم قال: "إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله: فما وافقه فعني، وما خالفه فليس عني".

وقد وعى الصحابة رضوان الله عليهم ما أرشدهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف فلم يبالوا أن يردَّ بعضهم رواية بعض عندما يشمون مما رووا أي رائحة لمخالفة القرآن الكريم، مع ما كان منهم من توقير بعضهم البعض وإيقانهم ببراءتهم من الكذب، وإنما ذلك لأن الإنسان عرضة للنسيان والوهم والخطأ واللبس، والقرآن هو الأصل الثابت بالقطع، ومع احتمال ما ذكرناه في الراوي لا وجه للعدول عما دلّ عليه القرآن والأخذ بالروايات الشاذة، وإن جلت منزلة رواتها.

١ الربيع (١٢٥).

ومن أمثلة ذلك ردّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حديث فاطمة بنت قيس ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل لها نفقة ولا سكنى ، إذ طلقت ثلاثاً ، حيث قال : لا ندع كتاب الله لقول امرأة لا ندري أذكرت أم نسيت.

وردّت عائشة رضي الله عنها رواية عمر وابنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه مستندة في ذلك على قوله تعالى : ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الأنعام: ١٦٤.

وردّ ابن العباس حديث الحكم بن عمرو الغفاري أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية وقال : لا ندع كتاب الله لقول أعرابي يبول على عقبيه. ثم تلا قوله تعالى : ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأنعام: ١٤٥.

ولم يعرف أحد من الصحابة أنه خطأ هؤلاء في العمل بهذه القاعدة)[١].

وقصص الكرامات الخارقة تخالف الدلالات القرآنية وفق أصول المذهب الإباضي وقواعده التي توجب علينا مراجعة فكرة هذه الكرامات ، وعرضها على أصلين قطعيين هما :

١ . الدليل القرآني : الذي يوجب حمل المشيئة الإلهية على هيمنة الله على الكون ونظامه ، وليس على العبثية التي تتعارض مع الحكمة الربانية السائرة في هذا الكون دون خلل أو اضطراب أو تناقض ، مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "*برهان الحق*" ج١.

طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الملك: ٣-٤.

٢. السنن والقوانين الكونية: فسنن الله دائبة العمل في الكون لا يمكن أن يضرب بها عرض الحائط لمجرد أقوال جاءتنا من هنا وهناك، فالله تعالى القادر على كل شيء هو من جعل بمشيئته هذه السنن ماضية لا تتبدل، فالسنن المحكمة التي لا تتغير ولا تتحول هي خاضعة لقدرته وإرادته ومشيئته، لا كما يتوهم البعض عندما يظنون أن القول بإحكام النواميس والقوانين وخضوع الكائنات لها أنه وقوع في القول بسلب الله لإرادته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فما من مؤمن بالله يخشى الوقوف بين يديه في عرصات يوم القيامة يجرؤ أن يقول ذلك، ولكن الخطورة تكون بهذا القدر نفسه عندما يتصور الواهمون أن الله تعالى يتصرف في هذا الكون بدون حكمة أو موازين وسنن دقيقة ماضية تخضع لها مخلوقاته، والله تعالى هو القائل: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحجر: ١٨-٢١، والقائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: ٤٩، وهو القائل: ﴿اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ الشورى: ١٧، والقائل كذلك: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ الرحمن: ٧.

ولابد من التنبيه على أن فكرة الكرامة الخارقة البعيدة عن قانون الكون وسننه قد تفشت في العصور الأخيرة بين أوساط غالبية المسلمين على اختلاف مدارسهم الفكرية، ولم

تعد مقصورة على أحد، بل إنها كانت منذ القدم ولا زالت لدى غير المسلمين كاليهود والنصارى والهندوس والبوذيين[١].

ونسوق هنا مثالاً واحداً للعبرة والعظة في زعم النصارى بأن الكرامات الخارقة لسنن الله تحدث مؤيدة لهم في حربهم على المسلمين، وفي هدم بيوت الله التي ﴿أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ﴾ النور: ٣٦-٣٧، وحتى لا نذهب بعيداً نسوق المثال من الواقع العماني، وذلك عندما جاء البرتغاليون بقيادة دلبوكيرك مستعمرين الشرق الإسلامي ابتداءً من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ووصلوا إلى عمان وبالتحديد إلى مسقط عند بدايات القرن السادس عشر الميلادي، حيث حدثت لهم "كرامة عجيبة!" أيدتهم في حربهم المسلمين وفي تجديع أنوفهم وصلم آذانهم، وأن هذا النصر منحهم إياه الرب؛ جاء في مذكرات دلبوكيرك:

(وأمر أفونسو دلبوكيرك ثلاثة من حاملي البنادق "المدافع" بأن يقطعوا دعامات المسجد، وكان مسجداً واسعاً جميل البناء، مشيداً في غالبه من الأخشاب التي نحتت نحتاً متقناً جميلاً، وبه أعمال تجصيص في جزئه العلوي، فلما قطّعت الدعامات، وكان حملة المدافع "الهدّامون" على وشك الخروج، انهار البناء دفعة واحدة، حتى أن أفونسو دلبوكيرك اعتبرهم قد لاقوا حتفهم، لكن شكر ربنا، فقد نهضوا أحياء أصحاء دون أن يلحق أياً منهم جرح ولا خدش، وكان رجالنا قد شملهم الخوف، فلما رأوهم في حال جيدة شكروا ربنا كثيراً لهذه المعجزة، وأشعلوا النيران في المسجد، فأتت عليه كله، لم تترك فيه شيئاً.

---

١ انظر: محمد أبو الفضل بدران "*أدبيات الكرامة الصوفية*" ص٤٥.

... ولأن رجالنا "البرتغاليين" كان لديهم كثير من أسرى المسلمين رجالاً ونساءً، وليس من المتوقع أن يكونوا ذوي فائدة، ولا يمكن حملهم في السفن، فقد أمر أفونسو دلبوكيرك بجدع أنوفهم وقطع آذانهم، ثم أطلق سراحهم.

... وعاد رجالنا إلى السفن بفرح غامر ورضا، شاكرين الرب لهذا النصر الذي منحهم إياه، وراحوا يطلقون النار تباعاً بهجة وانشراحاً)[١].

هذه هي الكرامة! فاعتبروا أيها المسلمون.

هذا؛ ولم تعدم ساحة الحقيقة من أناس تمتعوا بالشجاعة الأدبية فاعترفوا بكذب قصص الكرامات والخوارق التي تزعم "للأولياء"، فالشيخ أحمد أبو الوفا الشرقاوي يؤمن بالكرامات إلا أنه ذكر (أن ٩٩٪ من الكرامات المدونة في الكتب والشفهية كذب، وربما كان هذا الرأي من أخطر الآراء التي قيلت في الكرامات من أحد الصوفيين)[٢] المؤمنين بها، ونقول: إن ١٪ الذي سكت عنه لا يخرج أبداً عن إطار الوهم، ولا يعدو أن يكون تخيلاً.

ونحسب أن الإباضية قادرون باستمرار على المراجعة الفكرية لما لديهم من تصورات؛ لما انبنى عليه المذهب من إعلاء شأن كتاب الله العزيز، وليس من العيب أن نخطئ، فهذه طبيعة البشر، إنما العيب أن نتمادى في الخطأ مع تكشف الحقائق كل يوم، وإن ظللنا نتشبث بالخطأ دون الرغبة في المراجعة نخشى أن نكون ممن قال فيهم المولى تبارك وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ النمل: ١٤.

---

١ السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك ج١ ص١٨٢.

٢ محمد أبو الفضل بدران "أدبيات الكرامة الصوفية" ص٦٩.

مناقشة بعض الكرامات الخارقة

وحتى يقف القارئ الكريم عن قرب على مدى مناقضة هذا الكرامات للكتاب العزيز ولقواعد التفكير الصحيح ولمناهج الحق؛ سنقوم هنا بمناقشة بعض قصص الكرامات التي تداولتها الأوساط الشعبية، ووجدت لها أصداءً في بعض الكتب والمؤلفات، ومن تلك القصص:

- ما تداولته الثقافة الشعبية ودوِّن في بعض الكتب عن الإمام سالم بن راشد الخروصي (ت:١٣٣٨هـ): أنه وجد ذات يوم (قبل أن يكون إماماً؛ رجلاً نائماً في مسجد بالقابل، فقال له: إن المساجد للعبادة لا للنوم، وأنت من أهل البلد، ويرخص للغريب أن ينام فيها.

فرد عليه الرجل رداً قبيحاً، وقال له: اذهب إلى بلدك إن كنت تريد أن تأمر وتنهى.

فنام الرجل ولم يأبه بكلام الإمام سالم، فما شعر إلا وقد حمله أناس فرموه خارج البلد، فقام من مكانه وكأنه أخرج من القبر، فأسرع إلى الشيخين السالمي والحارثي فأخبرهما بالقضية وقال: إن هذا الرجل ساحر، فاطردوه من البلد!.

فمن لطف الشيخ السالمي أجابه بقوله: اليوم سحرك أنت، فإن طردناه فسيسحرنا كلنا، فالأحسن أن لا تنام في المسجد مرة أخرى، وإذا أمرك بشيء بعدها فلا تخالفه)[1] اهـ.

كيف نفسر مثل هذه الحكاية لو سلّمنا جدلاً بوجود أصل لها؟.

١ الأغبري "الكرامة لأهل الحق والاستقامة" ص٩٩.

البعض يفسرها بأن هؤلاء الرجال من الملائكة أو الجن جاءوا ورموا بذلك الشخص خارج المسجد كرامة للإمام سالم الخروصي، وهذا تفسير مرفوض لما بينا سابقاً أنه لا يتكئ على دليل شرعي معتبر.

والتفسير الذي لم نسمعه من أحد وهو أبسط مما نتصور؛ أن ذلك الرجل استاء من الإمام بسبب أمره له، فذهب إلى الشيخ السالمي وادعى ذلك الادعاء، فالشيخ السالمي أخذه على قدر عقله، وقال له ما قال.

فما الذي يمنعنا من الأخذ بالتفسير الثاني؟ ولماذا نلجأ إلى التفسير الخرافي؟ إذ الأمر يمكن أن يفسر تفسيراً يتفق مع سنن الله، هذا إن كانت القصة صحيحة في أصلها.

▪ ومن ذلك أيضاً ما تداولته الثقافة الشعبية لدينا ودوِّن في بعض الكتب: (أن الشيخ العلامة ناصر بن سالم الرواحي رحمه الله رثى الإمام سالم بن راشد الخروصي قبل وفاته، وأخبر بوقوع الحرب العالمية الأولى قبل حدوثها بسنوات، وبتنصيب الإمام محمد بن عبدالله الخليلي بعد الإمام سالم، وذلك في قصيدة أرسلها للإمام سالم بن راشد الخروصي:

مولاي أبشر لن تزال مجيداً ... حفظ الإله مقامك المحمودا
إقبال ذكرك بالبشائر مؤذن ... يُزجي جدوداً أشرقت وسعودا

... إلى أن قال:

وإذا انقضى خاء ودال بعده ... ألفان لام فارقب الموعودا
ستفور من قعر البحار جهنم ... وتصير هاتيك البحار جليدا
ويعود مبيض السحائب أسودا ... يرمي الأفاعي جندلاً وحديدا
فتبيد خضراء الجراد فلن ترى ... فوق البسيطة للجراد وجودا

وإذا انقـضت يـس طـه بعـدها أسـقطت بنـداً إذا رفعـت بنـودا
وإذا انقـضت حـميم قـام مـحمد للاسـتقامـة طـالـعاً مـسعودا[1]

وبغض النظر عن هذه المتاهات الحرفرقمية التي قد لا تشير إلى تواريخ فعلية ؛ نتساءل أولاً من منطلق أبجديات العقيدة الإسلامية :

– هل يعلم الشيخ أبو مسلم ناصر الرواحي الغيب ليكشفه للناس؟.

– وهل نحن نؤمن بقوله تعالى : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ النمل: ٦٥ ، أو أنها منسوخة بهذه الخرافات؟.

– ولماذا نشن الحملات على المشعوذين والعرافين الذين يدّعون علم الغيب ما دام أبو مسلم يعلمه ، فما المانع أن يعلمه غيره؟! ولماذا نظل نردد قوله عليه السلام : (مَن أتى عرّافاً أو كاهناً أو ساحراً فصدقه فيما يقول فهو بريء مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم)[2] ، وقوله : (يقول ربنا تبارك وتعالى : أنا بريء ممن تطير، أو تكهن له ، أو تَسحر ، أو تُسحر له)[3] ، مع أن هذا التشديد ما كان إلا لأجل ادعاء المعرفة بالغيب التي هي من اختصاص البارئ تبارك اسمه.

إذن نعلم علم اليقين أن هذه القصة لا تصح أبداً ، وأن أحداً نظم تلك القصيدة بعد وفاة الإمام سالم بن راشد الخروصي فاختلط الأمر على الناس ، هذا على فرض تطابق تواريخ تلك الرموز الحرفرقمية مع الواقع.

---

١ الخصيبي "شقائق النعمان" ج٢ ص ٣٥٣–٣٥٤.

٢ الربيع (٩٧١).

٣ الربيع (٧٤٧).

فانظروا كيف كانت الغفلة الشديدة عن كتاب الله الكريم الذي ينص في صراحة ووضوح أنه لا يعلم أحد في السموات والأرض الغيب إلا الله، ثم نأخذ نروي هذه الخرافات وننسبها إلى العلماء وهم منها براء.

▪ وفي روايات الثقافة الشعبية: (أن الشيخ درويش بن جمعة المحروقي رحمه الله كان يعيش في فقر حتى بلغ به الحال أن لا يجد قوت يومه، وفي يوم خرج الشيخ كعادته إلى أحد المساجد المنعزلة يذكر الله تعالى ويقرأ صنوف العلم، بينما كانت زوجته في البيت غاضبة إذ كان الأولاد يبكون من شدة الجوع، فقالت لهم: اذهبوا إلى أبيكم في المسجد الفلاني، ولا ترجعوا عنه حتى يعرف تقصيره!.

فذهب الأولاد إلى أبيهم يبكون، فرآهم الشيخ على تلك الحال وحزن لما هو عليه من حال الفقر، فذهب خلف المسجد حاملاً معه كيساً وجعل عليه رملاً! وأعطاهم إياه حتى يتفرغ للكتابة.

فأخذ الأولاد الكيس وانطلقوا به إلى أمهم، فوصلوا ووضعته الأم في القدر، ثم جاء الشيخ المحروقي إلى البيت ووجد أن كيس الرمل الذي أعطاه لأولاده قد تحول إلى أرز كرامة للشيخ)[1] اهـ.

هذه القصة الغريبة فيها العجب العجاب، أمامنا ادعاء بوجود قانون كوني يقضي بتحول الرمل إلى أرز كما تزعم الرواية، المشكلة الآن: هل نستطيع أن نقرر سنة لله في الكون تقضي بتحول رمل إلى أرز يؤكل؟! والله تعالى يقول: ﴿وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ الإسراء: ٧٧، وهذا الكون أمامنا لا نجد فيه الحديد يتحول إلى ذهب، ولا التفاح يتحول إلى بطيخ، ولا الأرانب تتحول إلى أسود، اللهم إلا في قصص الأساطير والخرافة والرسوم المتحركة وأفلام الخيال الهوليودية.

---

١ رواية شفهية متداولة في الثقافة الشعبية.

في رأينا أن سوء الفهم والتعامل مع الأمور بنفس تستسيغ الخرافة هو السبب في عزو تلك الأمور إلى العلماء، فمن المحتمل أنه في الطريق رأى بعض الناس ما عند هؤلاء الأولاد، وسألهم عن حالهم، فأبدلهم بكيسهم كيساً آخر مليئ أرزاً، ولم يُخبَر الشيخ المحروقي بذلك، وحسبوا من بعد أنها كرامة! هذا هو أقرب الاحتمالات لحمل القصة على محمل صحيح، على فرض صحتها جدلاً، أما ما عدا ذلك فلا يمكن قبوله أبداً.

▪ ومما روي أيضاً في الثقافة الشعبية: أنه (كان للشيخ جاعد بن خميس الخروصي مزرعة، فيها صخرة عظيمة، وفي أحد الأيام نظر الشيخ إلى الصخرة فلم يجدها في مكانها، فلما رجع الشيخ إلى منزله سأل أولاده عن الصخرة، فقال واحد منهم: أنا الذي حولت الصخرة عن مكانها.

هنا نظر الشيخ إلى ولده فعلم أنه سيكون عالماً وطاغية جباراً، فقال الشيخ لابنه: تعال وأخبرني عن مكان الصخرة.

فلما وصل الشيخ إلى مكان الصخرة، بقدرة الله فلق الشيخ الصخرة إلى شقين، وألقى عمامته داخل الصخرة، فقال لولده: يا ولدي؛ اذهب واحضر لي العمامة من داخل الصخرة.

فلما دخل الولد، أرجع الشيخ الصخرة على ما كانت عليه، وبقي الولد داخل الصخرة)[1] اهـ.

طبعاً من يروون مثل هذه القصص يعدونها من كرامات الشيخ، حيث استطاع فلق الصخرة ورجعها إلى ما كانت عليه بقوة خارقة، بل حبس فيها ابنه، وبعبارة أخرى

---

١ الأغبري "الكرامة لأهل الحق والاستقامة" ص١٢٩.

قتله!، ونحن نعدّها من الترهات المزرية بالعقل الذي كرّمنا الله به، فهل يرضى أحد أن يُنسب إلى الشيخ جاعد بن خميس الخروصي أنه قتل ابنه؟!.

ونحن متأكدون أن بعضهم سيستدل وبسرعة بقول الله تعالى فيما حكاه من قصة العبد الصالح الذي صاحبه موسى عليه السلام: ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ الكهف: ٧٤، فهذه كرامة لهذا العبد الصالح وتلك كرامة للشيخ؟!.

وهذا الاستدلال يعكس أزمة لي أعناق النصوص لتتوافق مع قناعات سابقة على النص، فهذا العبد الصالح قد قال كما ذكر القرآن ذلك على لسانه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ الكهف: ٨٢ وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ الكهف: ٨٢، فالمسألة هي أمر من الله بذلك، فهل سيدّعي هؤلاء أن الشيخ جاعد يُوحى إليه حتى يفعل ذلك؟! وإذا قالوا بذلك فنحن أمام مرحلة جديدة من مراحل الأسطورة، وسقف أعلى من تسرب الخرافة.

وها هم أحفاد الشيخ جاعد وعائلته لم نسمع منهم شيئاً من هذا القبيل، وهل لو وقع شيء من مثل هذا الاختلاف بين الشيخ وولده سيخفى أمره عليهم؟!.

إذن نخلص من كل ذلك إلى إنكار هذه الرواية رأساً لخرافيتها ومخالفتها لسنن الكون، ولكونها من الافتراءات على علماء الأمة الذين ثبت لدينا صلاحهم وتقواهم وورعهم رضوان الله عليهم.

وإننا سنقف بالمرصاد الفكري والنقد العلمي لكل من يريد أن يسوِّد صحائف أئمة الإسلام وعلمائه البيضاء الناصعة وسِيَرهم الزكية العطرة بمثل هذه الترهات المخترعة والسفاسف المبتذلة.

- ومما روي في الثقافة الشعبية: (قيل: إن الوارث بن كعب كان يسكن قرية هجار من وادي بني خروص، وكان يرى الرؤيا في نومه تدل على ظهور الحق على يديه، وأنه كان

ذات يوم يحرث في زرع له فسمع صوتاً يقول له: اترك حرثك وسر إلى نزوى وأقم بها الحق. ثم ناداه ثانية وثالثة بذلك.

فقال الوارث: ومن أنصاري وأنا رجل ضعيف؟.

فقيل له: أنصارك جنود الله.

فقال: إن كان ذلك حقاً فليكن مصاب مجزّي[1] هذا ينبت ويخضر من الشجرة التي أصله منها، فغرسه في الأرض، فنبت شجرة لومي.

ويقال: إن هذه الشجرة موجودة إلى الآن ببلدة هجار!)[2].

لعل هذه القصة أشهر القصص التي تداولتها الأدبيات الشعبية في موضوع الكرامات، لا سيما وأنها ارتبطت بأحد الأئمة العدول الذين حكموا عمان وهو الإمام الوارث بن كعب (ت: ١٩٢هـ)، وقد روج لها كثيراً في الأوساط الشعبية، بل تناست الأوساط الشعبية والعلمية على حد سواء الأعمال الجليلة والسيرة الزكية للإمام الوارث واقتصرت على ترديد هذه القصة، ولا ندري لماذا؟!.

هذه القصة يصدرها الشيخ السالمي بلفظة "قيل"، لأنها من قبيل التراث الشفهي الذي لا سند له سوى قيل ويقال، ودليل ذلك أيضاً استخدام الشيخ كلمة "المصاب" وهي عامية، وتعني المقبض الذي يثبت فيه السكين أو أداة القطع، والفصحى النصاب، وقد يكون الشيخ قد نقلها عن كاتب متقدم عليه، لكن الأمر سيان، حيث هو الآخر قد أخذها من لسان العامة.

---

١ المجز: أداة الجز والقطع "المنجل".

٢ السالمي "تحفة الأعيان" ج١ ص ١١٣.

وهذه القصة تحكي عن أمر لا ينتمي إلى العالَم الذي نعرفه، فهناك أصوات لا يدرى كنهها، يسمعها الإمام الوارث تناديه للمسير إلى نزوى، ثم مطالبته بخارق من الخوارق لإثبات ذلك؛ بأن ينبت مقبض المجزّ، وهو كما يظهر من الرواية خشب يابس، ووقوع ذلك فعلاً كما تقول الرواية، حيث غرسه الإمام فإذا هو غصن يخضر في الأرض فينبت شجرة ليمون لا تزال باقية إلى يومنا هذا!.

نتساءل ما هي طبيعة هذه الأصوات التي سمعها الإمام الوارث؟.

هل هي أصوات بشرية؟ أو أصوات منبعثة من أعماق نفس الإمام الوارث؟ وهذا أمر طبيعي لولا المسحة الغيبية في القصة والطلب الخارق الذي تحمله، أما إذا كانت هذه الأصوات منبعثة من عوالم أخرى كعوالم الجن مثلاً فلا نعلم أن الجن ينادون الإنس، ولا نمتلك دليلاً يقينياً في هذه الجزئية المتعلقة بالعالم الغيبي.

كما أن الجن هم أيضاً لا يعلمون الغيب، فكيف تأتى لهم أن يخبروه بأن الحق سيقوم على يديه؟! فهل أوحي لهم بالغيب ليخبروه؟!.

أو أن الإمام رحمه الله جاءه ذلك الصوت وحياً من الله تعالى، وبالتالي علينا أن نقرر مرحلة جديدة في التفكير الإباضي؛ وهي مرحلة دخول الغنوصية إليه!.

فاعتبروا يا أولي الألباب!.

ونتساءل أيضاً: من واقع المعرفة الكونية بالنبات وخصائصه:

هل يمكن أن يخضر النبات الذي يبس وتحول إلى خشب ميت؟، اللهم إلا إن كان النصاب لا يزال طرياً، وحينها لا يلزم أن يكون مَن غَرَسَه إماماً يريد أن يقيم الحق، فأي شخص آخر يمكن أن يقوم بذلك، ولو جعله مَعْلَماً لقيام الباطل.

وهل يمكن لشجرة الليمون أن تبقى من عصر الإمام الوارث (=القرن الثاني الهجري) إلى عهد الشيخ السالمي فيدون القصة في مؤلفه (=القرن الرابع عشر الهجري)؟.

وهل دورة حياة نبات الليمون تسمح له بالعيش طوال هذه المدة؟.

أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابة، نطرحها على القارئ الكريم ليبحث ويُعمِل النظر فيما يُروى وما يُلقى إليه.

وقد طالبنا الله تعالى بالنظر في النبات ودورة حياته وأصنافه المختلفة ليكون ذلك آية للمؤمنين عندما يكتشفون سنة الله في خلقه، اقرأوا رحمكم الله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام: ٩٩.

وبعد كل هذه الأرتال من الأسئلة؛ فيحق لنا أن نسأل: هل كان الإباضية يقيمون الحق والعدل بمثل هذه الهرمسيات الغنوصية أو بالعمل الدؤوب الجاد؟!.

- وتستمر هذه الأساطير تتدفق من عوالم الهزيمة النفسية والإحباطات الاجتماعية التي نعانيها، فقد رُوي في أدبيات الثقافة الشعبية:

(أن رجلاً عزم على السفر بحراً، فوضع أمتعته ونقوده في السفينة، ونزل عنها إلى بعض الأماكن ريثما تتحرك السفينة، فلما عاد وجد السفينة قد رحلت، فخاف على نقوده وأمتعته من الضياع، وفوراً ذهب إلى الشيخ الرباني جاعد بن خميس وأخبره بما جرى له، فكتب له الشيخ حرزاً وقال له: ضعه في كفك، ولا تفتحه حتى تركب السفينة.

فذهب الرجل عنه، ولما وصل إلى البحر انفلق له، فلما كان في منتصف الطريق قال في نفسه: ماذا كتب لي الشيخ.

ففتح الورقة فوجد مكتوباً عليها "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال: كنت أعرف البسملة، ولو كتبتها بنفسي. فلما انتهى من كلامه هذا انطبق عليه البحر فكان من المغرقين)[١]اهـ.

ماذا يمكن أن نصدق من هذه القصة الخرافية؟ هل نصدق أن الشيخ جاعد كان قادراً على فلق البحر لجعل شخص يسير على قعره؟ أم نصدق أن اطلاع هذا الشخص على هذا السر كان كفيلاً بغرقه وهلاكه؟! لن نعلّق هذه المرة، ولندع القراء الكرام يحكمون بأنفسهم، العالم يسير ومنذ قرون نحو تعمير هذا الكون وبنائه وفق اكتشاف سنن الله، ونحن لا نزال نحلم ببركة الأسرار وخواص الحروف التي تأتي على سنن الله وشرائعه الكونية فتنسخها؟! الآن أصبحت الدول تبني باستخدام معدات هائلة أنفاقاً تصل أرضاً بأرض عبر البحار، ونحن لا نزال نحلم بفلق البحر بالأسرار والطلسمات؟! هل أدركنا الآن سر تخلفنا؟!.

- ومما روي أيضاً في الثقافة الشعبية؛ وقد تسرب إلى كتب طبقات الرجال: ما ذكر عن العلامة أبي المنيب محمد بن يانس أنه: (رافق رجلين؛ لا أدري إلى الحج أم إلى تاهرت، فلما كانوا ببعض الطريق قال أحدهما: أتمنى الآن ماء عين كذا. يعني عيناً ببلده.

وقال الآخر: أتمنى هاهنا لبناً.

فقال لهما محمد: إن كتمتما ما تريانه يحضر ما تمنيتماه.

---

١ الأغبري "*الكرامة لأهل الحق والاستقامة*" ص١٢٩-١٣٠.

فحلّ فم سقاء فصبّ منه لبناً على الصفة التي تمناها صاحبه، ثم صبّ للآخر ماء لا يشكون أنه ماء العين المذكورة التي تمنى ماءها صاحبه، وكلاهما من سقاء واحد لم يتقدم فيه غير ماء من مياه المكان الذي كانوا فيه، وذلك بقدرة الله عزَّ وجلَّ وإكرامه)[١].

ولا نحتاج إلى كبير عناء من الاستنتاج لنعرف أن فكرة هذه الكرامة الخارقة قد تسربت إلى الدائرة الإباضية من الحقل الإرجائي؛ الذي شيّد بنيانه على الأماني دون الأعمال، قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ النساء: ١٢٣-١٢٤.

ومن العجيب أن هذه الكرامة اُشترط لحصولها كتمانُها، ولا ندري كيف سقط هذا الشرط وحصلت الكرامة حتى أنها وصلت إلينا؟، وهذا التساؤل يكفي ليحطم هذه الأسطورة من داخلها، ولكن لا يمنع ذلك أن نسأل أيضاً: هل تحقيق التمني هو من خاصية السقاء أو من خاصية الشيخ أبي المنيب رحمه الله؟ ونحن نسأل هذا السؤال لا يحضرنا إلا جواب واحد؛ وهو أن من لديه القدرة بأن تنفعل له الأشياء حسب إرادته هو الخالق جلّ وعلا دون سواه من المخلوقات، و(قَلْبُ الأعيانِ مُختصّ بالله جلّ جلاله)[٢]، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ النحل: ٤٠، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس: ٨٢.

ومع هذه القدرة المطلقة لله والتي ليست لأحد سواه أبداً؛ فإنه عزَّ وجلَّ ربط إجابة طلب عباده في الدعاء بسلامة الاعتقاد فيه والاستجابة له بما أمر فعلاً وتركاً، ومن ذلك الأخذ

---

١ الدرجيني "*طبقات مشائخ المغرب*" ج٢ ص٢٩٨.

٢ محمد بن يوسف اطفيش "*شرح النيل وشفاء العليل*" ج١٧ ص١٩٧.

بالأسباب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة: ١٨٦.

وهذا قانون لا يمكن خرمه إلا إن قلنا بأن الله يخلف قوله ويبدل كلماته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

■ ومما روي في الثقافة الشعبية: (عن العلامة محمد بن علي بن عبدالباقي أنه ذهب مع أصحابه إلى الحج، وفي يوم عرفة قال الشيخ لأصحابه: أتريدون الشرب من فلج الغنتق؟.

وهو فلج في منطقة الغنتق بسافل نزوى كان الشيخ يسكنها، فقالوا له: هل أحضرته معك من نزوى؟.

فقال: لا.

فقالوا: ما تفعل؟.

فقال لهم: اغمضوا أعينكم.

وإذا بفلج الغنتق يتحول إلى عرفة! وقال لهم: أسرعوا بالشرب فإن الفلج لي الآن.

فشرب أهل عرفات، وأهل نزوى لا يدرون أين ذهب الماء.

وما زال فلج الغنتق إذا جاء يوم عرفة ينقص كرامة للشيخ)[1] اهـ.

نحن أمام قصة انتقال فلج بكامله من بلده إلى بلد آخر، هل يمكن ذلك وفق قانون حكمة الله في الكون، دعنا نحلل المسألة من بدايتها: الفلج يتكون من: منبع ومجرى ومصب،

١ الأغبري "الكرامة لأهل الحق والاستقامة" ص١٢٢.

وهذه الأشياء مرتبطة ببعضها البعض، بل بعض الأفلاج تجري خلال سلاسل جبلية، فهل كل ذلك انتقل من نزوى إلى مكة المكرمة؟!وكيف تم ذلك وبأية وسيلة؟!.

الرواية تصوِّر ذلك على أنها قوى أسطورية خارقة يمتلكها الشيخ محمد بن علي بن عبدالباقي، بل إن بعضهم يتصور أن ذلك أمر طبيعي ويستدل بقوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۝ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ النمل: ٣٩-٤٠.

لكننا ننبه هنا إلى أن هذا له سياقه الاجتماعي؛ الذي يكشف لنا أن هذا الموضوع الذي تعالجه الآيات الكريمة ليس فيه شيء خارج عن السنن المعتادة، التي وضعها الله تعالى في كونه، وقد شرحنا ذلك سابقاً فليرجع إليه، ومع ذلك نقول لمن لم يقنع بذلك أن هذا الذي ﴿عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ كان يعيش في كنف نبي هو سليمان عليه الصلاة والسلام، الذي أوتي من الملك الشيء العظيم وسخر الله له جنوداً من الإنس والجن:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ النمل: ١٥-١٦.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ

الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ سبأ: ١٢-١٤.

﴿قال ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنّك أنت الوهّاب ﴿٣٥﴾ فسخّرنا له الرّيح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ﴿٣٦﴾ والشّياطين كلّ بنّاءٍ وغوّاصٍ ﴿٣٧﴾ وآخرين مقرّنين في الأصفاد ﴿٣٨﴾ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حسابٍ﴾ ص: ٣٥-٣٩.

فهذه المملكة العظيمة التي اجتمع فيها جنود من الإنس والجن هي آية من آيات الله التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، وما كان عند سليمان عليه السلام هو ما حكاه الله عنه ﴿هب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾ فهذه الأمور منطقة محدودة لا تتعدى النبي سليمان، وأن ما فعله الذي عنده علم من الكتاب داخل ضمن إطار هذه المملكة القوية ذات القدرات الهائلة.

أما أن نأتي ونقول: إن الشيخ محمد بن علي بن عبدالباقي كانت لديه أسرار مكنته من نقل فلج الغنتق إلى مكة المكرمة فغير مقبول، فمن خلال دراسة الوضعية التاريخية لتلك الفترة، لم يكن العالم يعرف ما يحلم به ما يسمى بالانتقال الآني من خلال اختراق الأبعاد المكانية، ولو كانوا يمتلكون تلك الوسيلة لأصبحوا أعظم قوة على وجه الأرض آنذاك، والواقع التاريخي يشهد بخلاف ذلك، فقد كانت الفترة التي عاشها الشيخ ابن عبدالباقي هي فترة ضعف وتسلط الجبابرة على عمان.

ثم تأتي الكرامة الثانية للشيخ ابن عبدالباقي (وما زال فلج الغنتق إذا جاء يوم عرفة ينقص كرامة للشيخ) ومثل هذه القصص لا تصح لمخالفتها للكتاب والسنة، فالله تعالى يقول عن الأجرام السماوية: ﴿لا الشّمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا اللّيل سابق

النَّهارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾ يس: ٤٠ ، ويقول: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل: ١٠-١٣.

فترون أن آيات الكتاب تبيّن أن الأجرام تسير وفق نواميس مضبوطة وقوانين محكومة بإرادة الخالق تبارك وتعالى ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ النحل: ١٢، وهذه لا ترتبط بفلان وعلان من الناس.

وهذا هو الذي علّمه النبيُ صلى الله عليه وسلم أُمتَه فعندما مات ابنه إبراهيم في يوم كسفت فيه الشمس قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عزَّ وجلَّ لا يخسفان لموت بشر ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله)[١]، لكن نأبى إلا أن نسير على خلاف ما في كتاب الله وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم، ونزعم أن نقصان الماء وزيادته في فلج الغنتق مرتبط بالشيخ محمد بن علي بن عبدالباقي، أهذه هي عقيدة الإسلام النقية السمحة الصافية؟ ألا نجعل أنفسنا بذلك أضحوكة ببث هذه الخرافات بين الناس؟!.

قلت (=خميس بن راشد العدوي، أحد مؤلفي هذا الكتاب): (إن سماحة الشيخ المفتي أحمد بن حمد الخليلي ذكر له سلطان بن مبارك الشيباني (=وهو أحد الباحثين الجادين

---

١ الربيع (١٩٧).

في التأريخ العماني) أنه من خلال بحثه في كتب غير الإباضية كان كثيراً ما يجد في ترجمة الشيخ ناصر بن جاعد الخروصي وصمه بالساحر) اهـ.

فانظروا عفا الله تعالى عنا وعنكم إلى هذه الكارثة الفكرية، أصبح علماء الأمة لا يُنظر إليهم على أنهم علماء نحارير وفقهاء محققون وأتقياء موفون، بل ينظر إليهم على أنهم سحرة مشعوذون وخرافيون مبرسمون.

والحق أننا لا نلوم الآخرين بقدر ما نلوم أنفسنا، عندما قدمنا علماءنا بمثل هذه الأساطير والخرافات.

قال الشيخ الخليلي: (هذه القصص راجت في وقت من الأوقات كثيراً، وكل أمر لا يقبله العقل لا يمكن أن يُسلَّم له، وأبعد من ذلك ما ذُكر أخيراً ولم يذكر أولاً من أن أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه دعا الله، فانفرجت السماء الأولى ثم الثانية ثم الثالثة وأبصر العرش، فهذا الكلام لا يصح ولا يقبل لأنه مخالف للسنن الكونية)[1].

وسبب اعتراض الشيخ الخليلي على ما روي في أدبيات الثقافة الشعبية من انفراج السماء لدعاء أبي عبيدة يعود إلى أن (السنن الإلهية ثابتة ما أراد الله تعالى ثبوتها، وعندما يريد أن تنتهي هذه السنن ذلك أيضاً إليه سبحانه، فمثلاً نحن لا نؤمن بأن السماء يمكن أن تنشق قبل يوم القيامة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ الانشقاق: ١-٢، ولما علم من أن هذا الانشقاق يؤدي إلى تساقط الأجرام السماوية؛ لأنها من جملة ما يشكّل السماء الدنيا بترابطها، وهذا الترابط جعله الله تعالى سبباً لبقاء الكون إلى أن يشاء الله تعالى زواله، وهذا هو الذي أشار إليه قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ الانفطار: ٢.

١ أحمد بن حمد الخليلي "إعادة صياغة الأمة" ص ١٣٣.

فلا نصدق وقوع انشقاق للسماء قبل أن يريد الله انتهاء هذا الكون كما وجد ذلك في بعض ما كتب وما قيل ، فلذلك اعتبرنا مثل هذه المقالة لا تصدق)[١].

جناية كتب الخرافة على الأمة

لقد شاع في الآونة الأخيرة نشر كتب الخرافة والأساطير ، لا سيما تلك التي تروج لفكر الكرامات الخارقة والأعمال السحرية وتأثير الجن ، وهذا أمر مؤسف جداً ، حيث يزيد الأمة ضعفاً بعد ضعف ، ووهناً إلى وهنها ، ويبعدها عن الشهود الحضاري الذي تعيشه الأمم ، والذي ينبغي لهذه الأمة أن تتسنم صهوة جواده ، وأن تكون أمة قائدة للبشرية بحكم حملها لكتاب الله المنزل وسيرها على هدي نبيه المرسل ، فكتب الخرافة بكافة أشكالها تصب في ماعون واحد صدء ؛ وهو تكريس التخلف الفكري والعلمي والحضاري للأمة ، وذلك بإقصاء أجيالها عن الأخذ بالأسباب ، التي يقوم عليها البناء العلمي للكون ؛ كما أراده الله تعالى.

أليس هذا ما يؤخر الأمة عن نهضتها؟!.

ومع ذلك فهذه الكتب تعدّ جناية في حق علماء الأمة العاملين الذين وهبوا أنفسهم للدين والعلم ، ولنهضة أمتهم وإصلاح مجتمعاتهم ، مبتغين وجه الله تعالى وحده ، فإذا هذه الكتب الهزيلة تقدمهم على أنهم دراويش ومخاريق ومبرسمون ، ليس لهم من أثر في الوجود إلا مناقضة جريان الكون المحكم الذي يتحرك وفق منهج الله المنضبط وسننه الموزونة.

أليس هذا أمر يسئ إلى الأمة في علمائها ورموزها العظيمة؟!.

---

١ المرجع السابق ص ١٣٦.

(إن من الجرم في حق أمة القرآن واستخلاف الإنسان دينياً وفكرياً واجتماعياً ؛ أن يروج -في هذا العصر، وأمام ما تواجه الأمة من تحديات- أي شيء يعوق روح العلم والعمل، والجد والاجتهاد، والأخذ بالأسباب، وحمل المسؤوليات.

ومن الجريمة أيضاً نشر كتب العصور السالفة التي -على الرغم من الإخلاص وحسن النية- تخصّ ظروفاً وتحديات وسقوفاً معرفية سالفة، وكثير منها هو من باب أدبيات الخرافة والتخلف والانحطاط، تلصق زوراً بالدين والتراث، فنشر مثل هذه الكتب دون فحصها وتنقيتها، وترويج مادتها باسم الدين بين الناس والناشئة، على ما ملئت به من الأكاذيب والأساطير وبعض شواذ الأحداث التي تُخدع فيها الحواس، إن صدقت أقوال رواتها، وحسنت حقيقة ضمائرهم، لا مجرد مظاهرهم، هو من باب الجريمة والجناية على عامة أبناء الأمة.

إن أقصى ما يولي العقل المسلم السليم مثل هذه الكتب هو أن تصبح من قِبَل أصحاب الاختصاص مادة بحث ودراسة وتأمل وفهم الظروف التي كتبت فيها ودوافعها، لا مادة تروج بين عامة أبناء الأمة، فإن ذلك في الحقيقة شعوذة ودجل للترويج باسم التراث وباسم الدين لكل من هبّ ودبّ من الماضين، أو حتى بسبب نسبة بعضها حقاً أو باطلاً إلى بعض من نجِلّ من أهل العلم الذين أخطأوا -إن صح نسبتها حقاً إليهم- فَهْمَ بعض القضايا، ووقعوا في الخطأ بحكم الظروف التي أحاطت بهم، وكم من ظاهرة لم تكن مفهومة في الماضي، أمكن بالبحث العلمي والدرس فهمها وحل ألغازها، بما حققه العلم من تقدم في الوقت الحاضر، كما أن الكثير من هذه الدعاوى قد اتضح كذبها وادّعاؤها.

إن التعلق بالخرافات والأوهام وقصص الخوارق والأحاجي والألغاز وكاذب أو واهم المعجزات، ونشرها، والخلط بين ماضي الإنسانية ودور الخوارق فيه، وحاضر الإنسانية

القائم على هداية الوحي ومنهج العلم والعقل، كل ذلك لا يخدم إلا أعداء الأمة، ولا ثمرة له إلا تدمير روح العلم والقدرة فيها، واستدامة ضعفها وعجزها.

يجب حماية الأمة والناشئة، وتحصينهم بالعقيدة الصحيحة، وبالعلم الصحيح، من مثل هذا الفكر الضار، ومن مثل هذه المواد الضارة، ووضعها -في كل ما يتعلق بالتربية والتعليم والإعلام- بعيداً عن أعين الناشئة والعامة وأسماعهم وأدبياتهم، وأن يتم حفظ المواد السامة والضارة لدى أصحاب الاختصاص بعيداً عن أيدي الصغار والجهال)[1].

الكرامة ومناقضتها للحكمة الربانية

ورب قائل يقول: ولماذا تنكرون الكرامات والله تعالى على كل شيء قدير، فإن كان الله قد مكننا من المشي على سطح اليابسة أليس بقادر على أن يجعل إنساناً يمشي على سطح البحر، ونحو ذلك من الخوارق؟ وأليس في ذلك استنقاص لقدرته سبحانه وتعالى؟.

قلنا: هذا سؤال ساقط من أصله -كما يقول المتكلمون- فهو سؤال من يستحضر قدرة الله دون حكمته، فهذا مثله كمن سأل في حق الله تعالى و(قال: أيقدر أن يجعل الدنيا في بيضة، والدنيا على ما هي عليه من العظم، والبيضة على ما هي عليه من الصغر؟.

قيل له: نقضت في سؤالك، لأنك بقولك: يقدر أن يجعل الدنيا في بيضة. قد دللت به على أن الدنيا أصغر من البيضة، والبيضة أوسع منها، وبقولك: والبيضة على ما هي عليه. قد أوجبت أن الدنيا أوسع، فكأنك قلت: يقدر أن يجعل البيضة واسعة لا واسعة في حال!.

---

١ عبدالحميد أبو سليمان "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" ص٩٢-٩٣.

فجوابنا: أنه على كل شيء قدير، وأنك لم تسألنا عن شيء يقدر عليه، وإنما نقضت بعض كلامك بعضاً، وكذلك الجواب عن قولهم: يقدر يجعلنا قياماً قعوداً في حال، وأن يجمع المتضادات.

قال المتأمل: انظر كيف قال[١]: إن الجواب في السؤال عن القدرة على جمع الأضداد أنه فاسد، وأنه نقض أوله بآخره، ولم يقل: نعم يقدر على ذلك.

وانظروا معاشر المسلمين إلى أجوبة العلماء بالتوحيد ومقالات الفقهاء المنافسين في مدائح الله المجيد، كيف لم تستزلهم وساوس الشيطان المريد؛ في مثل هذا الموقف الخطر الشديد؛ عن تصفح معاني الألفاظ الموضوعة التي جعلها البارئ سبحانه دليلاً على الإرادات، وإعلاماً على المقاصد والإرشادات، وقضى عليها بالثبوت غاية الأبد لا تستحيل موضوعاتها إلى حد، ولا إلى أمد، فلم يلتفتوا إلى خوف ما يدخل على الضعفاء عند الوقوف عن الحكم بالقدرة على المحال، عند تحققهم أن في القول بالقدرة عليه فساد الحِكَم المستفادة من معاني الألفاظ، وأن فساد معاني الألفاظ التي جعلها الله دالة على الإرادات هجر من الكلام، وفحش من القول في الأحكام...

ولو كانت الألفاظ إذا اختلفت مقتضياتها عن أوجب موضوعاتها يسوغ تجويزها، لما ساغ الاشتغال بالجواب عن هذه المسائل وما جانسها بالتنبيه على تناقضها والإضراب عن إجابة متقدمها، ولوجب أن يقال: نعم؛ يقدر على ذلك، وإلا وقع الشك في قدرة الله، وليس الأمر كذلك، بل الواجب أن لا يجاب عن سؤال إلا بعد معرفة صحته وسلامته من آفات الفساد، وإلا كان القدح فيه جواباً للسائل عنه، فإنه متى أجيب عن السؤال

---

١ الضمير هنا عائد إلى المجيب وليس إلى السائل، فصاحب الكتاب هنا ينقل السؤال وجوابه، ويعلق عليه بقوله: قال المتأمل.

غير[١] الصحيح وقعت التسوية بين الفاسد والصحيح، فدخل على محال؛ الذي لا يحتمل حكم الاحتمال، وهذا إبطال للحقائق، وإفساد للحكمة)[٢].

نعم؛ عدم تحرير السؤال هو "إبطال للحقائق وإفساد للحكمة"، فالله القدير على كل شيء هو من اقتضت حكمته المشي على اليابسة دون الماء، وعلى فرض سؤال أهل الكرامات الخارقة؛ فالجواب: أن الله كان قادراً على أن يجعل موسى ومن معه يمشون على سطح البحر، ولكن هذا مناقض لحكمته العلية في خلقه، ولذلك أزاح سبحانه الماء، وأوحى ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ طه:٧٧، هذه هي قدرته سبحانه وحكمته.

فالله تعالى كما أنه ذو قدرة هو كذلك ذو حكمة، فقد قال عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ البقرة:٢٠، وقال أيضاً: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ الأنفال:٤٩، فلا يجوز أن تتعارض عنده الحكمة والقدرة، ولا يجوز لنا أن نضيف إليه تعالى بحجة قدرته المطلقة ما يعارض حكمته النافذة، فالله على كل شيء قدير حقاً وصدقاً إلا أنه لا تنفذ قدرته حسب أهوائنا ودعاوانا، بل هي نافذة بمقتضى حكمته، وقد أحكم الله الوجود بأسره بسنن وقوانين ماضية، فكما أنه محال على الله تعالى أن يعجزه شيء في الوجود فهو محال عليه أيضاً أن يتنازل عن حكمته فهي من مقتضيات عظمته وكبريائه، (فليس لأحد أن يتطاول فينازعه فيهما)[٣].

فمثل هذا (يكون مقطوعاً بأنه لا يكون البتة، وهو ضربان:

أحدهما: محال من طريق العقل كاجتماع الأضداد.

---

١ كلمة "غير" غير موجودة في الأصل، أضفناها لاستلزام العبارة إليها كما هو واضح.

٢ أحمد بن عبدالله الكندي "*الجوهر المقتصر*" ص٨٩-٩٠.

٣ أحمد بن حمد الخليلي "*الحق الدامغ*" ص٩٠.

الثاني : محال كونه من طريق السمع من الكتاب أو السنة أو الإجماع كخروج أهل الجنة أو النار منهما ، وكبعث نبي بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما أشبه ذلك ، فهذان الضربان قد سمّاهما المتكلمون محالاً ، أي كونه محالاً)[١].

(وأما المحال الذي علمت استحالته من قِبَل العقل فإيقاع القدرة عليه محال في العقل ، فإن معنى المحال ما أحيل عن وضعه في الحكمة ، ولا يكون في العقل بحال ، وما لا يمكن فليس بشيء ، وما ليس بشيء فلا يصح إيقاع القدرة على إعدامه وهو معدوم ، ولولا أن ذلك كذلك لما كان للحقائق فضيلة)[٢] ، وكذلك ما كان مستحيلاً قيامه في الحكمة فلا يصح إيقاع القدرة على إقامته ، "ولولا أن ذلك كذلك لما كان للحقائق فضيلة" أيضاً.

فإذا جاز لنا أن نقول : إن الله قادر على أن يجعل فلاناً يمشي على سطح الماء ، وأمثالها من الخوارق ؛ جاز لنا أن نقول : إن الله قادر على أن يبعث نبياً بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، فهذه بتلك ! وكلاهما منفيان بمقتضى الحكمة ، التي لا يجوز إيقاع القدرة بخلافها. فاعتبروا يا أولي النُهى.

الوعي الحضاري لدى علماء الأمة

لقد كان لعلماء الإباضية في المشرق والمغرب مشاركة فاعلة في البحوث العلمية والحضارية والفكرية والسياسية ، فلم يكونوا يوماً منغلقين على أنفسهم ، ولم يحاربوا الكشوف العلمية ، بل استفادوا منها في تكوين ملكاتهم الفقهية وتجديد آرائهم العلمية ، وأفادوا بها ؛ حيث ظهرت آثارها في مؤلفاتهم الفقهية والعقدية ، وهذا باب واسع ينبغي إظهاره للناس ليروا ما يتميّز به هؤلاء العلماء رحمهم الله ، ونحن هنا لسنا بصدد بيان

---

١ أحمد بن عبدالله الكندي "*الجوهر المقتصر*" ص٨٢

٢ *المرجع السابق* ص٨٣ ، بتصرف طفيف استلزمته سلامة العبارة.

ذلك، وإنما نعرج منه إلى ما وقع من خطأ من قبل بعض الناس عندما خلطوا بين الإدراك الحضاري والعلمي للعلماء وبين خرافة الكرامة الخارقة للعادة، وهذا وقوع في حق علماء الأمة لابد من تصحيحه وردِّ الاعتبار العلمي إليهم، ونكتفي هنا بذكر هذين المثالين:

١. ما ذكره الإمام السالمي في "جوهر النظام" من الأمراض الكثيرة التي يخلّفها تدخين التبغ، حيث قال:

فقول من خالفنا في المذهب   في التتن[1] الخبيث لم يصوب
قال بأنه مرقد ولا   يسكر قلت أذهب التعقلا
والغرض المشروع من ذا الباب   حفظ عقولنا من الذهاب
لو لم يصح سكره لكانا   محرماً لضره عيانا
فمائة وبعدها عشرونا   من علل في ذاك يذكرونا
يصفر اللون ينتن الفما   يسود الأضراس أيضاً فاعلما
ويورث السل مع الوباء   ويخرق الكبد من الأحشاء
ويورث الجذام ثم البرصا   ومن له يشرب ربه عصا
يفتر الشهوة في الجماع   ونحو هذا سائر الأنواع
بعدّها طراً يضيق الحال   ويكتفي ببعضها العقّال[2]

وهذه الأبيات تدّل على أن الشيخ السالمي كان ابن عصره، فلم يكن متخلّفاً عن الركب الحضاري في ذلك الوقت، وكان أيضاً متابعاً لما هو جديد من الكشوف الطبية والعلمية،

١ التتن هو التبغ، وهي تسميه قديمة له، وهذه التسمية كانت منتشرة في عمان والخليج العربي.
٢ السالمي "*جوهر النظام*" ج١ ص١٨٠.

وكان يجدر بنا أن نبرز هذا الجانب من شخصية هذا العَلَم الهمام، لا أن نركن إلى الأوهام، حيث سمعنا من يصفه بأنه يُلهَم الغيب، وقد ألهم معرفة هذه الأمراض التي يخلّفها تدخين التبغ!، سبحانك ربنا، وهل يعلم الغيب إلا الله الواحد الأحد؟!.

ولو أزاح هؤلاء عن أنفسهم غشاوة هذا الوهم، وقرأوا الأبيات بعين من يريد إدراك الحقائق؛ لوجدوا الإمام يصرح بنفسه أن هذه الأمراض ذكرها نقلاً عن غيره، فهو يقول:

فمائــة وبعدهــا عشــرونا   مــن علــل في ذاك يذكــرونا

فهو يصرح بأنه ما قال ذلك إلا لكونه ينقل ما يذكرون.

وهو يكتفي بذكر بعضها لأنها معلومة لدى الناس آنذاك:

بعدّهــا طــراً يضيــق الحال   ويكتــفي ببعضــها العقّــال

وإن أردنا افتخاراً بمنزلة علمائنا؛ فلنفتخر بإدراكهم الحضاري، وبقدرتهم الفقهية المتميزة، حيث اختلف علماء سائر الأمة في الحكم على تدخين التبغ بين محرِّم ومكرِّه ومحلّل له، إلا الإباضية فقد اجتمعت كلمتهم على حرمته، وما يرجع هذا -بعد توفيق الله- إلا إلى فهمهم العميق لكتاب الله وإلى القواعد الفقهية المتينة التي يؤصلون بها مسائل الفقه، وإلى عدم غيابهم عن حركة الواقع من حولهم.

٢. الأبيات الابتهالية التي قالها العلامة سعيد بن خلفان الخليلي رحمه الله، وهي:

أعايـن تسبيحي بنـور جناني   فأشهد مني ألف ألف لساني

وكـل لسان أجتلي مـن لغاته   إذن ألف ألف من غريب أغاني

ويهدى إلى سمعي بكـل لغـة   هدى ألف ألف من شتيت معاني

وفي كل معنى ألف ألف عجيبة يقصر عن إحصائها الثقلان
ولم أذكر الأعداد إلا إشارة كأني في أوصاف ميطرانى
وإلا ففوق العد أمر منزه عن الحدِّ يفنى دونه الملوان[١]
ولا تتعجب إن عجبت فإنها حقائق صدق ليس بالهذيان
أراني كل الكون فيّ بأسره فكنت جميع الكائنات أراني
وأسمع قلبي من عجائب نيتي تسابيح كل الكائنات دواني[٢]

هذه القطعة الأدبيّة الرائعة التي نرى فيها عمقاً لاستيعاب آيات الله في الكون، ولتدبر آياته في الكتاب العزيز، من قبل هذا العالم الجليل، يرى البعض فيها أنها من الأسرار الغيبية التي ألهمت إليه، ولم نعرف أين هو هذا الغيب الذي ألهمه الشيخ؟!.

فإن كان هو ما ذكره من تسبيح لسانه بملايين "اللغات"؟!.

فإنما ذلك بعدد ذرات جسمه المكونة له، وهذا من الفهم الدقيق لكتاب الله المجيد، وليس من الغيب في شيء، فالله تعالى يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ الاسراء: ٤٤، والشيخ نفسه لم يزعم هنا علم هذه "الأسرار الغيبية"، وإنما قال: (أعاين تسبيحي بنور جناني).

فهو تدبر عقلي، وليس دروشة إلهامية كما يزعمها بعض المتصوفة.

وإذا جئنا إلى الذرات التي هي مكونة لجسم الإنسان وغيره، فليست أمراً جديداً حادثاً في الاكتشافات.

---

١ الملوان: الليل والنهار.

٢ المطاعني "*ديوان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي*" ص ٥٢-٥٣.

نعم من الناحية العملية هي علم جديد نسبياً، ومع ذلك كان علماً سابقاً لعهد الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي، فلعله اطلع على مقالات في هذا الجانب، وهذا ظننا في مثله من العلماء الراسخين الذين عملوا على إصلاح أوضاع أمتهم.

ومع ذلك فمن الناحية النظرية فالقضية مطروحة منذ فلاسفة اليونان، وربما قبل ذلك، (وهناك من يرجع سبق هذه النظرية الهندية عن مثيلتها عند اليونان، بأن الهنود قد وصلوا إلى نظرية الذرة أو الجوهر الفرد قبل ديمقريطس ولوقيبوس، وهما من أول القائلين بها في بلاد الإغريق)[1]، ولدى هؤلاء الفلاسفة مباحث فلسفية حول الجزء الذي لا يتجزأ، عرف عندهم بـ"الجوهر الفرد"، نضرب صفحاً عن الخوض فيه هنا، وإنما نشير إلى أن القرآن الكريم تكلم عن الأجزاء الدقيقة التي يدركها الإنسان آنذاك، وسماها الذرة، وبيّن أن هذه الذرات قابلة للانقسام، فقال جلّ شأنه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يونس:٦١، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سبأ:٣.

وبيّن سبحانه أن الإنسان بعد موته يؤول تراباً في الأرض، قال تبارك اسمه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ طه:٥٥.

وهل التراب إلا ذرات تسبح لله تعالى؟!.

---

١ منى أحمد أبو زيد "*التصور الذري في الفكر الفلسفي الإسلامي*" ص٢٠.

فهل نظن في الشيخ سعيد الخليلي بعد تدبره هذه الآيات الكريمة أنه لا يستطيع بـ"نور جنانه" ؛ أي بعقله المتوقد أن يستنبط هذه القضايا التي هي "حقائق صدق ليس بالهذيان"؟!.

وما نرى فيمن وصف هذه الأبيات بأنها كشف غيبي إلا أنه قد أبعد النجعة، وحذف نبلُه عن المرمى، وزلّ قدمه عن مهيع الصواب، ووقع في حق الشيخ الشاعر الخليلي من حيث أراد مدحه، فقد أراد أن يرفع مقامه بأن يزعم له صفة الإلهام الغيبي، إلا أنه غمطه حقه من قدرته الفذة في تدبر كتاب الله، واستصغر فهمه في تأمل ملكوت الله من حوله.

فنرجو وضع الأمور في مواضعها، ونصب الموازين على قسطها.

وبعد ؛ فالشيخ مسبوق في دراسة الذرات كما قلنا، ولعلماء المذهب الإباضي مشاركات قديمة في هذا المجال، حيث ألّف العلامة أبو بكر أحمد بن عبدالله الكندي كتاباً مستقلاً في هذا الفن، أسماه "الجوهر المقتصر"[١]، وقد نقل كثيراً فيه أقوال العلامة أبي المنذر بشير بن محمد بن محبوب الرحيلي.

كما أن معنى هذه الأبيات قاله نثراً العلامة الفيلسوف ناصر بن أبي نبهان الخروصي، أستاذ العلامة سعيد بن خلفان الخليلي، فقد نقل عنه صاحب "قاموس الشريعة" فقال: (قال الشيخ ناصر بن أبي نبهان: ويعرف الله بصفاته من مخلوقاته، بالدلالة الدالة على معرفته تعالى منها، فكل ذرة من ذرات الوجود هي كلمة من كلام الله، ناطقة بجميع معرفته تعالى التي أراد أن يعرف عباده المكلفين عبادته منها، وكل ما يدل عليه جميع

١ طبعته وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان.

الوجود من ذلك، تدل عليه كل ذرة من ذرات الوجود، وما بقي فكالشرح لتلك الكلمة)[١].

وقال أيضاً: (فكل ذرة من ذرات الوجود هي آية لله؛ وكلمة لله ناطقة بلسان في كل حين، بجميع توحيد الله ناطقة بإذنه؛ لأنها آية لصفات الله في توحيده، وأن تحديدها بالنهاية غير حق؛ لأنها على خلاف ذلك، كذلك بلسان الحال.

ويمكن أن تشهد لله بالربوبية بلسان المقال، وأن كل شيء يعرف الله تعالى من ناطق وجماد لثبوت جواز القراءتين من قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء:٤٤)[٢].

ولذلك ندعو الباحثين أن يدرسوا الأبعاد الحضارية والفكرية والفقهية لدى علماء الأمة، بدلاً من طمر معارفهم والاكتفاء بالسعي وراء الأوهام لتطويق أعناق العلماء بها، وقد جاء الإسلام ليحررنا منها.

---

١ السعدي "قاموس الشريعة" ج٤ ص٣٧.

٢ المرجع السابق ج١٩ ص١١٣-١٢٨.

٣. الإلهام

درج الكثيرون من أفراق الأمة على القول بالإلهام، وحمله بعضهم على ما يُقذف في قلب الإنسان من علم الغيب، وهذا أمر باطل، وقد أقمنا الحجج على ذلك كثيراً فيما مضى من هذا الكتاب.

وإنما يجب حمل الإلهام –عند مَن قال به– على ما يخطر في القلب من خواطر الخير أو الشر؛ بناءً على مقدمات يستبطنها العقل مختزنة فيه، ثم في لحظة ما يجيش بها، وعلى حدِّ تعبير الشيخ السالمي:

ومنه إلهام به ينثلج قلبُ الذي في قلبه يختلج[1]

وهو نفس الحدس عند القائلين به، وأخو الوسواس.

وهذه العملية تحدث تلقائياً في عقل الإنسان وبسرعة، ومن سرعة بروزها تظهر وكأنها دون سابق مقدمات، ولذلك التبست على بعض الناس فظنوها إلهاماً غيبياً منبتّاً عن التفكير ومقدماته الراسخة في العقل، والتي ربما كانت غائبة عن شعوره، إلا أنها في الحقيقة هي غائرة في لاشعوره، ولعدم القدرة على التفريق بين العمل الشعوري في العقل الواعي وبين العمل اللاشعوري في العقل الباطن؛ عرّف بعضهم الإلهام (بأنه ما وقع في القلب من غير تفكر واستدلال)[2]، والحقيقة هو تفكر واستدلال سريع لا يكاد يتفطن له الإنسان الحاصل لديه.

١ السالمي "شرح طلعة الشمس" ج٢ ص١٨٨.

٢ إبراهيم عبدالعزيز بدوي "دور الاباضية في الفقه الاسلامي" نقلاً عن السمرقندي، انظر: "ندوة الفقه الاسلامي" ص٧٢٩، المنعقدة بجامعة السلطان قابوس ١٤٠٧هـ– ١٩٨٨م.

وهذه العملية العقلية تتفاوت بحسب ذكاء الإنسان الذي وهبه الله إياه، وبحسب المعارف التي يتحصل عليها في حياته، ومقدرته على الربط بينها، وتفعيلها، والاستنتاج منها، ولذلك لا معنى لتخصيص الإلهام بالولي كما يذهب بعض المتصوفة ومَن وافقهم، لأن جميع الطائعين لله هم أولياء له تعالى، والإلهام أيضاً ليس محصوراً في المؤمنين، ولا في العلوم الشرعية، فجميع البشر توجد فيهم هذه الخاصية، ولربما كانت في غير المسلم أقوى عنها في المسلم أحياناً، ولا عبرة بعد ذلك بتسميتها بالوسوسة أو الإلهام أو غيره، فـ(الخاطر خاطران: خاطر الإلهام، وخاطر الوسواس.

فخاطر الإلهام: ما حملك على الأخلاق والإصابة في جميع الأسباب.

وخاطر الوسواس: ما يوقعك في الأباطيل، ويصرفك عن الحق، ويلقيك في الحسابات الكاذبة، والظنون الردية، والأخلاق الدنية)[1]، وهذا يتساوى فيه جميع البشر.

وكما أن الوسوسة ليست علماً بالغيب؛ فكذلك الإلهام هو ليس علماً بالغيب قطعاً.

يقول الشيخ السالمي عن حجية الإلهام:

وليس حجة لعدم العصمة مخالف لمذهب الصوفية[2]

وقوله هذا حق؛ إذ لا يخفى أن الإلهام لا يمكن أن يركن إليه في الأحكام الشرعية، اللهم إلا إذا كانت النتائج التي انبلجت من العقل مطابقة للأدلة الشرعية، ولا غرابة في حدوث ذلك، لأن وجود المقدمات العقلية المختزنة في العقل قد يؤدي إلى بروز النتائج في لحظة من اللحظات، ولكن هذه النتائج لابد أن تحاكم أولاً إلى قواعد الشريعة وأصولها، وإلا لعُدّت مجرد وسوسة لا قيمة لها، بل قد توقع صاحبها في المعصية إذا خالفت شرع

١ الأصم "النور" ص٤٧٨.

٢ السالمي "شرح طلعة الشمس" ج٢ ص١٨٨.

الله المنزل، والإلهام في مجال الاجتهاد الفقهي لا يخرج عن الاستحسان في بعض صنوفه، وهو عمل عقلي ولا ريب.

وعن الشيخ السالمي: (أقول: إن كان الملهم ضعيفاً، فلا يكون ذلك الإلهام بنفسه حجة؛ حتى يطابق القوانين الشرعية والقواعد الدينية، فإذا طابقها كان حجة عليه، ولزمه العمل به، علم أنه حجة أو لم يعلم إن ذلك الحال لا يسع جهله.

وإن كان الملهم عالماً مجتهداً؛ فغالب أحواله لا يكون الإلهام في حقه إلا في قضية لا يوجد لحكمها نصّ ولا إجماع، وعلى هذا ينبغي أن يكون الإلهام في حقه هو الاستحسان)[1].

ومن جعل الإلهام حجة في العقليات كأبي محمد ابن بركة وأبي سعيد الكدمي؛ فإنما لأن العقل قادر على إدراك الحجج العقلية بناءً على ما جبله الله تعالى عليه من التمييز بين الحق والباطل، لا على ما قد يتوهمه البعض من اطلاعه على الغيب بإلقائه إليه، فهذا لا يكون إلا في الوحي للأنبياء فحسب، ألا ترون أن الله تعالى مع هدايته أم موسى أن تضع ابنها موسى في سرير على البحر ظل فؤادها معلقاً، لأنها لا تعلم أين سيكون مآله عليه السلام، مما استدعاها أن ترسل أخته فتقصه لها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

١ المرجع السابق ج٢ ص١٨٨.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ القصص: ٧-١١.

إن كان هذا بالنسبة لأم موسى؛ وهو -حينها- نبي منتظر، وقد صنعه الله تعالى على عينه، أي أن موسى وهو يتقلب في اليمِّ كان في حفظ الله وتدبيره ورعايته، حيث قال تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ طه: ٣٩، إن كان هذا لأم موسى فمن الأولى أن غيرها من الخلق لا يعلم الغيب عن طريق الإلهام أو غيره، طبعاً إلا الإنبياء عن طريق الوحي وحده.

وقد قال ابن بركة والكدمي بالإلهام، إلا أنه لا يعني عندهما البتة أنه علم الغيب، وإنما هو حركة التفكر العقلي، و(بيان مذهبهما: أن الإمام أبا سعيد رضي الله عنه أوجب على مَن قامت عليه حجة وجوب الصلاة ولم يجد من يعبِّر له كيفيتها؛ أن يؤديها على ما حسن في عقله، وأن الإمام ابن بركة أوجب على صاحب الجزيرة الذي لم يبلغه شرع؛ أن يترك ما قبح في العقل فعلُه، كذبح الحيوانات مثلاً، فإنها حيوان مثله)[1]، هذا حقيقة مذهبهما في الإلهام، وليس كما تصوره البعض من أنه التقول بعلم الغيب، على غرار "حدثني قلبي عن ربي"[2].

ويعطي الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مزيداً من التوضيح لمفهوم الإلهام عند الشيخين أبي سعيد وابن بركة وحقيقته، وأنه لا يخرج أبداً عن كونه عملية عقلية لا علاقة لها بعلم الغيب، أو التحديث عن الله تعالى غيباً، فيقول:

---

١ السالمي "مشارق أنوار العقول" ص٧٠.

٢ انظر: "ندوة الفقه الإسلامي" ص٧٦٨-٧٦٩، المنعقدة بجامعة السلطان قابوس ١٤٠٧هـ- ١٩٨٨م.

(الإمام أبو سعيد يقول: في الرجل الذي قامت عليه الحجة الشرعية بأن عليه فرضاً معيناً، في وقت معين، كصلاة الظهر مثلاً، ولم يكن يجد مع قيام هذه الحجة مَن يعلّمه حكم هذه الصلاة، أو لم يجد مَن يعرّفه القبلة، أو يعرّفه ركعات الصلاة، كمَن قامت عليه الحجة وهو بمعزل عن الناس، ولا يمكنه التوصل إلى معبِّر، فهو في هذه الحالة ما دامت الحجة قائمة عليه بوجوب هذه الصلاة في هذا الوقت المحدد، وسيمضي الوقت من غير أن يجد المعبِّر، وذلك في المسلم الذي يسلم لأول مرة مثلاً؛ عليه أن يؤدي الصلاة كما أرشده إلى ذلك عقله، حتى لا يضيع الوقت، إلى أن يجد المعبِّر.

ثم ذكر وجهين بعد ذلك إذا وجد المعبِّر وقال له أخطأت:

— فهل يقال: إنه بمضي الوقت عليه؛ ليس عليه أن يعيد صلاته.

— أو عليه أن يعيدها بعد مضي الوقت، لأنه أخطأ في تأديتها.

ذكر الوجهين، والوجهان ينبنيان على قولين في أصول الفقه، هل الأمر بالقضاء هو نفس الأمر بالأداء، أو يحتاج القضاء إلى أمر ثانٍ غير الأمر الذي لزم به الأداء.

والإمام ابن بركة يقول في الشخص الذي يوجد في جزيرة منقطعاً عن الناس، ثم انقدح في ذهنه بأن هذا الشيء لعله حرام، فتردد بين حِلِّيَّة الشيء وحرمته، قال:

في هذه الحالة يترك ما اقتضى العقل تركه، حتى ولو كان حلالاً في الشرع، لكن في ذلك الوقت لم يجد الحجة على الحِلِّيَّة، وذلك كأن ينقدح في ذهنه بأن ذبح الحيوان إيلام، وأن الإيلام لا يجوز، ففي مثل هذا الحال لا حرج عليه إن ترك ما يجوز له شرعاً تديناً، لأنه لم يجد الحجة الدالة على الجواز، فإذا وجد الحجة الدالة على الجواز فعليه أن يعتقد الجواز، وأن يرجع عما انقدح في ذهنه)[1].

---

١ أحمد بن حمد الخليلي، بتصرف غير مخل، انظر: "ندوة الفقه الإسلامي" ص٧٨٣.

وقد يأتي الإلهام بمعنى توفيق الله وتسديده في الأمور، وهذا معلوم، إذا لا يحدث شيء في الوجود إلا بتوفيق الله جلّت قدرته، وهذا أيضاً لا يمت بصلة إلى معرفة الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وضربوا على ذلك مثلاً بمَن يطلب العلم، فشخص لتوفيق الله له نتيجة منحه إياه الاستعدادات العقلية؛ يوفق إلى تحصيل العلوم، وسرعان ما يستطيع استثمارها، والبناء عليها، سواء بالتقعيد والتأصيل، أو التفريع، أو التحليل والنقد، أو التوصل إلى قضايا علمية جديدة كالاختراع والاكتشاف ونحوه، وهذا طبعاً يكون في العلوم الشرعية وغيرها، وشخص آخر لم يمنحه الله تعالى هذه الاستعدادات فيبذل جهده المتواصل في طلب العلم، فلا يتمكن من تفعيله والاستفادة منه، وهذا أمر مشاهد كثيراً، ولكن شتان بين هذا المعنى والفهم الخرافي للإلهام بحمله على معرفة الغيب.

وقد تجادل —وإن كان من غير مناظرة بينهما— في هذا المفهوم للإلهام الشيخان: ابن بركة وأبو سعيد الكدمي، ولم يحمله أحدهما على علم الغيب كما وضح ذلك الشيخ السالمي عندما قال:

العلم إلهام من الحميد ... في مذهب الشيخ أبي سعيد
وعنده التعلم كالنبات ... للنخل للتلقيح والنبات
وخالف الشيخ أبو محمد ... فقال بالجد ينال فاجهد
ولا أرى الخلاف في ذا الباب ... يفضي لغير اللفظ والخطاب
فليس للجد بنفسه أثر ... من غير توفيق وإلهام صدر
ولم يكُ الإلهام دون كدٍّ ... في الشرع ينفعن لمستعد
فكل واحد من الشيخين ... جاء بوجه وهو ذو وجهين
وإن نقَل خلافهم فيمَ الأهم ... من ذين فالأهم إلهام الحكم
كم قد رأينا من فتى مجتهد ... وهو بباب منه لمّا يسعد

وآخـــر لم يقـــرا إلا البعـــضا وهــو يفــض المـشكلات فـضا[1]

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى بطلان ما يسمى بـ "التليباثي"، وهو التخاطر أو التخاطب بين الناس عن بُعد بغير ما يقتضيه الواقع والعلم، فما هذا إلا ضرب من ضروب الخرافة التي لا تثبت أمام الحقائق، وإن حاول مروجوها بهرجتها بأساليبهم التي يزعمونها علمية.

هذا؛ وقد جرّ الإلهامُ –بمعنى علم الغيب– القائلين به إلى مزالق عقدية خطيرة؛ من ذلك:

– نسبة علم الغيب إلى البشر؛ ولا سيما العلماء والأئمة، وهذا ضلال عقدي مرفوض شرعاً، مثال ذلك ما نسب خطأ إلى الإمام محمد بن عبدالله الخليلي أنه كان يعلم ما في قلوب الآتين إليه، فقد روي أن الله تعالى أعطى (الإمام محمداً سرَّ التوسم والحدس، فإذا دخل عليه الزائر نظر إليه فاستخرجه بتوسمه ما أكنّه بين يديه، فعبّر له عن فكره قبل أن يتفوه الزائر بمراده، بعبارة وجيزة لا يحسنها الزائر، وأعرب له عن قصده الذي جاء إليه خيراً أو شراً، فيتحقق بعدها صدق حدسه)[2].

– نسبة سوء الخلق إلى العلماء الأفاضل، وكذلك نسبة الجور إلى الأئمة العدول، ومثال ذلك هذه الرواية التي تبرر الجور الذي نُسب خطأ إلى الشيخ عبدالله بن حميد السالمي في حضرة الإمام سالم بن راشد الخروصي بأنه من الإلهام بالغيب: (كان الشيخ السالمي جالساً بجنب الإمام سالم ذات مرة، فجاءه رجل ووقف عليهما، فقال: أيها الإمام. فصفعه الشيخ السالمي صفعة داخ منها رأسه، فخرج بائساً.

فسئل الشيخ: لِمَ ذلك؛ والرجل لم يفعل ما يستحق تلك الصفعة منك؟.

١ السالمي "*جوهر النظام*" ج٤ ص ٥٤٤–٥٤٥.

٢ الأغبري "*الكرامة لأهل الحق والاستقامة*" ص١٠٥.

قال: تلك الصفعة رحمة له، وإلا سيجلده الإمام ثمانين جلدة، فأيهما أخف؟.

يعني أن الرجل جاء ليقذف رجلاً بالزنى.

فسئل الرجل بعد ذلك عن غرضه من الذهاب إلى الإمام فقال: أردت أن أخبره عن فلان أنه زان.

فسبحان الله من أين عرف الشيخ ذلك إلا كرامة من الله!!)[١].

– ظهور الأدعياء والزنادقة، حيث إن فتح باب القول بالإلهام الغيبي يؤدي إلى أن يلج هذا الجانب كل من لديه غرض في دفينة نفسه يريد أن يحققه؛ ولو كان هذا الغرض فاسداً، كما يعطي المبرر لتصفية الخصوم بنسبة الإلهام الشيطاني إليهم، انظروا إلى هذه الرواية الغريبة لتحكموا بمدى البعد عن هدي الإسلام على مثل هذه الإدعاءات، فجاء في ترجمة محمد بن جمال الدين الذي (حكم القاضي المالكي بضرب عنقه مدة بعد أخرى لثبوت أمور فظيعة وكلمات شنيعة، فتغيب عن دمشق وأقام بمصر بالجامع الأزهر، وتردد إليه جماعة، وكان الشيخ صدر الدين يتردد إليه ويبهت في وجهه ويجلس بين يديه، وكان يرُي الناس بوارق شيطانية، وكان له قوة تأثير وشهد عليه أيضاً بما أبيح دمه به منهم الشيخ مجد الدين التونسي، وكان أولاً فقيهاً بالمدارس، ثم حصل له كشف شيطاني فضل به جماعة وكان يتنقص بالأنبياء ويتفوه بعظائم)[٢].

– فتح باب الوحي بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يستلزم القول بأن الشريعة لم تختم به عليه السلام، بل ظل باب الزيادة في الشريعة عنده مفتوحاً على مصراعيه إلى قرون لاحقة، وهذا مخالف لما هو معلوم من الدين بالضرورة؛ وهو ختم الرسالة

---

١ المرجع السابق ١٤١–١٤٢.

٢ ابن العماد الحنبلي "شذرات الذهب" ج١ ص٢٨٦.

واكتمال الدين وانقطاع الوحي الإلهي بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد روي عن أحدهم قوله: (الفرق بين الرسول والنبي والإمام.

أن الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل فيراه، ويسمع كلامه، وينزل عليه الوحي، وربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم.

والنبي ربما سمع الكلام، وربما رأى الشخص ولم يسمع.

والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص)[1].

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة، ونرجع القارئ الكريم إلى مبحث الكرامة فقد أتينا هناك ببعض الأمثلة التي تصبُّ في هذا الجانب.

ونخلص من كل ذلك؛ أن ما يسمى بالإلهام الذي يعتقد فيه بعض الناس أنه علم بالغيب؛ هو خرافة تتعارض مع محكمات هذا الدين ونصوص الكتاب العزيز وسنن الله الجارية في الوجود، وعلى المسلم أن يطهِّر إيمانه من مثل هذا المعتقد الفاسد.

---

١ الكليني "أصول الكافي" ص١٠٧.

٤. عالم السحر[١]

السحر فن استخدمه الإنسان منذ القدم، وكان استخدامه له بسبب ما يرى حوله من أسرار (=قوانين) تحرك الطبيعة لم يستطع أن يفقهها.

فالشمس تشرق من جهة واحدة وتغرب في الجهة المقابلة، ولكنها تارة حارقة، وفي أخرى لا تكاد تحس بها، وعندما تطلع تصبح ضاحة في الأشياء فيبصرها الإنسان، وعندما تغيب تختفي تلك المرئيات عن أعين الناس.

والهواء يكون في حالة ساكنة، وفي أخرى مسترسلة، وفي ثالثة عاصفة مدمرة، وهو أيضاً بين ريح قارسة وسهوب حارقة.

والأرض بينما هي في طبيعتها الأصلية ساكنة راسخة؛ إذا بها تتحول إلى هياج مدمر.

والبحار والأنهار تقل الإنسان على ذات ألواح ودسر، كأنما هو في سرير نومه ينعم فيه بالتأرجح الهادئ، فإذا بالماء يهيج فيقذفه ذات اليمين وذات الشمال لتلتهمه جوارح اليمّ.

وهكذا قل ما شئت في مناحي الطبيعة المختلفة.

لم يكن الإنسان آنذاك يفقه القوانين التي تحرك هذه القوى الطبيعية، وكان يشعر تجاهها برهبة عظيمة تثير في نفسه الخوف منها.

(لقد رأى الإنسان القديم مثلاً من ظواهر الطبيعة أموراً حيّرته أشد حيرة، فأثارت مخاوفه، وشحذت خياله، ومن ثم فقد بدأ في استنباط تفسيرات تتلاءم وإدراكه البدائي

---

١ قد تكلمنا سابقاً عن بعض جوانب السحر، ونفصل هنا الكلام فيه، وقد تعمدنا تكرار بعض ما ورد سابقاً كالتعريف والتقسيم ونحوه، لترابط الموضوع من جهة، ومن جهة أخرى لأن هذا الموضوع راسخ بقوة في أذهان الناس، فالتكرار فيه قد يفيد في قلع تلك التصورات الساذجة من هذه الأذهان.

أو البسيط، ومن هذه التفسيرات الخاطئة للظواهر الكائنة نبتت الخرافات، وترعرعت الخزعبلات، وانتشرت الأساطير في كل المجتمعات.

إذ مما لا شك فيه أن الإنسان القديم –وحتى إلى عهد حديث نسبياً– قد اصطدم بظواهر طبيعية وبيولوجية وفلكية كالتي نراها في عصرنا الحاضر، فرأى رياحاً تزمجر، وبرقاً يلمع، ورعداً يجلجل، وصواعق تشعل النيران في الأشجار والغابات فتحترق وتدمر، وسحباً تنطلق وتمطر، ومياهاً تندفع كالطوفان فتكتسح وتُغرق، ثم إذا بالأرض –بين الحين والحين– ترتجف بين قدميه في زلازل تهزه هزاً، فتشق الأرض وتدمر الجبال، وإذا ببركان يثور هنا وهناك، فيلقي من جوفه حمماً وسعيراً، تتصاعد أدخنته إلى عنان السماء.

كل هذه الأمور وغيرها لا ريب في أنها أفزعته وأخافته، وطبيعي أنه لا يستطيع أن يدرك مغزاها ومعناها كما ندرك نحن ذلك في أيامنا الحاضرة، ومن هنا تجسدت في خياله قوى أسطورية أكبر منه وأعتى، فأرجع ما رآه إلى آلهة وأشباه آلهة تمسك بمقاليد الأمور، وتتحكم في الأمطار والبرق والرعد والزلازل والبراكين والرياح... إلخ.

ومن ثم فقد اخترع لكل ظاهرة من هذه الظواهر إلهاً، فكان إله البرق، وإله الرعد، وإله النيل، وإله الخصب... إلخ)[١].

فكان من حكمة الله أن أرسل رسله عليهم السلام ليبيِّنوا للناس أن وراء هذه القوى خالقاً خلقها ومدبراً يدبرها هو الله تعالى، وأن الواجب تجاهه هو عبادته حق العبادة، والرهبة منه والرغبة إليه، وليس كما تصور الإنسان من خرافات الآلهة وأساطير الأوثان.

---

١ عبدالمحسن صالح "الإنسان الحائر بين العلم والخرافة" ص٧–٨.

وبما أن الإنسان قد غرس فيه ربه جلّ وعلا حب الاستطلاع وفضول الاكتشاف فإنه سعى جهده إلى معرفة تلك الأسرار المحركة لهذا الكون، وما توصل إليه –رغم قلته وبساطته في البداية– كان يستغله في حركة حياته، كالألواح في ركوب الماء، والدواب في ركوب البيداء.

وقد ركّب الله في الإنسان قدرة على اختيار الخير أو الشر، وجعل نوازعهما تتجاذبه نحوها، فأرسل إليه سبحانه رسله ليهدوه إلى الحق الموصل إليه تعالى، وعلى مقتضى اختياره الحر كان جزاؤه، قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان: ٣، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزلة: ٧-٨.

والدين الحق كما هو معروف جاء منسجماً مع طبيعة الحياة، وضابطاً لحركة الإنسان فيها؛ حتى لا يسقط في بؤر الانحراف، ويغرق في مستنقعات الفساد، فالدين ملازم تمام الملازمة للحياة كما أرادها الله، قال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٣٠.

وفي مقابل هذا الدين المتلازم مع الطبيعة المسدِّد للإنسان عليها والمثبِّت لنوازع الخير فيه، في مقابل ذلك كانت تتحرك في الوقت نفسه نوازع الشر في هذا الإنسان، فأخذ يفسر حركة قوى الكون وفق هواه.

والهوى لذاته لا يقبل، إذ إن الشيء لا يكتب له القبول عند الناس إلا إن ظهر صدقه.

فالدِّين الحق صدقه في توافقه التام مع هذا الكون الذي خلقه الله ومع سننه ونواميسه، فصدقه ذاتي حقيقي.

وحتى يجد الهوى طريقه إلى الناس كان لابد له أن يتلبس في ظاهره بالصدق مراءاة لأعينهم وخداعاً لنفوسهم، ولما كان فاقداً لذلك من ذاته لجأ إلى الخرافة والتدليس والإيهام، لأجل إبهار الناس بصدق وهمي لا حقيقة له على أرض الواقع.

وتطورت الخرافة شيئاً فشيئاً كغيرها، حتى أصبحت ساحرة لأعين الناس ونفوسهم، وظنوا أنها الحق، فاتخذوها ديناً من دون الدين الحق المتوائم مع سنن الله الطبيعية، والمنسجم مع حركة الكون، والكاشف لقوانينها، واتخذوا سدنة الخرافة والسحر كهاناً للمعابد الوثنية، وعبدت الطبيعة بكواكبها ونجومها وبحارها وأنهارها من دون الله.

بل وصل الأمر إلى أن اتخذ على مرور الأيام هؤلاء الكهنة آلهة يعبدون من دون الله، فكُفر به تعالى وبأنبيائه المرسلين، واحتدم الصراع بين النبوات وبين الخرافة والسحر، وبين الأنبياء وبين الكهنة، أنبياء الله ينتصرون للحقيقة وحدها؛ حقيقة أن الكون مخلوق لله ومسخر للإنسان، وأن سننه تعالى وقوانينه في هذا الكون دالة عليه، وإنما على الإنسان أن يستخدم عقله لرؤية ذلك، ويزيح عنه غين الوهم وخلابه البراق، وبين الكهنة الذين نصبوا أنفسهم آلهة بالأساطير والخرافات التي تبعد العقل عن طريق العلم والفهم.

فإذن العلم والفهم ومعرفة سنن الله وتسخيرها لإحسان عبادته والتقرب إليه هي طريق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

والخرافة –ومنها السحر– هي بقايا الوثنية القديمة التي تتجدد كل وقت ببريق الخداع والمراوغة، حتى أنها في بعض صورها ألصقت بالدين، كجعل الله شبيهاً للإنسان أو جعل الإنسان شبيهاً لله تعالى اسمه وتقدس ذكره، كإضفاء قدرات إلهية على المخلوقين.

ولما كان السحرة بارعين في إيهام الناس بأنهم قادرون على أن يغيّروا من طبيعة الأشياء كيفما أرادوا ومتى ما أرادوا، وجدوا تشجيعاً منقطع النظير من الحكام الوثنيين، لأن

السحر يضفي على ملكهم هالة من القداسة الموهومة الخادعة، فهو يجعل الملك متصفاً بشيء من صفات الألوهية وهي القدرة على تغيير الأشياء، وتخليقها، وتكوينها بحسبما يشاء، ولذلك كان السحر مما عُني به الفراعنة، لأنهم وجدوا فيه بغيتهم لادعاء الألوهية، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ الأعراف: ١١١-١١٤.

فهكذا تلاحظون أن فرعون كان يحشد في بلاطه السحرة من أصقاع مملكته، يفعل ذلك وهو مدعٍ للألوهية، ويظن أن موسى عليه السلام مثله في ذلك، جاء ينافسه على هذا المنصب، وكان ينظر إلى الآيات الباهرة التي يجريها الله على يديه على أنها من جنس السحر، ولا يرى فارقاً في موسى إلا أنه ينسب ذلك إلى إله هو رب السموات والأرض ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ الشعراء: ٣٤-٣٥، ففرعون يخلط بين السحر الذي لا تأثير له إلا الخداع وبين قدرة الله التي تعمل على تغيير الأشياء حقيقة لا وهماً.

والخطورة في اعتقاد أن السحر له تأثير هي إضفاء فعل من أفعال الله وهو القدرة على تغيير الأشياء حقيقة وخلقها إبداعاً إلى الساحر، وهذا لا يجوز شرعاً، ومستحيل عقلاً.

وفي وقتنا هذا ؛ وقت العلم والاكتشاف لسنن الله لا زالت بعض وسائل الإعلام كالكتاب والتلفاز تتبنى صوراً من هذه الخرافة والسحر لتروج لها ولتأكل أموال الناس وتضلهم عن الصراط المستقيم، وأسوأ هذه الوسائل تلك التي تتمسح بمسوح الدين فتأكل أموال الناس سحتاً بغير حق ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ البقرة:١٨٨ ، فلا ندري كيف سيقابل أصحاب هذه الكتب والوسائل ربهم جلَّ وعلا وهم خاسرون بضلالهم وإضلالهم؟!

تعريف السحر وأصنافه

السحر في اللغة: تزيين الشيء بخفاء ليكون مؤثراً نفسياً على السامع أو الرائي بطريق لا يحس به، قال عليه الصلاة والسلام: (وإن من البيان لسحرا)[1].

وهذا هو مفهوم السحر فقد عرّفه صاحب "الإبانة" بالخديعة، أي أنه لا حقيقة من ورائه، فقال: (السحر: الخديعة، وفلان يسحر بكلامه: أي يخدع، ومنه ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الشعراء:١٥٣ أي من المخدوعين، وقيل: من المعللين.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ المؤمنون:٨٩ أي من أين تخدعون...

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ الاسراء:٤٧ أي مخدوعاً، لأن السحر خديعة وحيلة...

والناس يقولون: سحرتني بكلامك. أي خدعتني)[2].

---

١ الربيع (٣٨).

٢ العوتبي "الابانة في اللغة العربية" ج٣ ص٢٢٢-٢٢٣.

إذن السحر هو التخييل والإيهام والخديعة بأشياء تظهر للمشاهد على غير حقيقتها، يقول الإمام اطفيش: (والسّحر هو كل فعل يخيل الشيء لناظره على غير حقيقته)[١].

وأما أصناف السحر فقد اختلف فيها، فقسّمه المفسر الطاهر بن عاشور في "التحرير والتنوير" إلى ثلاثة أقسام، بينما الشيخ ناصر بن أبي نبهان يرى أنه أربعة أنواع، وجعله الفخر الرازي في تفسيره ثمانية أقسام، وللعلماء الغربيين تقسيمات أخرى، وبعد الاستقراء والتتبع وجدناه لا يخرج عن صنفين اثنين، وهما اللذان ذكرهما القرآن المجيد:

▪ الصنف الأول:

أعمال الخفة التي تظهر الأشياء على غير حقيقتها، وتكون وفق قوانين خفية وممارسات دقيقة صارمة لا يتقنها إلا القليل من الناس، قد تهيأت نفوسهم لذلك، مثل ألعاب السيرك والفهلوة؛ كأن يظهر تحول المنديل إلى حمامة، أو يدخل رجل في صندوق فيظهر خارجاً منه على أنه امرأة، ومثله ما فعله سحرة فرعون من إيهام الناس بتحويل العصي والحبال إلى ثعابين تسعى.

يقول الشيخ ناصر بن أبي نبهان: (وما يفعله الساحر به في عيون الناس فيريهم الحبال والعصي كأنها حيات تسعى، ويريهم البعرة كأنها جوهرة حسنة، كذلك يأتي على هذه العين المدبرة، وتخيل لها الأشياء الذميمة حسنة في رؤيتها لها حتى تميل إليها وتقبل عليها، فكما يخيل في الظاهر للعيون سحراً وهو في الحقيقة غير مستحيل عن أصله، كذلك يخيّله لها في الباطن ويعلمها التخيل، ولها قوة على ذلك بالتعليم، كما أن للصبي قوة على الكتابة إذا تعلّمها، وإن لم يتعلّمها لم يعرف)[٢].

---

١ محمد بن يوسف اطفيش "شرح النيل وشفاء العليل" (ج٦/ق٢) ص ١٥٨.
٢ السعدي "قاموس الشريعة" ج٣ ص٣٩٥-٣٩٦.

■ الصنف الثاني :

التأثير النفسي بالكتابة أو النفث أو القراءة، ككتابة الطلاسم والأوفاق، أو النفث في العقد، أو قراءة الطالع والكفِّ والفجان.

وهذا النوع يعتمد على الخور النفسي لدى المعمول له ؛ أي المسحور، فإذا كانت النفس متهيئة لتصديق ذلك، ومتهيبة من عمل الساحر، فإنها تنهار بسرعة شديدة، وأما إن كانت تعرف أنه ليس وراء هذه الأمور أية حقيقة فإنها لا تتأثر أبداً، لأن هذه الأمور كلها ليس لها تأثير يصدر عنها.

وهذا الصنف من السحر هو أبسطها وأوهنها حيث يعتمد على سذاجة المعمول له، لذلك اكتفى القرآن الكريم بأن يوجه المؤمنين للتخلص من هذه النوازغ الشيطانية والوساوس الإبليسية إلى الاستعاذة به، ليشعر المؤمن أن هذه الأمور كلها باطلة، وأن الله هو الملاذ الأول والأخير في كل الأحوال، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف: ٢٠٠.

وعلى ذلك فإن للسحر بنوعيه تصوراً خارجياً وهمياً، وليس له أي حقيقة داخلية، أي أن الساحر يعمل عمله المحكم في إبهار المشاهد أو المعمول له ؛ أي المسحور.

ففي الصنف الأول: يوهمه بأشياء مخالفة لقانون الطبيعة كإيهامه بتحول الطحين إلى ماء بمسحة يد، فيراها المسحور كأنها حقيقة مشاهدة ؛ وهو ما أسميناه بالتصور الخارجي، بيد أن في واقع الأمر وعند من يتقن السحر ما هو إلا توهيم وتخييل لا حقيقة له، وهو ما أسميناه بالحقيقة الداخلية.

وقد سئل ابن بركة البهلوي عمن قال: إن الجن يراهم بنو آدم ويكلمونهم، وأن السحرة ينقلبون حماماً، فقال: (من تاب ورجع عن قوله هذا وإلا بُرئ منه)[١]، وما هذا التشديد من ابن بركة إلا لأجل أن السحر لا حقيقة له.

وقال محمد بن علي بن عبدالباقي:

ومعتقـدٌ أنـي أرى الجـنَّ جهـرةً وأسمـع مـنهم نطقَهـم وكلامـا
وأنَّ أُولي السحرِ القبيح تصوروا ويَنقلبـوا جَهـراً هنـاك حمامـا
فـنـبرأُ منـه عنـد ذاك وإننـا إذا لم يكن يجعله هناك ظلاما[٢]

ونظم القاضي محمد بن شامس البطاشي كلام ابن بركة فقال:

من قال إن الجن قد يراهم أبنـاء آدم يكلمـوهـم
وإنما الساحـر قـد ينقلب حمامـة فالتوب فيه يجب
فإن يكن مـا تاب مما قالا فإنه يبـرأ منـه حـالا[٣]
ومثـل قـول لأبي محمد فكهذا للشافعي الأمجد[٤]

وقد وقف كثير من الفقهاء على هذا الأمر جلياً فعرفوا أنه لا حقيقة وراء السحر، ونقلوا عمن تفطن لذلك فضح أساليب السحرة، (قال الشيخ حبيب بن سالم: يروى أن مالك بن الحارث الأشتري رحمه الله رأى مقمراً[٥] سحر أعين الناس، يريهم كأنه يدخل من

---

١ الأصم "النور" ص ٤٦٨.

٢ السعدي "قاموس الشريعة" ج٦ ص ٣٣٠.

٣ محمد بن شامس البطاشي "سلاسل الذهب" ج١ ص٤٠٢.

٤ المرجع السابق ج١ ص٤٠٣.

٥ المقمر هو الساحر، لأن القمار هو السحر أو جزء منه.

حياء الناقة[١] ويخرج من فمها، ويدخل من فمها ويخرج من حياها، وهو يراه من بعيد لم يفطن به ليسحره، ورآه يمشي بحذاها[٢]، قال للناس: إنه لم يدخل من حياها ويخرج، بل يمشي إزاها وحذاها)[٣].

وفي الصنف الثاني: يتوهم المعمول له "المسحور" نتيجة ضعف عقله وخور نفسه وسذاجة تفكيره، بأن الكتابة أو النفث أو القراءة لها حقيقة تؤثر عليه، تتسرب من عمل الساحر إليه، بالتفريق بينه وبين قريبه أو حبيبه، أو تولد لديه الأمراض كالصداع أو مرض القلب أو الضغط أو الزكام، أو تصده عن أشياء واجبة عليه أو محببة إليه، كصدِّه عن الصلاة والصيام وقراءة القرآن والدراسة وزيارة الأرحام والأقارب والأصدقاء، أو تظهر له على هيئة أشياء لا تظهر واقعاً، كأن يرى ميتاً، أو يرى جنياً، أو يرى ناراً تشتعل في بيته، ونحو ذلك.

فهذه كلها ليس لها وجود حقيقي أبداً من عمل الساحر، فهي إما أن تكون بأسباب طبيعية كالأمراض الجسدية التي يجب أن يرجع فيها إلى الأسباب الطبية التي جعلها الله تعالى، أو الخصومات الاجتماعية المولدة للأمراض النفسية عادة والجسدية أحياناً، والتي يجب أن يُرجع فيها إلى المصلحين لذات البين وإلى الأطباء النفسانيين.

أو هي وهم لا حقيقة له كرؤية الأموات.

أو لحدوثها أسباب خفيت على الإنسان كاشتعال النيران.

أو هي موجودة لكن الله سترها عنا ولا تظهر، كمن يتوهم أنه يرى الله تعالى عن ذلك وتنزه أو الملائكة أو الجن، وهذا مرجعه إلى المشافي النفسية.

---

١ حياء الناقة: دبرها.

٢ أي بجانبها.

٣ مهنا البوسعيدي "لباب الآثار" ج٦ ص٤٣٣-٤٣٤.

وفي كتاب "المصنف" ذكرت مسألة مضمونها أن رجلاً استرقى لامرأة حتى صرف وجهها إليه ورضيت بصداق أقل مما يكون لمثلها، فقال أبو الحواري تعليقاً عليها: (إن كانت المرأة تعرف الغُبن من الربح، والصلاة والصيام، وعقلها ثابت، فجائز عليها ما فرضت لنفسها، وهذا الرقى والقبلة معنا باطل وليس بشيء)[1] والرقى والقبلة في السياق هي ما يتخذ للتحبيب من كتابات أو طلاسم، وهذه هي ما عناها أبو الحواري بقوله: إنها باطلة وليست بشيء، أي لا تأثير لها في ذاتها، فهي مجرد حروف ورسوم وطلاسم لا تحمل نفعاً ولا ضراً لأحد.

طبيعة السحر بين موسى وسحرة فرعون

كانت الملاقاة الشهيرة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون هي التي كشفت حقيقة السحر وماهيته، والقصة كما حكاها القرآن الكريم؛ بأن السحرة ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ الأعراف:١١٥ فأجابهم موسى ﴿أَلْقُوا﴾ الأعراف:١١٦، وكانت النتيجة ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف:١١٦، فما قام به السحرة هنا ليس حقيقياً إنما هو خداع للأبصار بطريقة ما من طرائق السحر لم يذكرها لنا القرآن ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ طه:٦٦، ولأن السحر تخييل وخداع للأبصار كانت آية موسى الحقيقة التي كشفت ألاعيب السحرة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ الأعراف:١١٧-١١٩ انظروا في جملة التعبيرات القرآنية:

– حبال السحرة وعصيهم كانت خيالات وأوهام شأنها شأن ألعاب السيرك والفهلوة.

١ أحمد بن عبدالله الكندي "**المصنف**" ج٣٢ ص٢٢٦.

– عبَّر القرآن عن السحر الذي قام به السحرة ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي؛ فإذا هي تلتقم وتبتلع ما يسحرون كذباً وباطلاً، وعبَّر عنها أيضاً ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي؛ وبطل ما كانوا يعملون من إفك السحر وكذبه ومخايله[١].

– آية موسى عليه السلام حقيقية لا تخييل فيها ولا خداع للأبصار، وأول من أدرك هذه الحقيقة السحرة عندما رأوها، فهم بحكم تعاطيهم للسحر لا تنطلي عليهم ألعاب السحر التخييلية، لكنهم تفاجأوا بعصا تتحول إلى حية تسعى حقيقة لا خيالاً ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف:١١٨-١٢١، فالسحرة أدركوا أن السحر مهما بلغ شأوه لا يمكن أن يحوِّل العصا إلى حية، أو يقلب البشر إلى حمام كما يقول ابن بركة، وإنما غاية ما فيه هو الخداع والتخييل.

وكثير من الناس اليوم من عامتهم وخاصتهم يؤمنون بسحر يمكن السيطرة به على مقدرات الكون، ويقولون: إنه مثبت في القرآن الكريم، بينما القرآن لا يعطي السحر سوى مفهوم الخداع والتخييل البصري لا أكثر ولا أقل، وهذا لمن وعى معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ يونس:٧٧، وقوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ طه:٦٩.

القرآن يقول لنا: إن الساحر لا يفلح حيث أتى، لأن ما يقوم به لا حقيقة له في ذاته، فهو خداع وتخييل.

بينما البعض منا يقول: لا؛ إن الساحر بسحره قادر على فعل كل ما يريد.

---

١ انظر: *تفسير الطبري* ج٩ ص٢١-٢٢.

أليس هذا بُعداً عن هداية القرآن؟!.

والقرآن جاء ليبيّن لنا صراحة أن السحر لا أثر له البتة؛ اللهم إلا خداع الناس وتضليلهم، وقد فضحهم الله تعالى بآية موسى عليه السلام، كما عرّاهم التعرية الكاملة في محكم آياته.

وبعضنا يقول: لا، القرآن جاء ليثبت أن وراء السحر حقائق قادرة على تغيير الأشياء والتأثير في الخلق!.

فما أبعد ما بين السبيلين:

سبيل الرحمن الواضح في الكتاب المبين الذي يجعل الإنسان سوياً مطمئناً مستقر البال، لا تؤثر عليه الخزعبلات والشعوذات.

وسبيل الشيطان الذي استقر في النفوس الخائرة المضطربة التي ترتعد جبناً وتأنُّ سذاجة وغباءً من مجرد ذكر كلمة السحر.

فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الملك: ٢٢.

أوهام السحر

ومن هنا يجب على من يجد في نفسه اضطرابات أن يسعى إلى العلاج الطبيعي الجسدي أو النفسي أو كلاهما معاً، ليطلب العلاج حسب سنن الله في خلقه، وأما اللجوء إلى العرافين والكهان وأمثالهم من الأدعياء –ولو أنهم لبسوا لبوس الدين وتزيّوا بزيّ الصالحين– فهو إثم مبين حذّر الشارع الحكيم منه، وما أكثر هؤلاء المخادعين الذين

نراهم يتمسحون بأهداب الدين، وينتسبون إلى الصلاح، وبعضهم قد تخرج من المدارس الشرعية، بل ربما رأيت العمائم تعلو رؤوسهم، وفي الصف الأول من المساجد تخفق جباههم، ومن هؤلاء من يفتح مكاتب لخداع الناس وأكل أموالهم بالباطل، ويقولون نحن لا نكتب إلا آيات من القرآن، وكل هذا دجل باسم الدين، إذ هذا ليس من وظائف القرآن الكريم في شيء أبداً، ومنهم من يفعل ذلك في بيته فيأتيه الناس من كل فج عميق، ومنهم من يظهر على قنوات التلفزة، فيسحرك بلسانه المعسول، لتحسبه من الدين، وما هو من الدين، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران:٧٨، بل هناك مَن ينشئ القنوات الفضائية للترويج للخرافة باسم الدين، يقول محمد رشيد رضا صاحب المنار: (وإنك لترى دجاجلة المسلمين إلى اليوم يتلون أقساماً وعزائم، ويخطون خطوطاً وطلاسم، ويسمون ذلك خاتم سليمان وعهوده، ويزعمون أنها تقي حاملها من اعتداء الجن ومس العفاريت)[١].

ويقول أيضاً: (وإننا نسمع الدجاجلة الذين ينتحلون مثل هذا، ويوهمون الناس أنهم روحانيون، ويقولون لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض: نوصيك بأن لا تكتب هذا لجلب امرأة متزوجة إلى حب رجل غير زوجها، ولا تكتب لأحد الزوجين بأن يبغض الآخر، وأن تخص هذه الفوائد بالمصلحة كالحب بين الزوجين، والتفريق بين العاشقين الفاسقين.

---

١ محمد رشيد رضا "تفسير المنار" ج١ ص٣٩٨.

وإنما يقولون هذا ليوهموا الناس أن علومهم إلهية، وأن صناعتهم روحانية، وأنهم صحيحوا النية، وقد كان اليهود يسندون سحرهم إلى ملكين ببابل، وترى دجاجلة المسلمين... يسندون خزعبلاتهم إلى دانيال النبي)[1][2].

(فالصحوة الآن أصيبت بغبش التصور عند الكثير من الناس، فاستأسر خاصة الناس فضلاً عن عامتهم بهذه الأوهام، ووجدنا الناس الآن إذا أصيب أحدهم بزكام قال: إنه مسحور، وإذا أصيب بصداع قال: إنه مسحور، وإذا أصيب بأوجاع في ركبته، قال: إن ذلك بسبب السحر، وهو ناشئ عن دخول جني في جسمه، وإذا أصيب برمد، قال أيضاً: بأنه مسحور. جاءني أحد قبل فترة[3] يشكو بحة في حلقه، يقول: إن هذا أصابه بسبب تأثير جنية عليه؛ ونتيجة سحر وقع عليه؟!.

هذه أمور خطيرة جداً تبعد الناس عن الحقيقة، فما الذي يربط بين السحر وما بين هذه الأمور العادية؟!، فالله تبارك وتعالى هو الذي خلق الصحة والسقم، والموت والحياة)[4].

وكذلك ما يتصور من أمر المغاصيب "الغيّاب أو المغايبة" والضبعة التي يركبها الساحر ويخرج من فمها جمر، ما هو إلا ضرب من الشائعة التي سرت بين الناس لا أساس لها في الواقع، علينا أن نطهّر المجتمع من مثل هذه الشائعات السخيفة التي تروج للخرافات والأوهام والأساطير.

---

١ *المرجع السابق* ج١ ص٤٠٤.

٢ لا يريد صاحب المنار هنا إثبات النبوة لدانيال، فالأنبياء عليهم السلام لابد في معرفتهم من القطع، أي من القرآن الكريم، وإنما يقصد أن هؤلاء يسندون تصرفاتهم هذه بين الناس إلى مقام النبوة، لأجل أن يوهموهم بأن عملهم هذا مشروع.

٣ الكلام للشيخ أحمد بن حمد الخليلي.

٤ أحمد بن حمد الخليلي *"إعادة صياغة الأمة"* ص١٠٣.

وهذه كلها كما قلنا منقولة عن "وكالة قالوا" مجهولة المصدر، حتى أن فقيهاً كالشيخ سليمان بن محمد بن مداد لما سئل عن مثل هذه الأمور، لم يعرف لها أي مصدر معتبر، إلا أنه سمع كما سمع الناس، ولا يدري أذلك صحيح أم لا.

جاء في كتاب "لباب الآثار":

(مسألة: وهل يصح عندك أن السحرة يأكلون لحوم الناس من البشر، وأنهم يركبون الضباع، ويطيرون، ويقبضون النفس، فيتركون مكان الشخص صورة من خشب، فيكون في أعين الناس أنه ميت؟ وهل سمعت إنساناً نثق به أنه رأى إنساناً بعد موته في الحياة؟

أم هذه الأحاديث ملفقة وأباطيل منخرقة؟

فأجاب:

أما ما ذكرته من أكل الناس، وغصب الأرواح، والطيران، وركوب الضباع، فلم نسمع إلا كما تسمعون، ولا ندري أهذا صحيح أم لا)[١].

وقد نُقل عن أبي سعيد الكدمي التوقف في مسألة تحول (بعض الإنس ممن يضاف إليه السحر)[٢] إلى حيوانات وطيور، فقال: (وليس ذلك عندي بمعدوم من الإنس، كما ليس بمعدوم من الجن، ولسنا ممن يدّعي ذلك على الحقيقة، ولا ينفيه على الحقيقة، إلا أن يصح معنا ذلك)[٣]، فيظهر أن توقف أبي سعيد في الحكم على المسألة مرجعه عدم وضوح المسألة لديه، والتوقف في كثير من الأحيان هو موقف أقرب ما يكون إلى السلبية

---

١ مهنا البوسعيدي "*لباب الآثار*" ج١ ص٢١٧.

٢ الأصم "*النور*" ص ٤٦٩.

٣ *المرجع السابق* ص ٤٦٩.

لعدم توافر الأدلة للإثبات، وكثيراً ما تحصل مثل هذه التوقفات عند العلماء لتعارض بعض الأدلة لديهم، ومع تحرير النزاع وتبيين مراتب الأدلة يزول الإشكال.

ويحرر الشيخ أحمد بن حمد الخليلي هذه المسألة بتتبعه لها بنفسه فيقول: (كانت هناك شائعة قبل وقت من الزمن شاعت في أوساط الجهلة وتقبلها بعض الناس، وهي أن السحرة قد يتسلطون على أحد فيأخذونه ويصورونه ميتاً وهو غير ميت، ويضعون مكانه لوحاً يخيّل إلى الناس أنه ميت.

وأنا بنفسي عايشت قضيتين من أمثال هذه القضايا وتتبعتهما حتى وصلت في نهاية المطاف إلى استبانة كذب هذه المقولة، وأنها ليست من الحقيقة في شيء، ومما يؤسف له أن إحدى القضيتين روج لها، حتى أن وسائل الإعلان تناقلتها، حيث ادعى مدع بأنه كان مسحوراً، وأنه مات قبل سنين وتقمص شخصية أحد الموتى، وجاء إلى أم ذلك الميت بعد أكثر من عقدين من السنين، وادعى أنه ابنها، وقالت إنها وجدت من العلامات التي كانت في ابنها ظاهرة فيه، وصدّق الناس بأنه نفس الشخص الميت، مع أنه كاذب في قوله، ثم أتى من الإجرام ما استحق به القتل، وقبل قتله اعترف بالحقيقة، وقد استبنت منه ذلك بنفسي، وصرّح بكل شيء، وحدثني بمَن كان يملي عليه هذه الأخبار)[1].

ويقول ناصر بن أبي نبهان الخروصي: (والثاني: الغصب وإخفاؤهم طول الحياة، فهذا بعض أنكره، وبعض أثبته.

وبعض يقول: قد وقع في زمن الشيخ ماجد الكندي، ماتت ابنة زماناً ثم ظهرت.

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "**إعادة صياغة الأمة**" ص١٠٤.

وبعض أنكر ذلك مَن في زمانهم، وأن التي ظهرت ابنته سرقها رجل من كبراء قومه، وقد ماتت ابنته فأتاها إليهم متغيرة، وقال: ابنتكم وجدناها ميتة بالموضع الفلاني في اليوم الذي غابت فيه.

فلما مات ذلك الكبير ظهرت التي سرقها، وتركها في بيته مع أهله يعرفونها، ولم يستطيعوا أن يظهروا عليه في حياته، وأظهروا عليه بعد وفاته.

وهذا القسم ينكره العقل؛ إذ كثير مضى من العلماء يستطيع أن يرد ذلك منهم، ولم يصح من أحد من العلماء في هذا العلم الحلال أنه قال بصحة ذلك، ولا أنه رد مغصوباً، ولا أنه قد عجز عن رده.

والوجه الثاني: لا يمكن أن يخفي ذلك دائماً في نفسه وصوتها وجميع أمورها فالأقرب أنه ليس بصحيح)[1].

البعد التاريخي للسحر

ولابد لفهم هذه القضية من معرفة تاريخها في نشأة الحضارات وقيامها عبر التاريخ، فمع بدايات اكتشاف الكتابة في حضارات بلاد الرافدين كالسومرية والبابلية كانت الكتابة في ذلك الوقت سراً من الأسرار، إلى درجة أن الحاكم أو المتنفذ يكتب في الأداة المتوفرة آنذاك بضع كلمات —وكانت الكلمات عبارة عن رسوم وتصاوير— فيذهب بها المندوب إلى الجهة المعنية، وإذا بذلك الشخص المقصود يفعل ما يؤمر به مباشرة امتثالاً لأمر الحاكم أو خشية من صولته.

والغالبية الساحقة من الناس في ذلك الوقت لا يعرفون الكتابة فهي في بداياتها، ولذلك كانت الكتابة والقراءة محصورة في أشخاص بأعيانهم كالملوك والحكام، وأخص

---

١ السعدي "*قاموس الشريعة*" ج١٢ ص٩٣.

حاشيتهم، وكبار الكهنة في المعابد، ومن على شاكلتهم، فلما رأى الناس ذلك التأثير العجيب على القارئ بسرعة استجابته للكتابة التي اطلع عليها؛ تصوروا أن في الكتابة تأثيراً ذاتياً، جعل بعد ذلك الكهنة "المثقفين" والحكام "السياسيين" يحتكرون الكتابة في بلاطاتهم.

فمن هنا كانوا يخدعون الناس بأن في هذه الكتابة شيئاً من التأثير على الآخرين، وبالتالي سرت في النفوس أن الكتابة تؤثر بذاتها، وتراود إلى هذه النفوس أن هؤلاء الكهنة الذين يكتبون إنما يضعون أسراراً معينة فيها، وعندما تخرج إلى الأشخاص لابد أن يتفاعلوا عندها وإلا أصابهم شر.

ففي الحضارة المصرية كانوا يعتقدون أن للكلمة تأثيراً على الناس والأشياء من حولهم؛ إذا ما كان وراءها قلب مخلص يؤمن بتأثيرها، وهذا هو ما شاع عند بعض المسلمين، حيث يتصورون أنه يمكن لكلماتهم أو كتاباتهم أن تؤثر في الأشياء إذا ما صدرت من قلب مخلص بها، ولذلك يتكئون على مثل هذه الأعذار عندما تطالبهم بالدليل، فيقولون: هذه لا تصدر إلا من شخص بلغ "الولاية والإخلاص" وترقى في مدارجهما، ويروون في ذلك حكايات غريبة وعجيبة، فكم سمعنا وقرأنا أنَّ أحدهم يُزعم له بأنه أخرج جنياً أو فعل شيئاً ما بتلاوة البسملة أو شيء من "الأسرار"، ولكن عندما يفعله أي شخص آخر لا يتم له ذلك، ويأتي الرد منهم على لسان الجني!، أن البسملة حق، ولكن القارئ ليس هو.

وأحياناً يصرخ الجني -كما يتوهمون- قبل أن تبدأ القراءة عليه، مثلما (يروى عن الشيخ جاعد بن خميس أنه ذهب كي يقرأ على فتاة دخلها مارد، وقبل أن يدخل الشيخ جاعد على الفتاة أخذ المارد يصرخ ويقول: لا تدخل، لا تدخل، سأحترق منك، سأحترق.

فخرج ذلك المارد من الفتاة قبل أن يدخل الشيخ ليقرأ على الفتاة المصابة...

ولا ينسى الراوي أن يعلّق قائلاً: إنه الإيمان الصادق)[١].

ودرجة الإخلاص هذه قد تعطى -في نظرهم- بعض البلهاء الذين لا يحسنون النطق بالقرآن الكريم إذا امتلكوا اليقين، مثلما يروي أحدهم عن رجل أمي (كان يمسك الحيّات في كفه، ولا يتعرض لأي أذى منها، فقيل له: ما تقول يا رجل عندما تمسكها؟ فقال: أقول: "خضها ولا تخف"[٢]، فلا أتعرض لأي أذى منها...

يعلّق الراوي قائلاً: فعلى الرغم أن الرجل يقرأ الآية على الخطأ إلا أن اليقين هو الذي أنقذه)[٣] اهـ.

إذن عند هؤلاء اليقين هو الذي أنقذ الرجل، مع أن مسك الحيّات يستطيعه الكثير من الناس إذا تمرسوا فيه، سواء كانوا مسلمين أو يهوداً أو نصارى أو وثنيين، فلعل أيضاً عند هؤلاء أن غير المسلمين يصلون إلى درجة اليقين؛ فتنفعل لهم الكائنات ببركة قراءة شيء من كتبهم، ولا غرابة في ذلك؛ فهذه التصورات لم تأتِ إلى المسلمين إلا من المنظومات غير الإسلامية، ولله في خلقه شؤون!.

لقد أصبح الإيمان والإخلاص واليقين عند الكثيرين لصيق الخرافة، فهل لا زلنا نبحث عن سر تخلف أمتنا الإسلامية؟!.

يقول الدكتور محمد سليمان الأشقر:

---

١ الأغبري "الكرامة لأهل الحق والاستقامة" ص١٢٦.

٢ الآية هي ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ طه:٢١.

٣ السيفي "حكايات وروايات النصير" ص٢٣٤.

(ونقل ابن حجر في موضع آخر، كلام بعض من أوغل في هذا الباب، وادّعى أن خواص الأولياء الذين اشتد توكلهم لا يضرهم ترك الأسباب، وأن من ترك الأسباب وفوض وأخلص في ذلك كان أرفع مقاماً، أي أعلى رتبة في الدين ممن باشرها، وأن الذي يستحق اسم التوكل هو من لم يخالط قلبه شيء، حتى من السبع الضاري، والعدو، ومن لم يسع في طلب الرزق، ولا مداواة ألم.

وعندي أن هذا المذهب من أعظم الانتكاسات التي طرأت على العقلية الإسلامية بتأثير ثقافات الشعوب التي دخلت الإسلام، لأنها أدت إلى التواكل، والانصراف عن الأخذ بأسباب الصحة والقوة والتقدم والنصر، اعتماداً على وضع فكرة التوكل في غير موضعها، وأصبح ذلك في الأمة الإسلامية مرضاً مزمناً عزّ علاجه، وآيس منه الأطباء، إلا ما شاء الله له أن يستمسك بالكتاب والسنة الصحيحة، عالماً أن الحق كل الحق فيما ورد فيهما بعد أن يفهمهما حق الفهم، والله المستعان)[١].

وهذا كان سائداً في الحضارات الوثنية كالحضارة المصرية، التي يعتقد اتباعها أن للكلمة تأثيراً تنفعل له الأشياء، وذلك إذا ما صدرت من لسان ينطق به قلب مخلص، وهذا ما كان ينسب إلى الخاصة، لا سيما الحكام، ويضفون عليهم شيئاً من أفعال الألوهية، وكل ذلك لأجل إجبار الناس على الانقياد إليهم، ولذلك كان المصريون القدماء يتصورون أنَّ حكامهم آلهة لأن الأشياء تنفعل لكلماتهم، ولا يحدث ذلك لغيرهم، لأنه لا يقف خلفها قلب مخلص.

ورد في كتاب "ما قبل الفلسفة" وصف لهذا التصور الساذج والخطير في الحضارة المصرية:

(لقد كانت نصوص الخليقة.. تصف الخليقة بشكل مجسد، فالإله يفصل الأرض عن السماء، أو يلد الهواء والرطوبة، غير أن النص ينصرف إلى أقصى ما استطاع المصري أن

---

١ محمد سليمان الأشقر "مدى الاحتجاج بالأحاديث النبوية في الشؤون الطبية والعلاجية" ص٥١–٥٣.

ينصرف نحو خليقة توصف بمصطلحات فلسفية، فهي فكرة انبثقت في قلب أحد الآلهة، وقول آمر حوَّل الفكرة إلى حقيقة، وهذا الخلق بفكرة تخطر بالبال، يتلوها إلقاء لفظي، له أساس من التجربة في حياة الإنسان، سلطة الحاكم الذي يخلق بمجرد الأمر)[١]، (فالقلب هو عضو الفكر، واللسان هو العضو الذي يحوّل الفكرة إلى واقع ظاهر)[٢].

وهكذا نجد في الحضارة المصرية القديمة أنهم يصفون من تنفعل له الأشياء بالإله، وهي خاصية يتمتع بها الصفوة كالحكام ذوي الصفة الإلهية المدعاة لهم باطلاً، جاء في نص مصري قديم: (بتاح العظيم، إنه قلب انيعاد الآلهة ولسانه، الذي ولد الآلهة، فتكوّن في القلب، وتكوّن على اللسان شيء في شكل آتوم)[٣].

وهكذا في تصور بعض السذج من المسلمين فيما يزعمون أنَّ لهم قدرات خارقة، قادرة على تغيير الأشياء، وفي تصورهم أنَّ لهؤلاء صفات مميزة ترفعهم عن مصاف باقي البشر، فهم تنفعل الأشياء لكلماتهم، في حين أن بقية الناس لا يحظون بهذه الخاصية، ولا يقدرون أن يتصفوا بهذه الصفة، هذا الداء الذي يمارسه الخاصة انتقل إلينا من الأمم الماضية حيث كان يمارسه الكهان، فقد جاء في كتاب "ما قبل الفلسفة" تعقيباً على انفعال الأشياء للكلمة:

(ولما كان المصريون يفكرون بالكلمة كأنها شيء مجسّد محسوس، ولما كان الكهان هم المفسرين لكل ما هو إلهي ومقدس، فقد جعلوا يعتبرون "كلمة الإله" كمية من الكتابات المقدسة يعدّونها كلاماً موجهاً تتلفظ به الآلهة)[٤].

---

١ فرانكفورت وآخرون "**ما قبل الفلسفة**" ص٧٢.

٢ **المرجع السابق** ص٧٣.

٣ **المرجع السابق** ص٧٣.

٤ **المرجع السابق** ص٧٦.

وفي الحضارة البابلية كانت هذه العملية تمارس على الناس، ولذلك عندما أرسل الله تعالى الملكين بكلماته الإلهية، كانا ينصحان الناس عن أن يسيروا فيها سيرة الكفار الذين اتخذوا من الكتابة هذا الأسلوب المراوغ، وبينوا أن كلمات الله إنما أنزلت لهداية الناس، فلا ينحرف بها عن نهج الهداية القويم إلى التضليل بأن لها فعلاً سحرياً، وخاصة أنها كلمات دينية نزلت من عند الله، فهي -كما يصفها القرآن الكريم- فتنة؛ فإما أن تكون هداية للناس، وإما طريقاً إلى الكتابة الطلسمية الإضلالية السائدة آنذاك، ولذلك حذّر هذان الملكان الكريمان كل من يتلقى منهم كلمات الله قائلين له: اهتد؛ ولا تكفر.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ البقرة: ١٠٢.

وما أنزل على الملكين هو كلمات الله، فمحال على الله تعالى أن ينزل الكفر إلى الناس ليضلوا، فالله العزيز الحكيم لا ينزل إلا الوحي الهادي إلى سواء الصراط.

وإنما شرار الناس كانوا يستخدمون هذه الكلمات الإلهية لخداع عباد الله، وإيهامهم أن في هذه الكتابة تأثيراً سحرياً يفرّق بين المرء وزوجه، فليس في كلمات الله وما أنزل ما يؤدي إلى هذه التفرقة، فحاشا الله عن ذلك وحاشا كلماته الربانية، وحاشا رسله الكرام وملائكته الأخيار أن يكونوا طريقاً لإضلال الناس، وإنما شرار الناس أخذت تتعلم ما تخدع به الناس أنها تفرّق به بين الأقرباء، وتقطع ما أمر الله به أن يوصل، واستغلت كلمات الوحي في ذلك، تماماً كما سيحدث بعد ذلك عند بني إسرائيل، وكما سيبتلى به البسطاء من أهل الإسلام.

والذي حدث بالنسبة لبني إسرائيل أنه عندما أُنزل عليهم الكتاب، استخدموا نفس هذه الخديعة للتحايل على الناس؛ فكانوا يكتبون لهم الآيات ويخدعونهم بأن لها تأثيراً عليهم، واستمر بهم هذا الحال حتى عهد الرسالة المحمدية، ولذلك جاء القرآن ليفضحهم ويكشف أمرهم، وليبيّن أنه ليست من طبيعة الرسالة السماوية خداع الناس بكتابة الطلسمات، وإنما طبيعتها الهداية والبشارة والدعوة والعمل بمقتضاها ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة:١٠١، وكانت وجهتهم ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ البقرة:١٠٢، فالكتابة الطلسمية توارثوها عن مُلْك سليمان، ففي حضارة النبي سليمان بن داود كان هذا الأمر مستخدماً، إذ انتقل إليها من الحضارة البابلية السابقة، وأدواء الأمم -كما هو معلوم- تنتقل عبر حلقات التأريخ، ولكن حتى لا يلتبس الأمر يضع القرآن الكريم الأمور في نصابها، فيقرر أن هذا الفعل ليس من فعل سليمان عليه السلام، ولا بإذنه ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ البقرة:١٠٢ فهؤلاء الذين يمارسون هذا العمل الفاسد هم الذين كفروا، والإنس المنحرفون عن الحق هم شياطين، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ البقرة:١٠٢، فهؤلاء الشياطين يعلمون الناس سحر الكتابة والطلسمات، وإمعاناً في الإضلال والخداع يتكئون على الجانب الديني ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ ولكن هذين الملكين الكريمين ﴿مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، إلا أنَّ الخبث واللؤم تظل سجية للشياطين ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ فالله تعالى يقطع الطريق على هؤلاء، ويبيّن أن ما يقومون به لا تأثير له أبداً بمشيئة الله.

وصورة الاستثناء هنا ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ لا تعني أن السحر مؤثر بذاته، ودعوى التأثير ناشئة من الوهم الواقع في الأذهان؛ لأنه لا يمكن في الاعتقاد الصحيح أن ينزل من عند الله شيء من الوحي هو ضلال وباطل، فهي:

– إما أن تكون للاستثناء المنصرف إلى الإيهام بأنه يؤثر، والوهم مؤثر نفسياً، فالتأثير للوهم وليس لحقيقة السحر، وعلى هذا الرأي المفسر ابن عاشور في "التحرير والتنوير"، حيث قال بعد أن ناقش معنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾: (فليس المعنى أن السحر قد يضر وقد لا يضر، بل المعنى أنه لا يضر منه إلا ما كان إيصال أشياء ضار بطبعها)[1].

– أو أنها للتأكيد الكاشف بأن هذا الأمر واقع برمته تحت قدرة الله، بمعنى أن التأثير وغير التأثير واقعان تحت مشيئة الله، وهو هنا غير مؤثر؛ ومع ذلك واقع تحت مشيئته الإلهية، وهذا ما يفيده كلام الدكتور جميل غازي في تفسيره هذه الآية الكريمة[2]، وهذا هو الذي نرجحه هنا.

إذن "إلا" هنا للتوكيد وليس للاستثناء كقوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللهُ﴾ الأنعام:١٢٨، وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ هود:١٠٦-١٠٨، فلا يعني ذلك أبداً أن الكافرين والمؤمنين يلبثون حقباً تنقضي لما يشاء الله، بل يعني أن مشيئته تعالى قضت يقيناً وحتماً أن كل فريق خالد مخلد في مآله، وهم في ذلك كله واقعون تحت المشيئة الإلهية غير خارجين عن سلطانها القاهر.

---

١ ابن عاشور "التحرير والتنوير" ج١ ص ٦٤٥.

٢ جميل غازي "تفسير الآيات ١٠٢-١٠٣ من سورة البقرة" (محاضرة).

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إلا مَا شَاءَ اللهُ﴾ الأعراف:١٨٨، فالنبي لا يملك لنفسه النفع والضر أبداً كما أنه لا يملكه ذلك لغيره، فالله وحده من يملك الضر والنفع.

ونحو ذلك قول الله لنبيه الكريم: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى ۝ إلا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ الأعلى:٦-٧، فالنبي عليه السلام لا ينسى شيئاً من الوحي قطعاً، وقد أكد سبحانه ذلك بـ"إلا" التي تسبق المشيئة.

وهذا ما يوضحه الشيخ أحمد بن حمد الخليلي بقوله: (إن الاستثناء لا يدل على الانقطاع، لأن الاستثناء بمشيئة الله يرد في كلام الله للتنبيه على أن المخبَر عنه كائن بمشيئته عزَّ وجلَّ، فلو شاء خلافه لكان، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى ۝ إلا مَا شَاءَ اللهُ﴾، مع القطع بعدم نسيانه صلى الله عليه وسلم شيئاً مما أوحاه الله إليه وأقرأه إياه، ومثل ذلك تعليق وعده تعالى الجازم بمشيئته كما في قوله سبحانه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ الفتح:٢٧ مع ما عهد من كون "إن" تدخل على الشرط غير المقطوع به؛ وهو هنا لا يجوز قطعاً لمنافاته لتأكيد وعد الدخول بلام القسم ونون التوكيد مع ما سبقه من قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ الفتح:٢٧)[1].

و"إلا" التأكيدية مثلها مثل "لا" التأكيد في قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الواقعة:٧٥-٧٦، وقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ المعارج:٤٠، وقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ التكوير:١٥، وقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "الحق الدامغ" ص١٩٢-١٩٣.

بِالشَّفَقِ﴾ الانشقاق:١٦، وقوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ الأعراف:١٢.

إذن مجيءُ "إلا" هنا ليؤكد الله تعالى أنه مسيطر على هذا الكون، فهنا الآية لا تستثني بأن هناك تأثيراً يقع من فعل هؤلاء الناس أو من يتعلم هذا الفن، وإنما المقصود تأكيد أن عدم التأثير واقع تحت هيمنة الله.

وهذا العمل التضليلي السيء في حقيقته ليس إلا مضرة تعود عليهم في دنياهم لأنّ المفسد مآله البوار، وكذلك مضرة في الآخرة، حيث ينالون جزاء إفكهم ناراً تلظى، قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

فهؤلاء كانوا في الحضارة البابلية يأتون إلى هذا الذي أنزل على الملكين ببابل فيأخذونه على أن له تأثيراً، فيعملون به الكتابات ويصورونها للناس بأنها تؤثر، ولذلك نفى القرآن الكريم تأثير هذا العمل وحذّر منه.

ومرة أخرى نقول للتأكيد ولمزيد إيضاح؛ بأن ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ليس من قبيل السحر؛ لأن الله لا يقر السحر، ولا ينزل من عنده الباطل على رسله وملائكته.

كان ما ينزل من الوحي آنذاك؛ منهم من يستخدمه في هداية الناس، ومنهم من يستخدمه في الكتابة الطلسمية، لذلك كان فتنة؛ لأن الفتنة تكون في الخير وتكون في الشر؛ يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء:٣٥، فالابتلاء بالخير والشر كلاهما ينطبق عليه وصف الفتنة، فكان هناك مَن يستخدم هذا الحق في غير موضعه، فيستغله في خداع الناس بزعمه أنه يعمل به كتابات مؤثرة فيهم، ولأجل هذا كان الملكان ينبهان مَن يأخذ منهما كلمات الله بقولهما له:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ البقرة:١٠٢، أي لا تستخدم هذا الوحي في خداع الناس وإضلالهم، وإنما استفد منه في العمل بمقتضى هدايته.

ولكن كان من الناس من يأخذ ما يُنزل على هذين الملكين فيستخدمونه في إيهام الناس بأنه مؤثر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ البقرة:١٠٢.

والتفريق بين الزوجين الوارد في الآية يمكن أن يحصل بطرق خداعية عديدة، لعل من أبرزها:

– أن يدعي الساحر أو الكاهن أو العرّاف معرفة الغيب، فيقول لأحد الزوجين مثلاً: إن زوجه الآخر هو من قام بعمل سحر له، فتقع العداوة والفرقة.

– أو يقوم بعمل طلسمات وكتابات يضعها أحد الزوجين للآخر في الثياب أو في مكان النوم، ثم يكتشفها الزوج الآخر فيقع في نفسه رغبة زوجه في إيذائه فتقع الفرقة والعداوة بينهما.

– أو يغري (بعض الناس ببعض من خلال هذا الكلام، فلربما أغرى القريب بقريبه، وأشد من ذلك ما بلغني[١] أن أحداً من هؤلاء جاء إليه أحد وعنده ابنه الصغير، يشكو إليه من أمراض تصيبه ومن بلاوى تأتيه، فقال له: بأنه أصيب من خلال سحر، وأن الساحرة امرأة عجوز في بيتكم.

فوجد هذه الصفات أقرب أن تنطبق على أم الرجل (=أب الولد)، وعندما عاد إلى بيته، أرادت الأم أن تستقبله بحنانها، وأن تسأله عن ابنه، فدفعها دفعاً ودعّها دعّاً، بسبب كلام هذا الدجال.

---

١ الكلام للشيخ أحمد بن حمد الخليلي.

الأمر يؤدي إلى أن تكون قطيعة ما بين الوالد وولده، وما بين القريب وقريبه، وهذا من الخطورة بمكان، فعلى هؤلاء أن يتقوا الله، وأن لا يقولوا مثل هذا القول الذي يؤدي إلى الفساد في الأرض، والقطيعة ما بين الأقربين، بل إلى عقوق الأبناء والبنات لآبائهم وأمهاتهم)[1].

وهذه العمليات السحرية الخداعية المضللة انتقلت من الحضارات القديمة التي كانت تعج بالوثنية كالبابلية والفرعونية –رغم إرسال الله رسله لكشف خدع هذه الأعمال– إلى بني إسرائيل، شأن هذا الأمر بقية العقائد المنحرفة كالتجسيم والإرجاء، وظل بنو إسرائيل يمارسون هذا العمل الدنئ حتى مجئ الرسالة الخاتمة، واستغلوه بحكم سابق عهدهم في مجتمع المدينة في إبعاد الناس عن هداية القرآن الكريم، فجاء القرآن فاضحاً هذا التصرف السيء، وأن ما يقومون به خارج عن الأخلاق الكريمة، وأن استغلال الضعف الإنساني هو أمر سافل وتصرف ماكر، وخاصة إن كان في إبعاد الخلق عن الاستفادة من هداية القرآن بتدبر معانيه والعمل بمقتضاه، فبنو إسرائيل نبذوا وراء ظهورهم تعاليم الله التي أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم، واتبعوا السحر والخزعبلات، وعملوا الشعوذات وكتبوا الطلسمات، ونهجوا نهج البابليين والأمم الماضية التي انحرفت عن هدي الرسالات، لقد سلكوا هذا المسلك وكان يجدر بهم أن يتبعوا القرآن فيؤمنوا بالله العزيز ويتقوه، بدلاً من استخدامه في الكتابات والحروز والتمائم.

قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ

١ أحمد بن حمد الخليلي "برنامج سؤال أهل الذكر" (بتصرف).

النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٠١-١٠٣.

وللأسف الشديد وقع كثيرون من هذه الأمة في نفس المشكلة التي حذر الله تعالى منها، ونعاها على بني إسرائيل، وكشف ضلالهم فيها، فإذا بأناس مسلمين يتخذون من الكتاب المبين حروزاً وتمائم، يزعمون أنهم يعالجون بها الأمراض النفسية والجسدية، وما أنزل الله تعالى كتابه المجيد لأجل ذلك، بل أنزله هداية للناس وتقويماً لمسلكهم، وشفاءً لما في الصدور من انحرافات عقدية وأمراض سلوكية، وعلاجاً لأدواء المجتمعات والأمم، راسماً لها خط النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

يقول العلامة محمد رشيد رضا: (هذه الأوهام والأكاذيب على نبي الله سليمان عليه السلام مما افتجره بعض الدجالين من بني إسرائيل، ووسوسوا به إلى بعض المسلمين، فصدقوهم في بعض ما زعموه من حكايات السحر)[١].

لقد وقعنا في نفس الأخطاء وأصابتنا نفس الأمراض التي كانت في الأمم الماضية، وكأن كتاب الله العزيز لا أثر له علينا، فلله الأمر من قبل ومن بعد، وإليه تعالى وحده المشتكى.

وسئل (الشيخ خميس بن سعيد الرستاقي، وفي كتابة الطلاسم إذا كنت لا أعرف تفسيرها إلا إذا وجدت باباً لكذا وكذا، أيجوز لي أن أكتبه لما هو موصوف أم لا؟.

١ محمد رشيد رضا "تفسير المنار" ج١ ص٣٩٨.

الجواب: في ذلك اختلاف، وأكثر القول لا يستعمل شيئاً لا يعرف عدله)[١].

قلنا: وقد عرف باطل هذه الطلسمات، فهي حرام على معاني كلامه ولا ريب.

وهذه الكتابة المتخذة للحروز والتمائم لابن خلدون المؤرخ المشهور رأي بشأنها فهي (ليست في نظره سوى مصطلح مموه، أطلقه أصحاب السحر تهرباً من الوقوع تحت طائلة الحكم الديني الذي يحرِّم السحر في الإسلام، يقول ابن خلدون: "إن الرياضة السحرية كانت للأولين (=الكلدانيين) مشحونة بالكفريات، كالتوجهات للكواكب والدعوات لها، التي يسمونها قيامات لاستجلاب روحانياتها"، ولما كان التوجه إلى الكوكب وطلب معونتها محرماً في الإسلام، لجأ المشتغلون بهذه الصناعة إلى "قلب تلك الرياضة السحرية إلى رياضة شرعية بأذكار وتسبيحات ودعوات من القرآن والأحاديث النبوية... ويستترون بتلك الرياضة الشرعية تحرجاً من السحر المعهود الذي هو كفر، أو يدعو إليه")[٢].

وقد كانت قلاع الإباضية العقدية والفكرية محصنة من هذه الترهات والخزعبلات إلى وقت قريب جداً، لسلامة منزعهم وإحكام قواعدهم، حتى انفتحوا على الآخرين بدون وعي لمناهجهم العقدية والفقهفكرية فأصابتهم سنة الأولين، فأصبح بعض الإباضية يمارس هذه الكتابات الطلسمية دون إدراك منه بأنه بذلك يخالف سنن الله تعالى وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم وما سار عليه السلف الصالح أزمنة متعاقبة، يقول الإمام السالمي: (وفي النفس من قبل علم الطلسمات شيء، إذ لم يكن شيء من ذلك في عصره صلى الله عليه وسلم، ولا في عصر أصحابه حتى انقرضوا عن آخرهم، ولا في عصر التابعين لهم بإحسان رضي الله عن الجميع، وإنما كان في أعصارهم دعاء بإخلاص

---

١ السعدي "قاموس الشريعة" ج١٢ ص٩٧.

٢ الجابري "نحن والتراث" ص٣٦١-٣٦٢.

وأجابة بإعانة عملاً بقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر:٦٠، وذلك كانت لهم الكرامات الخاصة بمراتبهم العالية لصفاء بواطنهم فلا يحتاجون في تحصيلها إلى شيء من هذه الأوفاق والطلاسم، وقد اعتنى بها كثير من متأخري أصحابنا، وكثير من قومنا، وكان الغزالي يعتني بعلم الأوفاق كثيراً حتى نسب إليه.

قال ابن حجر الهيتمي من قومنا: ولا محذور فيه إن استعمل لمباح، بخلاف ما إذا استعين به على حرام. قال: وعليه يحمل جعلُ القرآنِ الأوفاقَ من السحر. انتهى.

وقد منع بعض أصحابنا من استعمال الطلسمات التي لا يعرف معناها، وكذلك منعوا من رسمها في الكتب إذا لم يدر معناها، لئلا يكون رسمها إغراءً بالعمل بها.

ولم أجد لأحد من أقدمي أصحابنا إلى رأس التسعمائة من الهجرة كلاماً في هذا الباب، وقد أكثر المتأخرون من بعد ذلك في استعماله، ووردت لهم فيه سؤالات وجوابات)[1].

ولما سئل الشيخ السالمي عن (كَتْبِ الطلسمات في كف إنسان ليصرع ويخبر عن المغيبات والدفائن والمضرات، كما شهر في كتب المتأخرين، أم ترى أن ذلك من الكهانة فلا يجوز؟.

كان جوابه: هو نوع من الكهانة قطعاً، فالمنع أحق ما به شرعاً، إذ لا يعلم الغيب إلا الله ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ الجن:٢٦-٢٧، ولا يغرنك ذكره في كتب العلماء، فكثيراً ما يذكرون الشيء على طريق الحكاية، ولو سئلوا عن حكمه لمنعوه، وكان الأولى تبيين باطله على إثره، لئلا تكون حكايته إغراءً بفعله، ثم أنه لا عصمة لأحد من البشر من بعد النبيين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، فلا يمكن أن يحتج بقول عالم على ما يصادم الشرع.

١ السالمي "جوابات الامام السالمي" ج٥ ص٤٤٦-٤٤٧.

ثم إن في الطلسمات ما فيها؛ حتى أن بعضهم جعلها نوعاً من السحر، ولا أقول فيها شيئاً لكثرة استعمال متأخري أصحابنا لها، فلو لم يظهر لهم جوازها ما فعلوه، غير أني أقول: إنها مبتدعة قطعاً، لأن السيرة النبوية والطريقة الصحابية خالية منها، وكذلك من بعدهم من التابعين بإحسان، والله أعلم بحالها، ولعل أصلها أخذ من اليهود، فإنهم المعرفون بذلك في سالف الزمان، وقد أغنانا الله عن علومهم بالعلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه.

ولعل رجلاً يسمع هذا فيقول متمثلاً:

كالثعلب النازي إلى عنقوده ... إن لم ينله قال هذا حامض

فلا والله؛ ما عدلت عنه لذلك، مع أني معترف بجهله، لكن رغبة عنه وعدولاً إلى السيرة المطهرة، على أن نفعه دنيوي قطعاً، ويكفيك منه ذلك فاستدل بفرعه على أصله، والسلام)[1].

ونحن نقتدي بشيخنا السالمي في احترام العلماء وتوقيرهم وإحسان الظن بهم، فهذا ما يمليه علينا الخلق القويم، ويوجبه الدين الحنيف، ولكن (لا يمكن أن يحتج بقول عالم على ما يصادم الشرع)، فعدم ظهور حرمة عمل هذه الطلسمات لهم لا يعني بأي حال من الأحوال أن حرمتها غير قائمة في الشرع، كيف؛ وقد قطع رحمه الله بأنها ضرب من الكهانة والتألي على غيب الله تعالى، وأنها (مبتدعة قطعاً، لأن السيرة النبوية والطريقة الصحابية خالية منها، وكذلك من بعدهم من التابعين باحسان، والله أعلم بحالها، ولعل أصلها أخذ من اليهود)؟ أليس كل هذا كافياً أن يقال بحرمتها ومنعها؟!.

---

١ المرجع السابق ج٥ ص٤٨٤-٤٨٩.

وأما قوله: (على أن نفعه دنيوي قطعاً) فهذا لا يتخرج إلا على أكل أموال الناس سحتاً من غير وجه حق، فهو نفع دنيوي محرّم بقطعيات الشريعة الغراء.

هذا هو موقف الشيخ السالمي من هذه الكتابات، ولكن الأمر المستغرب الذي يجعل الإنسان يتشكك فيه أن يأتي أحد بعد ذلك و(يروي أن رياضة الشيخ السالمي كانت على يد عالم الأسرار محمد بن خميس السيفي، حيث ذهب الشيخ السالمي إلى شيخه السيفي، وأخبره عن عزمه في دخول الخلوة، فسانده في ذلك، وكتب له حرزاً، وقال له: ضع هذا الحرز تحت قاطر الجحلة[1]، فإن رأيت جميع الحشرات التي تقترب منه تموت فذلك علامة نجاحه، فأقدم على رياضتك، وإن رأيت بخلاف ذلك فتوقف، فنفذ الشيخ السالمي أمر شيخه، ووضع الحرز تحت قاطرة الجحلة، وفعلاً لم تمر على ذلك حشرة كانت صغيرة أو كبيرة إلا هلكت، فتيقن الشيخ من نجاح الحرز، فحمله في رأسه)[2].

وهذه الكتابات والطلسمات ليس لها -كما قلنا- أي ثمرة عملية أبداً، لأنه لا تأثير لها أصلاً، ولكن وجد عند بعض المتأخرين من علماء الإباضية اشتغال أو تسويغ لمثل هذه الطلسمات، فكانوا بين موسع ومضيق في التعامل معها، ومرد ذلك ظروف قاسية مر بها المجتمع في تلك الفترات. على سبيل المثال استفتى أحدهم الشيخ صالح النزوي في هذه الكتابات؛ فأفتاه بأنه لا يقع تأثيرها ولا يجوز كتابتها، بل إنه قد أمره بأن ينهى عن تقييدها، ويحجر على من يفعل ذلك، قال المستفتي: (أفتاني الشيخ صالح بن سعيد النزوي رحمه الله أنه لا يجوز تأثيرها، أرجو أنه الذي يقيده لئلا يجده أحد من الناس ويأخذون به؛ ويقولون: وجدنا ذلك بخط فلان.

---

١ الجحلة: إناء فخاري لتبريد الماء يعلق بحبل في وتد على جدار أو شجرة ونحوهما.

٢ الأغبري "الكرامة لأهل الحق والاستقامة" ص١٦٦.

وأمرني رحمه الله في كتاب نسخته وفيه طلاسم، وسألته عن ذلك فأمر إليّ أن أكتب فيه تحجيراً أن لا يأخذ به إلا من عرف عدله، أو اتضح له صوابه.

وهذا المعنى فيما عندي مما أفتاني به رحمه الله)[١].

ولا عدل في هذه الكتابات، بل هو الباطل بعينه كما بيّنا ذلك في أكثر من موضع من هذا الكتاب، وحتى مَن وسَّع في هذا الأمر فقد شرطه بعدله، أي بعدم ظهور باطله، فإن ظهر باطله فقد ضاق استعماله وفق قواعد علماء المذهب الإباضي، أي لا تجوز كتابتها، فقد جاء عن الشيخ عدي بن سليمان الذهلي: (والموجود في آثار المسلمين من أصحابنا رحمهم الله أنه إذا لم يصح فيه عكس ولا تبديل ولا تحوير فلا يضيق استعماله حتى يصح باطله)[٢].

وهناك من اشتغل بهذه الكتابات الطلسمية من متأخري الإباضية، ولكن لم يجدوا فيه أي فائدة عملية، فهي ممارسات تعروها الصحة من كل جهة، كما جانبها التوفيق من كل صوب، ونحن نقول ذلك ليس استنقاصاً لمقام هؤلاء العلماء، فحبهم مغروس في قلوبنا، وإنما هو إقرار للحق، فالحق أحب من كل حبيب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لبيان عدم الكمال الإنساني، وهناك نماذج لعدد من متأخري الإباضية اشتغلوا بهذه الطلسمات:

١. فالعلامة جاعد بن خميس الخروصي رغم توغله كثيراً في كتابة الطلسمات وتقطيع الحروف وممارسة التنجيم والرمل، وتأليفه في ذلك كتباً، إلا أنه لم يجنِ منها أية فائدة، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن هذه الممارسات لا تؤثر حقيقة، وهذا الذي نقوله هو بشهادة ابنه العلامة الكبير ناصر، الذي كان مولعاً بهذه الممارسات، بل كان مدافعاً عن

---

١ السعدي "*قاموس الشريعة*" ج١٢ ص٩٧-٩٨.

٢ *المرجع السابق* ج١٢ ص١٠١.

الطلسمات والتنجيم والرمل، وعمل على "فلسفتها" عقلياً[١]، واحتج على رأي أبيه المنكر لنفعه، حيث يقول: (وكان والدي أبو نبهان ينكر نفع علم الرمل، وعلم الفلك، واحتج بحجة محجوج بها أنه أقصى ما يخبر صاحب الفلك والرمل بما هو آت، وما هو آت إن عرفه قبل أن يأتي أو جهله مع أنه على غير حقيقة بمعرفته، والحجة في ذلك عليه لا له)[٢].

ثم قال بعد أن احتج على والده في ذلك: (وذلك في بدء دخوله في العلم، فلما توغل في كل علم عرف أن علوم الله كلها شريفة، وألّف وصنّف في علم الفلك[٣] كتباً، مع العلم الحرفي والأوفاق، وقال: إن هذا العلم مرتبط بعلم الفلك ارتباطاً كلياً)[٤].

بعد كل هذا نجده يصرح في كتابه "تنوير العقول" أن والده الشيخ جاعد لم تثمر ممارسته النظرية للأوفاق والتنجيم والرمل أي ثمرة عملية حتى مات رحمه الله، حيث يقول الشيخ ناصر عن والده: (وأراد التعرض إلى العمل بطريق من الطرق الكبار، ولم يساعده الزمان، وبقي الدواء بإنائه في كوزه زماناً، حتى فسد عليه بعض أهل زمانه حين انتهى إلى الكبر، وبقي الدواء في إنائه إلى أن توفاه الله تعالى)[٥].

ويقول أيضاً عن هذه الأوفاق التي اشتغل بها والده، والتي حاول أن يستخدمها في القضاء على خصومه: (ولا فائدة في رسم جميع ذلك) ثم قال عن والده: (وكان أكثر أمره في هذا الدعاء)[٦].

---

١ وهذه قضية تحتاج إلى دراسة وشرح وتحليل، ليس هذا الكتاب محله.

٢ السعدي *"قاموس الشريعة"* ج٦ ص١٢٠، وانظر كذلك: ناصر بن أبي نبهان *"تنوير العقول"* ص٨٨.

٣ أي التنجيم.

٤. السعدي *"قاموس الشريعة"* ج٦ ص١٢٠.

٥ ناصر بن أبي نبهان *"تنوير العقول"* ص٩٠.

٦ السالمي *"تحفة الأعيان"* ج٢ ص١٩٢.

فها هو الشيخ جاعد يرحل عن الحياة الدنيا ولم يصل إلى أي ثمرة عملية لهذه الكتابات الطلسمية رغم توغله نظرياً فيها، وها هو ابنه الشيخ ناصر –وهو المنتصر لها– يعلن صراحة أنه في نهاية الأمر لم يجد والده فائدة منها.

٢. وكذلك نسبت ممارسة الكتابة الطلسمية إلى الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي، وذلك لتأليفه كتاب "النواميس الرحمانية"، وهذا الكتاب عبارة عن أذكار وأدعية وأوفاق وطلاسم، و(الإنسان في الحقيقة يعجب غاية العجب عندما يقرأ مؤلفات الإمام سعيد بن خلفان الخليلي، وجواباته النورانية نظماً كانت أو نثراً، وسواء أكانت لغوية أو شرعية أو سلوكية صوفية، ويرى ما فيها من تحقيقات، ثم يقارنها بما في كتابه المسمى بـ"النواميس الرحمانية في تسهيل الطريق إلى العلوم الربانية" وما فيه من نقول وتمجيد لعلم السيمياء والكيمياء، وعلم الحرف والعدد والرمل...، كأن المؤلف يتسم بشخصيتين لا شخصية واحدة، ... ولربما ألّف رحمه الله ذلك الكتاب في فترة معينة، ووفق ظروف طارئة، وأحوال نازلة، لا سيما وأنه تتلمذ في أول عمره على يد الشيخ ناصر بن جاعد، وقد كان الأخير يقضي رمضان معه، ولا ريب أنه استفاد هذه المعرفة الصوفية في أول عمره منه[1]، ولكن خالفه بعد ذلك في بعض المسائل كما في التمهيد، ثم تحول الشيخ سعيد بن خلفان إلى مسلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[2].

ونحن نتفق مع الباحث في رؤيته، إلا أننا لا نرى انفصاماً في شخصية الشيخ سعيد الخليلي إلى شخصيتين، وإنما نرجع ذلك إلى التطور المعرفي والإدراك الفكري الذي يمر بهما الإنسان من مرحلة إلى أخرى من عمره وتفتحه العقلي، وهذا أمر طبيعي جداً، بل هي سنة الله في خلقه، وهذا أيضاً فحوى كلام الباحث عندما بيّن أن الشيخ سعيد قد

---

١ بينا موقف الشيخ ناصر بن جاعد من مثل هذه القضايا أثناء الكلام عن موقف الشيخ جاعد بن خميس منها.

٢ الحراصي "*البعد الصوفي في الفكر الاباضي*" ص ٢٠٣.

رجع عن هذه الممارسة الوهمية إلى الأسلوب السُنني المعهود في الإصلاح الاجتماعي البشري.

ويرى الحراصي أن بعض علماء الإباضية المتأخرين الذي مارسوا بعض مظاهر التصوف، أو ما سمي لديهم بالسلوك (لم يرفضوا فلسفة الإشراق والنور، إذا كان المقصود منها تنوير القلب بما يفيضه الله تعالى على عبده المؤمن، من إشراقات نورانية تزيده يقيناً بعظمة الله، وتصديقاً برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتفانياً في محبته، وعزماً على إقامة شرعه، وهي مرفوضة عندهم إذا كان المقصود منها معاني فلسفية ماورائية، أو غنوصية باطنية، تزيد الإنسان حيرة واضطراباً، أو تفسخاً وانحلالاً، أو كفراً وإلحاداً)[١].

ويقدم الحراصي رؤية لموضوع الكتابات الطلسمية والأوفاق عند بعض فقهاء الإباضية المتأخرين فيقول: (هذا النوع من العلم الملصق بالتصوف في العموم هو أقرب إلى التنجيم، ولا أدل على "ذلك من"[٢] وجود العلاقة بينهما، إلا أننا نثق بعلمائنا عامة، ونحسن الظن بهم، بسبب عدم علمنا أو تصورنا لتفاصيل وقواعد وضوابط علمهم هذا، وبالظروف المحيطة بهم أثناء تعلمه وتدريسه، والحكم على الشيء فرع تصوره)[٣].

لذلك يرى الحراصي (ترك هذا النوع من العلم المتصل بالتصوف، وإن تحدث عنه علماؤنا، لا سيما في هذا الوقت والزمن الذي بلغ فيه العلم الطبيعي مبلغاً كبيراً، فالأفضل صرف الهمة والعزم إلى العلم الذي ظهرت قوانينه واتضحت معالمه)[٤].

١ **المرجع السابق** ص ٢٠٥–٢٠٦.

٢ "ذلك من" غير موجودة في النص الأصلي، لكن سياق الكلام يقتضيها.

٣ **المرجع السابق** ص ٢٠٢.

٤ **المرجع السابق** ص ٢٠٣.

ويرى الحراصي كذلك أن اشتغال العلامة سعيد الخليلي وغيره ممن اشتغل بهذه الكتابات ليس عن تحقيق علمي فيها، وإنما بسبب التأثر بالآخرين؛ فيقول: (ومن المعلوم أن علماء السلوك أو الصوفية من الإباضية ليسوا معصومين من الخطأ أو التأثر بالغير)[١].

هذا؛ وتقديم أي معالجة علمية أو رؤية فكرية في موضوع من المواضيع لا يعني بأي حال عدم الثقة بالعلماء، كما أنه لا يمكن أن يشم منه أي رائحة استنقاص لهم أو تقليل من علمهم، وإنما هو أمر يوجبه الدين ويمليه العقل، ويقرّه العلماء أنفسهم، فكم قد قرأنا لعلماء راسخين قولهم: هذا رأيي ولا تأخذ إلا بعدله. أو قولهم: فمن رأى فيه خطأً فليصوبه، وهكذا.

وممارسة هذا النوع من الكتابات لم يعدّ داخلاً في عدم تصورنا له حتى لا نقطع بفساده، بل أضحى عدم جدواه وأنه لا فائدة عملية فيه أمراً جلياً، لا يمكن أن يماحك فيه أحد في هذا الزمان الذي ظهرت فيه سنن الله السببية عاملة في الوجود، بل حتى من اشتغل به من أولئك الأعلام في زمانهم الغابر نجده يتركه بعد انكشاف هذه الحقيقة له، وهو ما فعله العلامة سعيد بن خلفان الخليلي، فالعلماء لِمَا رسخ في قلوبهم من الخشية لله تعالى، لا يستنكفون من الرجوع إلى الحق بعد الوقوف عليه.

وبعد كل ذلك فنقول: إن الكتابة -أي كتابة ولو كانت آيات من القرآن الكريم- لا تؤثر بذاتها، والكتابة بغير القرآن لا تجوز، وإنما اختلف في الكتابة به، وهي ما اصطلح عليه بالرقية، ورأينا في ذلك المنع مطلقاً سواء من القرآن أو غيره[٢].

والأشياء التي يتوهم الناس بأن فيها مضرة عليهم كالنفث أو الكتابة أو غير ذلك، فهذا أمره هيِّن جداً، فإن الله تعالى وجهنا فيه توجيهاً مباشراً عندما قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ

---

١ المرجع السابق ص ٢٠٣.

٢ بيّنا ذلك في مبحثي: التمائم والحروز، والدعاء والرقية.

الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف: ٢٠٠ فقط قل: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" ولا تفكر في الموضوع، فالله تعالى يكفيك، وسينتهي ذلك الأمر الذي تتخيله وتتوهمه، والله تعالى يقول: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝٢ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٣ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٤ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٥ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ سورة الفلق.

استعذ بالله من هذه الأمور فقط، واصرف نظرك عنها، فهي ليس لها أي تأثير، فلا تكتب حرزاً، ولا تذهب إلى شيخ يكتب لك ويرقيك، بل اقرأ بنفسك كتاب الله الحكيم آناء الليل وأطراف النهار، تعامل معه مباشرة تدبراً بالعقل، وعملاً بالجوارح، وتزكية للنفس، ولذلك قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝٢ مَلِكِ النَّاسِ ۝٣ إِلَهِ النَّاسِ ۝٤ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٥ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٦ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ سورة الناس.

تفسير ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ الفلق: ٤، أي (ومن شرّ السواحر اللاتي ينفُثن في عُقَد الخيط، حين يَرْقِين عليها)[١]، من ظاهر فهم هذه الآية الكريمة توهم الكثيرون أن النفث في العقد الذي يمارسه السحرة مؤثر وله حقيقة، ويستدلون عليه بالاستعاذة منه في الآية، وهذا الكلام غير صحيح لاعتبارات منها:

— الآية ليس فيها دليل على إثبات حقيقة تأثير السحر، فهي تتحدث عن الاستعاذة من ﴿شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ولم تتحدث عن طبيعة هذا الشر، فلا داعي لإسقاط مفاهيمنا

١ تفسير الطبري ج٣٠ ص٣٥٦.

الاجتماعية على الآية الكريمة وحصر تفسيرها بذلك، وهذا الشر لا يعني إثبات تأثير للسحر، فـ﴿شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ﴾ يمكن أن يكون بتمكن الخوف والهلع في نفس الإنسان نتيجة تصوره أن للسحر حقيقة، وما يتبعه من أمراض وتوترات نفسية، ويمكن أن يكون بتمزيق العلاقات الاجتماعية من خلال أعمال ﴿النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ﴾ التي يضعها الناس لبعضهم البعض، فتؤدي إلى التفريق بين الأب وابنه والزوج وزوجه والقريب وقريبه، وكذلك ما ينفق على هؤلاء السحرة من أموال يعد من قبيل الشر، لأنه احتيال وأكل لأموال الناس بالباطل، فهذه وغيرها شرور نشأت من فعل ﴿النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ﴾، فأُمرنا بالاستعاذة من شرها.

– وبينت آيات الكتاب العزيز كما تدبرناها من قبل أن السحر لا حقيقة له، وظهر ذلك جلياً في المبارزة بين موسى عليه السلام والسحرة، وعليه؛ يجب فهم ﴿النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ﴾ وفق ذلك؛ حملاً لآيات الكتاب العزيز على محمل التواؤم والانسجام، وخير ما يفسر القرآنَ القرآنُ.

يقول سيد قطب "في ظلال القرآن": (والنفاثات في العقد؛ السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس، خداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر، وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء!. والسحر لا يغيّر من طبيعة الأشياء؛ ولا ينشئ حقيقة جديدة لها، ولكنه يخيّل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر، وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام "سورة طه" ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِىَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ طه:٦٥–٦٩، وهكذا لم تنقلب حبالهم

وعصيهم حيات فعلاً، ولكن خيّل إلى الناس وموسى معهم أنها تسعى إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة، حتى جاءه التثبيت، ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية، فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة.

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها، وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه، مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها الساحر، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد، وهي شر يستعاذ منه بالله، ويلجأ منه إلى حماه)[1].

أقوال بعض العلماء في أن السحر لا تأثير له في ذاته

لقد سقنا في ثنايا الحديث عن السحر أقوال بعض العلماء الأجلاء في عدم تأثيره، وإتماماً للفائدة نسوق هنا مزيداً من أقوال العلماء القائلين بعدم تأثير السحر، ومن هؤلاء:

١. العلامة الفقيه أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي في كتابه "قناطر الخيرات":

(وأما قول من قال: يقلب الساحر أعياناً وينشئ أعياناً فهو خطأ محض، لأنه لو كان في وسع الساحر إنشاء الأجسام وقلب الأعيان عما هي به من الهيئات؛ لم يكن بين الحق والباطل فصل ولا فرق، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ طه: ٦٦.

وقول من قال: إن السحر خدع ومعانٍ يفعله الساحر فيخيل إلى الإنسان أنه بخلاف ما هو به كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيراً

---

١ سيد قطب "في ظلال القرآن" ج٦ ص٤٠٠٧-٤٠٠٨.

حثيثاً حتى يخيّل إليه أن ما عاين من الأشجار والجبال سائرة معه، هذا القول ممكن سائغ)[١].

٢. الأستاذ الإمام محمد عبده وتلميذه العلامة محمد رشيد رضا في تفسير "المنار"، وإليكم نص كلام رشيد رضا:

(وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة، اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجان، وأنهم يحضرون إذا دعوا بها، ويكونون مسخرين للداعي.

ولمثل هذا الكلام تأثير في إثارة الوهم عرف بالتجربة، وسبب اعتقادهم الواهم أن الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره، ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير، وليس فيه خاصية، وإنما تلك العقيدة الفاسدة تفعل في النفس الواهمة ما يغني منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته، وهذا هو السبب في اعتقاد الدهماء أن السحر يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب)[٢].

٣. العلامة محمد حسين فضل الله في تفسيره "من وحي القرآن"، حيث يقول:

(وهذا لون جديد من ألوان الممارسات المنحرفة الضارة، التي كان يقوم بها اليهود لتخريب حياة الناس، فينشرون فيها الضرر والخرافة والفساد، وهي الممارسات التي تتمثل في اللعب على أعين الناس وعقولهم في تخييل ما لا حقيقة له، وفي الإيحاء بما لا واقع له، وفي الوسائل التي تفرق الناس بعضهم عن بعض.

---

١ الجيطالي "قناطر الخيرات" ج١ ص١٩٥.
٢ محمد رشيد رضا "تفسير المنار" ج١ ص٤٠٠.

وقد جاءت هاتان الآيتان[١] لتوضحا هذا الجانب من الصورة، في طريقة موحية تشير في مثل اللمحة الخاطفة إلى الموقف الإسلامي من السحر كمبدأ، من خلال معالجتهما للسلوك اليهودي المنحرف، فقد اعتبر السحر الذي يمارسونه لوناً من ألوان البدع الشيطانية التي ينسبها الشياطين إلى مُلك سليمان، من أجل أن يمنحوها جواً من القداسة النبوية لدفع الناس إلى ممارستها كأسرار مقدسة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، ليعطوا الملك سليمان طابعاً سحرياً يضفي عليه نوعاً من الغموض والإبهام الذي يبتعد به عن الجانب الروحي المتجسد في شخصيته، لتكون له شخصية الملك الساحر بعيداً عن شخصية النبي المؤيد من الله.

ويؤكد القرآن القضية في موقف حاسم، أن السحر فصيلة من فصائل الكفر؛ الذي إذا لم يتصل بالجانب العقيدي في دائرة الفكر؛ الكافر والمؤمن، فإنه يتصل بالجانب العملي الذي يقترب من الكفر بمدلوله ولوزامه، وهذا ما يرتفع عنه المستوى الروحي الإيماني لسليمان، فليس له أية علاقة به من قريب أو من بعيد، لأنه لم يتحرك في ملكه من موقع التحكم بالناس واللعب عليهم، بل انطلق فيه من قاعدة الحكم العدل والإيمان الفصل المرتبط بالله.

ولكن الشياطين هم الذين مارسوا الكفر في السحر، فأضلوا الناس وأفسدوا حياتهم، عندما انطلقوا يعلّمون الناس السحر، ليثيروا الخلافات والمنازعات، ويؤججوا نار العداوة والبغضاء من خلاله)[٢].

ويقول تحت عنوان "هل للسحر حقيقة":

(وقد اختلف في ماهية السحر على أقوال: ...

---

١ الآيتان هما: ١٠٢ و١٠٣ من سورة البقرة.

٢ محمد حسين فضل الله "من وحي القرآن" ج٢ ص١٤١-١٤٢.

وقيل: إنه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها، يخيّل إلى المسحور أن لها حقيقة.

وقيل: إنه يمكن للساحر أن يقلب الإنسان حماراً، ويقلبه من صورة إلى صورة، وينشىء الحيوان على وجه الاختراع... وهذا لا يجوز، ومن صدّق به فهو لا يعرف النبوة ولا يأمن أن تكون معجزات الأنبياء من هذا النوع.

ولو أن الساحر والمعزِّم قدرا على نفع أو ضرر وعَلِما الغيب لقدرا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز من معادنها، والغلبة على البلدان بقتل الملوك من غير أن ينالهم مكروه أو ضرر، فلما رأيناهم أسوأ حالاً وأكثرهم مكيدة واحتيالاً، علمنا أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك.

فأما ما روي من الأخبار أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سحر، فكان يرى أنه فعل ما لم يفعله، أو أنه لم يفعل ما فعله، فأخبار مفتعلة لا يلتفت إليها، وقد قال الله سبحانه وتعالى حكاية عن الكفار: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ الإسراء:٤٧، حاشا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كل صفة نقص تنفر عن قبول قوله، فإنه خيرة الله من خليقته، وصفوته من بريته.

وإننا نعقب على ما استفاده الشيخ المفيد من سورة الفلق؛ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ الفلق:٤، أن من الممكن أن تكون الاستعاذة أسلوباً من أساليب التخلص من الحالات النفسية التي يعيشها الإنسان من خوف أو قلق إزاء هذه الحالات، وذلك بسبب العقلية الشعبية التي درجت على اعتقاد وجود آثار حقيقة لمثل هذه الأمور، وقد يكون قريباً من هذا الجو الأحاديث الواردة في الاستعاذة بالله من أسباب الطيرة والتشاؤم إذا حدث في النفس شيء بسببها، مما يوحي بأن المعالجة ليست معالجة

لشيء حقيقي يخاف من خطره، بل هي معالجة لحالة نفسية تحدث من خلال العقائد الموروثة)[١].

٤. العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير":

(وقد استخدم الكلدان والمصريون فيه (=أي السحر) أسراراً من العلوم الطبيعية والفلسفية والروحية قصداً لإخراج الأشياء في أبهر مظاهرها حتى تكون فاتنة أو خادعة وظاهرة كخوارق عادات، إلا أنه شاع عند عامتهم وبَعُدَ ضَلالهم عن المقصد العلمي منه فصار عبارة عن التمويه والتضليل وإخراج الباطل في صورة الحق، أو القبيح في صورة حسنة، أو المضر في صورة النافع.

وقد صار عند الكلدان والمصريين خاصية في يد الكهنة، وهم يومئذ أهل العلم من القوم الذين يجمعون في ذواتهم الرئاسة الدينية والعلمية، فاتخذوا قواعد العلوم الرياضية والفلسفية والأخلاقية لتسخير العامة إليهم وإخضاعهم بما يظهرونه من المقدرة على علاج الأمراض والاطلاع على الضمائر بواسطة الفراسة والتأثير بالعين وبالمكائد.

وقد نقلته الأمم عن هاتين الأمتين، وأكثر ما نقلوه عن الكلدانيين، فاقتبسه منهم السريان "الآشوريون" واليهود والعرب وسائر الأمم المتدينة والفرس واليونان والرومان.

وأصول السحر ثلاثة:

الأول: زجر النفوس بمقدمات توهيمية وإرهابية بما يعتاده الساحر من التأثير النفساني في نفسه، ومن الضعف في نفس المسحور ومن سوابق شاهدها المسحور واعتقدها، فإذا توجه إليه الساحر سُخِّر له، وإلى هذا الأصل الإشارة بقوله تعالى في ذكر سحرة فرعون: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ الأعراف: ١١٦.

---

١ المرجع السابق ج٢ ص١٤٦-١٤٧.

الثاني: استخدام مؤثرات من خصائص الأجسام من الحيوان والمعدن، وهذا يرجع إلى خصائص طبيعية كخاصية الزئبق، ومن ذلك العقاقير المؤثرة في العقول صلاحاً أو فساداً والمفتِّرة للعزائم والمخدِّرات والمرقِّدات على تفاوت تأثيرها، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى في سحرة فرعون: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ طه: ٦٩.

الثالث: الشعوذة واستخدام خفايا الحركة والسرعة والتموج حتى يخيل الجماد متحركاً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ طه: ٦٦.

هذه أصول السحر بالاستقراء، وقد قسّمها الفخر في «التفسير» إلى ثمانية أقسام لا تَعْدُو هذه الأصول الثلاثة، وفي بعضها تداخل.

ولعلماء الإفرنج تقسيم آخر، ليس فيه كبير جدوى.

وهذه الأصول الثلاثة كلها أعمال مباشرة للمسحور ومتصلة به، ولها تأثير عليه بمقدار قابلية نفسه الضعيفة وهو لا يتفطن لها، ومجموعها هو الذي أشارت إليه الآية، وهو الذي لا خلاف في إثباته على الجملة دون تفصيل، وما عداها من الأوهام والمزاعم هو شيء لا أثر له، وذلك كل عمل لا مباشرة له بذات من يراد سحره ويكون غائباً عنه فيدعي أنه يؤثر فيه، وهذا مثل رسم أشكال يعبّر عنها بالطلاسم، أو عقد خيوط والنفث عليها برقيات معينة تتضمن الاستنجاد بالكواكب أو بأسماء الشياطين والجن وآلهة الأقدمين، وكذا كتابة اسم المسحور في أشكال، أو وضع صورته أو بعض ثيابه وعلائقه وتوجيه كلام إليها بزعم أنه يؤثر ذلك في حقيقة ذات المسحور، أو يستعملون إشارات خاصة نحو جهته أو نحو بلده وهو ما يسمونه بالأرصاد، ... أو جمع أجزاء معينة وضم بعضها إلى بعض مع نية أن ذلك الرسم أو الجمع لتأثير شخص معين بضر أو خير أو محبة أو بغضة أو مرض أو سلامة، ولا سيما إذا قرن باسم المسحور وصورته أو بطالع

ميلاده، فذلك كله من التوهمات، وليس على تأثيرها دليل من العقل ولا من الطبع، ولا ما يثبته من الشرع.

وقد انحصرت أدلة إثبات الحقائق في هذه الأدلة، ومن العجائب أن الفخر في "التفسير" حاول إثباته بما ليس بمقنع.

... ثم إن لتأثير هاته الأسباب أو الأصول الثلاثة شروطاً وأحوالاً بعضها في ذات الساحر وبعضها في ذات المسحور.

فيلزم في الساحر أن يكون مفرط الذكاء، منقطعاً لتجديد المحاولات السحرية، جسوراً قوي الإرادة، كتوماً للسر، قليل الاضطراب للحوادث، سالم البنية، مرتاض الفكر، خفي الكيد والحيلة، ولذلك كان غالب السحرة رجالاً، ولكن كان الحبشة يجعلون السواحر نساءً، وكذلك كان الغالب في الفرس والعرب قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ الفلق: ٤، فجاء بجمع الإناث، وكانت الجاهلية تقول: إن الغيلان عجائز من الجن ساحرات، فلذلك تستطيع التشكل بأشكال مختلفة.

وكان معلمو السحر يمتحنون صلاحية تلامذتهم لهذا العلم بتعريضهم للمخاوف وأمرهم بارتكاب المشاق، تجربة لمقدار عزائمهم وطاعتهم.

وأما ما يلزم في المسحور؛ فخور العقل، وضعف العزيمة، ولطافة البنية، وجهالة العقل، ولذلك كان أكثر الناس قابلية له النساء والصبيان والعامة، ومن يتعجب في كل شيء، ولذلك كان من أصول السحر إلقاء أقوال كاذبة على المسحور لاختبار مقدار عقله في التصديق بالأشياء الواهية والثقة بالساحر، قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هود: ٧، فجعلوا ذلك القول الغريب سحراً.

ثم تحف بالسحر أعمال، القصد منها التمويه وهذه الأعمال أنواع:

نوع: الغرض منه تقوية اعتقاد الساحر في نجاح عمله، لتقوى عزيمته فيشتد تأثيره على النفوس، وهذا مثل تلقين معلمي هذا الفن تلامذتهم عبادة كواكب ومناجاتها لاستخدام أرواحها، والاستنجاد بتلك الأرواح على استخدام الجن والقوى المتعاصية، ليعتقد المتعلم أن ذلك سبب نجاح عمله، فيقدم عليه بعزم، وفي ذلك تأثير نفساني عجيب، ولذلك يسمون تلك الأقوال والمناجاة عزائم –جمع عزيمة– ويقولون: فلان يعزِّم. إذا كان يسحر.

ثم هو إذا استكمل المعرفة قد يتفطن لقلة جدوى تلك العزائم، وقد لا يتفطن، وعلى كلتا الحالتين فمعلموه لا يتعرضون له في نهاية التعليم بالتنبيه على فساد ذلك، لئلا يدخلوا عليه الشكوك في مقدرته، فلذلك بقيت تلك الأوهام يتلقاها الأخلاف عن أسلافهم.

ومن هذا النوع: ضروب هي في الأصل تجارب لمقدار طاعة المتعلم لمعلمه، بقيت متلقاة عندهم عن غير بصيرة، مثل: ارتكاب الخبائث، وإهانة الصالحات والأمور المقدسة، إيهاماً بأنها تُبلِّغ إلى مرضاة الشياطين وتسخيرها، وذلك في الواقع اختبار لمقدار خضوع المتعلم، لأن أكبر شيء على النفس نبذ أعز الأشياء وهو الدين، ولأن السحرة ليسوا من المليين فهم يبلغون بمريديهم إلى مبالغهم السافلة، وقد سمعنا أن كثيراً ممن يتعاطون السحر في المسلمين يزعمون أنهم لا يتأتى لهم نجاح إلا بعد أن يلطخوا أيديهم بالنجاسات، أو نحو من هذا الضلال.

ونوع: الغرض منه إخفاء الأسباب الحقيقية لتمويهاتهم حتى لا يطلعَ الناس على كنهها، فيستندون في تعليل أعمالهم إلى أسباب كاذبة؛ كندائهم بأسماء سموها لا مسميات لها، ووضعهم أشكالاً على الورق أو في الجدران يزعمون أن لها خصائص

التأثير، واستنادهم لطوالع كواكب في أوقات معينة لا سيما القمر، ومن هذا تظاهرهم للناس بمظهر الزهد والهمة.

ونوع: يستعان به على نفوذ السحر، وهو التجسس والتطلع على خفايا الأشياء وأسرار الناس؛ بواسطة السعي بالنميمة، وإلقاء العداوات بين الأقارب والأصحاب والأزواج، حتى يُفْشِيَ كل منهم سر الآخر، فيتخذ الساحر تلك الأسرار وسيلة يُلقى بها الرعب في قلوب أصحابها، بإظهار أنه يعلم الغيب والضمائر، ثم هو يأمر أولئك الذين أرهبهم ويستخدمهم بما يشاء فيطيعونه، فيأمر المرأة بمغاضبة زوجها وطلب فراقه، ويأمر الزوج بطلاق زوجته، وهكذا.

وفي هذا القسم تظهر مقدرة الساحر الفكرية، وبه تكثر أضراره وأخطاره على الناس، وجرأته على ارتكاب المرعبات والمطوِّعات، باستئصال الأموال بالسرقة، يسرقها من لا يتهمه المسروق، ومنه أنه يفعل ذلك من خاصته وأبنائه وزوجه الذين يستهويهم السحرة، ويسخرونهم للإخلاص لهم، وينتهي فعل السحرة في هذا إلى حد إزهاق النفوس التي يشعرون بأنها تفطنت لخديعتهم، أو التي تعاصت عن امتثال أوامرهم، يُغرون بها من هي آمن الناس منه، ثم استطلاع ضمائر الناس بتقريرات خفية وأسئلة تدريجية، يوهمه بها أنه يسأله عنها ليعلمه بمستقبله.

ونوع: يُجعل اختباراً لمقدار مراتب أذهان الناس في قابلية سحره، وذلك بوضع أشياء في الأطعمة خيفة الظهور، ليرى هل يتفطن لها من وضعها، وبإبراز خيالات أو أشباح يوهم بها الناظر أنها جن أو شياطين أو أرواح، وما هي إلا أشكال مموهة أو أعوان من أعوانه متنكرة، لينظر هل يقتنع رائيها بما أخبره الساحر عنها، أم يتطلب كشف حقيقتها، أو استقصاء أثرها.

فكان السحر قرين خباثة نفس، وفسادِ دين، وشرِّ عمل، وإرعابٍ وتهويلٍ على الناس، من أجل ذلك ما فتئت الأديان الحقة تحذر الناس منه، وتعد الاشتغال به مروقاً عن طاعة الله تعالى، لأنه مبني على اعتقاد تأثير الآلهة والجن المنسوبين إلى الآلهة في عقائد الأقدمين...

وقد حذّر الإسلام من عمل السحر وذمه في مواضع، وليس ذلك بمقتضى إثبات حقيقة وجودية للسحر على الإطلاق، ولكنه تحذير من فساد العقائد وخلع قيود الديانة، ومن سخيف الأخلاق)[1].

٥. الفقيه المتكلم أبو محمد ابن حزم الظاهري في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل":

(وقد نص الله عزَّ وجلَّ على ما قلنا؛ فقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ طه:٦٦، فأخبر تعالى أن عمل أولئك السحرة إنما كان تخييلاً لا حقيقة له، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ طه:٦٩، فأخبر تعالى أنه كيد لا حقيقة له.

فإن قيل: قد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف:١١٦.

قلنا: نعم؛ إنها حيل عظيمة، وإثم عظيم، إذ قصدوا بها معارضة معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم كادوا عيون الناس إذ أوهموهم أن تلك الحبال والعصي تسعى، فاتفقت الآيات كلها؛ والحمد لله رب العالمين، وكان الذي قدر ممن لا يدري حيلهم من أنها تسعى ظناً أصله اليقين، وذلك أنهم رأوا صفة حيات رقط طوال

---

١ ابن عاشور "التحرير والتنوير" ج١ ص ٦٣٢-٦٣٧.

تضطرب، فسارعوا إلى الظن، وقدروا أنها ذات حيات، ولو منعوا الظن وفتشوها لوقفوا على الحيلة فيها، وأنها ملئت زئبقاً ولّد فيها تلك الحركات، كما يفعل العجائبي الذي يضرب بسكينه في جسم إنسان، فيظن من رآه ممن لا يدري حيلته أن السكين غاصت في جسد المضروب، وليس كذلك، بل كان نصاب السكين مثقوباً فقط، فغاصت السكين في النصاب، وكإدخاله خيطاً في حلقة خاتم، يمسك إنسان غير متهم طرفي الخيط بيديه، ثم يأخذ العجائبي الخاتم الذي فيه الخيط بفيه، وفي ذلك المقام أدخله تحت يده، وكان في فيه خاتم أخرى، يري من حضر حلقة الخاتم الذي في فيه، يوهمهم أنه قد أخرجه من الخيط، ثم يرد فمه إلى الخيط، ويرفع يديه وفمه، فينظر الخاتم الذي كان فيه الخيط، وكذلك سائر حيلهم، وقد وقفنا على جميعها.

فهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي أنهم أوهموا الناس فيما رأوا ظنوناً متوهمة لا حقيقة لها، ولو فتشوها للاح لهم الحق، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ البقرة:١٠٢، فهذا أمر ممكن يفعله النمام)[1].

فرية سحر الرسول صلى الله عليه وسلم

بعد كل هذا البيان فمن نافلة القول أن نتحدث هنا عن سحر النبي صلى الله عليه وسلم من قبل اليهود بأنه فرية لا حقيقة لها، وكذب لا ينطلي على أحد، ولم يكن لنا رغبة في بادئ الأمر أن نكتب حوله، وذلك لأمرين اثنين هما:

— أن من رسخ في قلبه مقام النبي الكريم لا يمكن أن يلج إلى تفكيره مثل هذه المزاعم التي تتنافى ومقام النبوة العظيم.

١ ابن حزم " **الفصل في الملل والأهواء والنحل**" ج٥ ص١٠٣-١٠٤.

– وورود النفي القاطع في القرآن الكريم بعدم تطرق السحر إليه عليه السلام، لأن الزعم بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان مسحوراً يستلزم بأن الوحي من قبيل السحر، وهي تهمة باطلة وجهها المشركون إلى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ المدثر: ٢٤-٢٦، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ سبأ: ٤٣.

ولكن لما رأينا بعضهم يعتمد في القول بتأثير السحر على رواية تزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره يهودي يسمى لبيد بن الأعصم، كان من اللازم علينا التعليق على هذا الموضوع، فنقول وبالله التوفيق:

جاء في الرواية عن عائشة قالت: (سُحِرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال: أشعرتِ أن الله أفتاني فيما فيه شفائي؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليَّ، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: ومَن طَبَّهُ؟ قال: لبيد بن الأعصَم. قال: فيما ذا؟ قال: في مُشط ومُشاقة وجُفِّ طَلْعةٍ ذكَر. قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذَرْوانَ. فخرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: نخلها كأنه رؤوس الشياطين. فقلتُ: استخرجتَهُ؟ فقال: لا. أمّا أنا فقد شفاني الله، وخشيتُ أن تثير ذلك على الناس شراً، ثم دُفِنت البئر)[1].

لقد تبيّن فيما مرّ بالشرح المستفيض المعتمد على أدلة الكتاب العزيز وحجج العقول السليمة أن السحر لا تأثير له أصلاً، لا على رسول ولا على غيره، وأن كل ما هنالك هو خداع يمارسه الساحر على الناس، فإن صادف نفوساً خائرة وعقولاً بليدة فإنها تسقط صريعة لهذا الخداع الماكر، وهذا أمر يتنزه عن الوقوع فيه ذوو الأفهام المستقيمة

١ البخاري (٣٠٩٥).

والأمزجة المعتدلة والنفوس السوية، فكيف بالنبي الأعظم المحفوف بالعناية الربانية والمعصوم بالقدرة الإلهية عليه صلوات الله وبركاته، فإن السحر العظيم الذي جاء به سحرة الفرعون لم يفتّ في عضد نبي الله موسى عليه السلام ولم ينل من نفسه شيئاً، فكيف بهذا السحر الساذج البسيط الذي يمارسه اليهود بسذاجة منقطعة النظير يؤثر على خاتم النبيين وسيد المرسلين عليه السلام.

ولا نرى في هذه الرواية الكائدة إلا بصقة من بصقات اليهود في تفكيرنا بغية الحط من قدر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في مقابل موسى عليه السلام، عندما قال الله تعالى في شأنه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ طه:٦٥-٦٨، ليظهروا بذلك أن موسى مع هذا الموقف الذي ذكره الله عنه هو أصلب موقفاً في مواجهة السحرة من النبي محمد عليهما السلام، وأربط جأشاً منه، وأعدل نفساً، فهذه هي الأحبولة التي أراد اليهود نصبها في التفكير الإسلامي.

ونحن نقول: إن كلا النبيين محمد وموسى عليهما السلام نبيان كريمان عظيمان، لا نفرق بينهما، ولا بين أحد من رسل الله جميعاً، ولكن كانت مواجهة موسى لسحرة فرعون عظيمة، فهم قد أتوا بسحر عظيم بنص القرآن الحكيم ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف:١١٦، ومع ذلك فهو خوف طبيعي يحدث للوهلة الأولى، وقد ثبّت الله تعالى موسى، فثبت عليه السلام وأقدم على فضح السحر وكشف ألاعيب السحرة، حتى ردهم عن غيّهم إلى دين الله فآمنوا بالله العزيز الحكيم، فهذا النوع من السحر العظيم لم يؤثر على موسى قطعاً، وإنما هو الوجل الطبيعي الذي سرعان ما انزاح عنه عليه السلام.

أما هذه الرواية فإنها تصور النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه قد وقع تحت تأثير هذا السحر الساذج البيِّن الذي لا أثر له أصلاً، (حتى كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله)، فهي رواية تصور النبي محمداً وكأنه إنسان بسيط سطحي ذو نفس مضطربة واهنة، وهذا لا يقبل من عامة الناس فكيف يليق برشدائهم، ناهيكم بمقام النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام.

فاعتبروا يا أولي الأبصار، واتعظوا يا ذوي البصائر.

كما أن الراوية تحاول أن تطعن في الوحي، فعلى هذه الرواية الكاسدة، ما يدري الناس أن هذا الذي يقوله صلى الله عليه وسلم هو كلام رب العالمين أو تهويمات نفس مسحورة.

وقد لا يمنع أن يثير اليهود وغيرهم من الظلمة المناكيد هذه الفرية الخبيثة، وأن يزعموا أنهم قد سحروا النبي صلى الله عليه وسلم، بل هذه إحدى طرائقهم السيئة للطعن في القرآن الكريم كما حكاها الله سبحانه وتعالى عنهم عندما قال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٤٧ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ الإسراء: ٤٥-٤٨، وقال: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ الفرقان: ٨-٩، هذا الزعم الأفاك لا يمنع صدوره من اليهود والمشركين، لكن ما لا يقبل أبداً أن تأتي رواية عند المسلمين تثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وقع تحت تأثير السحر، حتى أصبح يهذي ولا

يدري ما يفعل، فهذا مصادم للكتاب العزيز وصريح العقول، ومؤيد لمزاعم المشركين الذي اتهموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رجل مسحور.

ولذلك رفض محققو الأمة من مختلف مذاهبها هذه الرواية.

١. يقول العلامة أبو إسحاق اطفيش فيما نقله عنه تلميذه الدكتور عمرو النامي: (السحر الذي نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أصيب به من قبل اليهودي لبيد بن الأصم وبناته لا يصح؛ لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم لا ينال منه الشياطين؛ لأن السحر إما أن يكون من قبل الجن فنبينا صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله عصمني من الإنس والجن"، وإما أن يكون من قبل الشعوذة، فهذا أيضاً لا يصح؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أكمل الناس عقلاً وأصح الناس بنية، فعصمة الرسول عليه الصلاة والسلام من الجن مستفيضة بل متواترة.

وقد أجمع المسلمون على أنه عليه الصلاة والسلام معصوم من كل القوادح التي تتأتى للإنسان من قبل عقله أو جسمه، وهذا الذي ذهبنا إليه هو ما يراه بعض المحققين كالجصاص في كتابه "أحكام القرآن"، ولو لم يقل بهذا من أئمة العلم لكان موجب العصمة مانعاً من تأثير السحر فيه عليه الصلاة والسلام.

والذي يتبادر أن الأحاديث الواردة في هذا ليس لها ما يؤيدها من القرآن، فسورة الفلق التي يزعمون أنها نزلت في شأن السحر نزلت عندهم بمكة، والسحر وقع بالمدينة، وليس لهم دليل في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ الفلق: ٤ لأن النفاثات المراد بها عندنا النفوس النمامة، ونفثها في العقد تحدثها إلى من أوقعه الحظ في أيديها تلقي في روعه ما يوجب إثارة نفسه استفزازاً لها وإيقاعاً للشر بينها وبين أخصامها، والعُقَد جمع عُقدة، وهي كل رابطة بين شخصين كالزوجين والصديقين والصاحبين إلى غير ذلك،

وراجع كتابنا "عصمة الأنبياء والرسل" ففيه بيان كاف لا يحتاج إلى ما بعده)[١].

٢. ويقول العلامة أحمد بن حمد الخليلي: (أما سحر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام فهو مما وردت به الروايات، وتلقاه الكثيرون مع الأسف الشديد بالقبول، ودوّن في الكتب، ولكن عندما نرجع إلى التحقيق نجد أنه ليس كل ما ثبت سنده ثبت متنه، فالروايات يجب أن تنقد من جهة المتون والأسانيد معاً، فالنقد من حيث الإسناد وحده لا يكفي.

ومما هو معلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معصوماً، وحالة السحر التي حُكيت عنه لا يمكن أن تصيبه؛ بحيث يخيّل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله، ويخيّل إليه أنه يأتي نساءه وهو لا يفعل ذلك، هذه حالة لا يمكن بحال من الأحوال أن تصيب المعصوم الذي ينزل عليه الوحي من عند الله، لأن هذا مما يجعل المجرمين يشككون في الوحي، لأن الوحي على هذا يكون غير مأمون من عدم إصابته بالتحريف من جرّاء هذا الذي يزعمه هؤلاء الزاعمون.

ومن ذلك روّج لقصة الغرانيق، وما هي من الحقيقة في شيء، إنما هي خيال في خيال، ولكن تلقفها المتلقفون، وأظهروها في صورة مزوّقة تغري النفوس بقبولها، فعلينا أن نوقن بأن الرسول صلى الله عليه وسلّم معصوم من عند الله، وأن كل ما نطق به من التشريع إنما هو وحي من عنده تعالى، فلا يمكن أن يؤثر عليه سحر الساحرين، كما لا يمكن أن تتدخل الشياطين في الوحي الموحى إليه من رب العالمين حتى يخيّل للناس ما يمليه أولئك الشياطين أنه من جملة الوحي)[٢].

---

١ **تعليقات أبو إسحاق اطفيش** على **"قناطر الخيرات"** للجيطالي ص ٢٥٣-٢٥٤. تحقيق عمرو النامي. ومما قاله النامي في نقله لرأي أبو إسحاق: "سمعت للشيخ العلامة أبي إسحاق اطفيش رأياً في مسألة تأثير السحر في النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أحببت أن أثبته هنا، وهذا نصه كما أملاه عليّ".

٢ أحمد بن حمد الخليلي **"من جواب على سؤال وجه إليه"**، وهو في أصله شفهي، ضبطنا عبارته تحريراً.

٣. ويقول العلامة محمد حسين فضل الله: (فأما ما روي من الأخبار أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سحر، فكان يرى أنه فعل ما لم يفعله، أو أنه لم يفعل ما فعله، فأخبار مفتعلة لا يلتفت إليها، وقد قال الله سبحانه وتعالى حكاية عن الكفار: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ الإسراء:٤٧، حاشا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كل صفة نقص تنفر عن قبول قوله، فإنه خيرة الله من خليقته، وصفوته من بريته)[١].

٤. ويقول الأستاذ سيد قطب: (وقد وردت روايات بعضها صحيح ولكنه غير متواتر، أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة قيل: أياماً. وقيل: أشهراً. حتى كان يخيّل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن في رواية، وحتى كان يخيّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله في رواية، وأن السورتين نزلتا رقية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما استحضر السحر المقصود كما أخبر في رؤياه وقرأ السورتين انحلت العقد، وذهب عنه السوء.

ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله صلى الله عليه وسلم وكل قول من أقواله سنة وشريعة، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه مسحور، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك، ومن ثم تستبعد هذه الروايات، وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة، والمرجع هو القرآن، والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد، وهذه الروايات ليست من المتواتر، فضلاً على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح، مما يوهن أساس الروايات الأخرى)[٢].

---

١ محمد حسين فضل الله "*من وحي القرآن*" ج٢ ص١٤٧.

٢ سيد قطب "*في ظلال القرآن*" ج٦ ص٤٠٠٨.

أعمال السحر في الفقه والقضاء الجنائي

اعتبر القضاءُ والفقهُ الجنائي في عدد من البلدان الإسلامية أعمالَ السحرِ وزَعْمَ الاتصالِ بالجن لسلب أموال الناس؛ من قبيل النصب والاحتيال، الذي يتكون ركنه المادي من:

– فعل الاحتيال.

– ونتيجة هي تسليم المجني عليه لماله إلى الجاني.

– وعلاقة سببية بين فعل الاحتيال والتسليم (=النتيجة).

والطرق الاحتيالية هي: (ادعاءات كاذبة يدعمها الجاني بمظاهر خارجية من شأنها إيهام المجني عليه بأمر من الأمور التي نص القانون عليها على سبيل الحصر)[١].

والطرق الاحتيالية تتكون من ادعاءات كاذبة، ودعم الكذب بعناصر خارجية تبعث على الثقة عند المجني عليه بصدق هذه الادعاءات، فقد يحيط الشخص نفسه بمظاهر تبعث على الثقة في قدرته على الاتصال بالجان وتسخيرها في قضاء أوامره، وقد قضت محكمة النقض المصرية عام ١٩١٧م أنه إذا (توصل شخص إلى الاستيلاء على نقود من آخر، بطريقة إيهامه بأنه قادر على استحضار الجن لإرشاده عن كنز مدفون في منزله، وكان يستعين على إقناع المجني عليه بإحداث أصوات وتحريك أدوات واستخدام بعض الأشخاص، فعدت المحكمة المتهم مرتكباً لجريمة النصب)[٢].

وقضت محكمة النقض المصرية عام ١٩٤٢م بأنه (إذا تظاهر المتهم باتصاله بالجن والتخاطب معهم واستخدامهم في أغراضه، واتخذ لذلك عدته من كتابات وبخور، ثم أخذ يتحدث إلى بيضة ويرد على نفسه بأصوات مختلفة، ليلقي في روع المجني عليه أنه

---

١ العاني "*الجرائم الواقعة على الأموال في قانون الجزاء العماني*" ص ١١١. وانظر أيضاً: عبدالعظيم مرسي "*شرح قانون العقوبات*" ص ٣٧٠.

٢ عبدالعظيم مرسي "*شرح قانون العقوبات*" ص ٣٧٠.

يتخاطب مع الجن، حتى حصل بذلك منهم على مالهم بدعوى مساعدتهم في قضاء حاجاتهم؛ فإنه يعدّ مرتكباً لجريمة النصب)[١].

وقانون الجزاء العماني في المادة (١/٢٨٨) نص على أن (يعاقب بالسجن من ثلاثة أشهر إلى سنتين، وبالغرامة من عشرة ريالات إلى ثلاثمائة، كل من حصل من الغير على نفع غير مشروع لنفسه أو للآخرين باستعماله إحدى الطرق الاحتيالية).

من هذه المادة يتبين أن المقنن العماني اعتبر المعيار الشخصي في تحديد وقوع الاحتيال من عدمه، أي أن الاحتيال يتحقق متى ما وقع الخداع، ولا تهم درجة فطنة وذكاء المجني عليه.

وعاقب القانون أيضاً على الشروع[٢] في الاحتيال حيث نصت نفس المادة (٢/٢٨٨) على أن (يتناول العقابُ محاولةَ ارتكاب هذا الجرم).

والقانونيون بذلك قد حسموا أمر الجدال الدائر بين الفقهاء، باعتبار قضايا ادعاء الاتصال بالجن واستخدام الوسائل السحرية في خداع الناس من جملة الخزعبلات التي لا حقيقة لها، وإذا ارتبطت بالحصول على منفعة من الناس عدوها جرائم يعاقب عليها القانون.

وفي رأينا أن القوانين الجنائية المعاصرة قد أصابت في تجريمها لهذه الأفعال ووضع عقوبة لها، وليت الفقهاء المشتغلين بعلوم الشريعة يراجعون حساباتهم في ذلك، ويضعون حدّاً لهذا الدجل المستمر باسم الدين، ويساهمون في قطع دابر المتاجرين بالدين والمستغلين له في أكل أموال الناس بالباطل.

١ انظر: **المرجع السابق** ص ٣٦٩-٣٧٠.

٢ الشروع في الجريمة كما ورد في م٨٥/جزاء عماني: (القيام بأفعال ترمي مباشرة إلى اقترافها).

هذا ؛ وقد ذهب اتجاه في الفقه إلى الحكم على الساحر بالقتل، فقيل: (يُقتل ولو تاب)، وقيل: (إذا تاب لا يُقتل)[١] ، وقد استدل هؤلاء بما رُوي عنه صلى الله عليه وسلم: (حدّ الساحر ضربة بالسيف)[٢] ، وهذا الحديث مما انفردت به بعض المجموعات الحديثية دون الأخرى، فلم يعرفه الإباضية في مصنفاتهم الحديثية الأولى كمسند الربيع ومدونة أبي غانم الخراساني، وكذلك الحال بالنسبة إلى المحدثين الآخرين، فلم يروه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم، فـ(الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم)[٣] راوي هذا الحديث، وهذا الإعراض ؛ أو حتى عدم العلم بهذه الرواية –على فرض صحة سندها– من كل هؤلاء العلماء في موضوع يمس أمراً خطيراً ؛ وهو موضوع الدماء، يدل على أنه لا يمكن اعتباره مثبتاً لحدٍّ من الحدود، وهو بهذا المستوى من حيث طبيعة النقل، إذ لا ريب أن هذا الحكم وأمثاله ليس مما يختص به أفراد بأعيانهم، بل هو من التشريع الذي ينبغي أن يصل عموم الناس، ولذلك هو لا يرقى لأن ينشئ حكماً بهذا الحجم من الخطورة.

فلم ينص على حكم قتل الساحر في كتاب الله ولا في سنة مجتمع عليها بين المسلمين مما يعقلونه من الكتاب، فـ(لم يأت أمر صحيح بقتل الساحر، فبقي على تحريم الدم)[٤] ، وكما أسلفنا من خلال النظر في آيات الكتاب العزيز أن السحر هو مجرد تخييل وخداع بصري لا حقيقة له في ذاته، فلماذا تحدد له مثل هذه العقوبة الشديدة؟!.

وهذا الحديث ضعيف من جهة الإسناد، فمداره على إسماعيل بن مسلم، قال الترمذي: (هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي

١ محمد بن يوسف اطفيش "*شرح النيل وشفاء العليل*" (ج٦/ق٢) ص١٦٠.
٢ *الترمذي* (١٤٦٠).
٣ الحاكم "*المستدرك*" ج٤ ص ٤٠١.
٤ ابن حزم "*المحلى*" ج١١ ص٤٠١ .

يضعف في الحديث)[١]، وقال ابن عبدالبر: (وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "حد الساحر ضربة بالسيف" إلا أنه حديث ليس بالقوي، انفرد به إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم)[٢].

وقد ذهب بعضهم إلى تعليل هذا الحكم بأن الساحر يكون بفعله للسحر كافراً مرتداً فيستحق بذلك القتل، وهذا التعليل فيه نظر، لأن محاولات التخييل البصري ليست كفراً، قال النووي: (فعمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد سبق فى كتاب الإيمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدّه من السبع الموبقات، وسبق هناك شرحه، ومختصر ذلك أنه قد يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً بل معصيته كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضى الكفر كفر، وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام)[٣].

ويقول ابن حزم: (إذ ليس كل ما ضر المرء يكون به كافراً، بل يكون عاصياً لله تعالى، لا كافراً ولا حلال الدم)[٤].

ولأجل هذه الاعتبارات لا نرى إيقاع عقوبة القتل على من يقوم بالأعمال السحرية، وهذا مذهب جماعة من الفقهاء، وإنما يكتفى بالعقوبة التعزيرية حسب نظر أولياء الأمر.

قال ابن رشد: (وقد اختلف في هذا الباب في حكم الساحر، فقال مالك: يُقتل كفراً، وقال قوم: لا يقتل)[٥].

---

١ سنن الترمذي ج٤ ص٦٠.

٢ ابن عبدالبر"الاستذكار" ج٨ ص١٦٠.

٣ النووي "شرح النووي على صحيح مسلم" ج١٤ ص١٧٦ .

٤ ابن حزم "المحلى" ج١١ ص٣٩٩ .

٥ ابن رشد "بداية المجتهد" ج٢ ص ٣٤٤.

(وقال الشافعي: إنما يُقتل السَّاحرُ إذا كان يَعمل من سِحرِه ما يبلغ الكفر، فإذا عَمِلَ عملاً دون الكفر فلم يرَ عليه قتلاً)[١].

ومن الحنابلة يقول أبو حفص عمر بن علي الدمشقي: (السحر من الشَّعْوذة والآلات العجيبة المنبنية على النسب الهندسية، وأنواع التخويف والتقريع والوهم، فكل ذلك ليس بكفر، ولا يوجب القتل)[٢].

(وحُكي أيضاً عن العترة وأكثر الفقهاء أنه (=السحر) لا حقيقة له ولا تأثير لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾)[٣]، ولازم مذهبهم أن الساحر لا يقتل.

والإباضية على طول خطهم السياسي في الحكم لم يروَ عنهم أنهم قد حكموا بقتل ساحر، يقول العلامة خميس بن سعيد الشقصي، وهو أحد أعمدة الحكم ورأس أهل العلم في زمانه: (ومن أظهر سحره وكان مشركاً بالله فيحل قتله إن لم يتب.

وعن أبي سعيد الكدمي رحمه الله أنه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اقتلوا الساحر والساحرة"، فاختلف أهل العلم في تفسير ذلك.

فقول: إذا صحّ عليهما ذلك؛ كانا من أهل الشرك أو أهل الإقرار.

وقول: لا يقتل إلا أهل الشرك والمجوس.

ومَن خطّأ مَن يقول في الدنيا سحر، فلا نعلم في كتاب الله تعالى، ولا في سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولا إجماع أهل العدل؛ دليلاً يثبت السحر موجوداً في وقت من

١ سنن الترمذي ج٤ ص ٦٠.

٢ عمر بن علي الدمشقي "تفسير اللباب في علوم الكتاب" ج١ ص١٣٠٥.

٣ الشوكاني "نيل الأوطار" ج٧ ص٣٦٣.

الأوقات في شخص بعينه، ولا يوجب نفيه وعدمه، والمتكلّف لإثبات ذلك ونفيه متكلّف لما لا يدركه بصحة دليل، إلا أنه إن نفى أنه لا سحر، كان بذلك مبطلاً.

وإن قال: إنه لا سحر اليوم كان بذلك مقلداً.

ومَن خطّأ مَن قال: إنه سحر. وهو مبتدئ بالتخطئة لما لا حجة له فيه، وهو أولى بالتخطئة إذا وجب الخطأ على ما هو أولى به)[1].

فالكدمي والشقصي وهما من كبار فقهاء المذهب الإباضي، لا يحسمان الحكم على الساحر بالقتل، وإنما يعلقانه في بعض الأقوال بالشرك، أو أن يكون الساحر متلبساً بالشركيات المخرجة من الملة، وهذه مسألة أخرى ليس هنا محل الحديث عنها، بل إن إثبات سحر الساحر أمر ظني، فكيف بفعله الذي لا يخرج عن كونه شعوذة لا تأثير لها على الآخرين؟، بل نجد في أقوال الكدمي مناقشة مهمة جداً وهي مدى ثبوت السحر أساساً بدون دليل قطعي من كتاب أو سنة أو إجماع على حصوله في وقت من الأوقات، وعند شخص بعينه، هذه المناقشة تفضي إلى شك لا يخفى، تنبو الشريعة الشريفة عن اعتماده في سفك دم معصوم أصلاً، فالحدود تدرأ بالشبهات، كما هو معلوم من قواعد الحيطة في الشريعة الخاتمة.

وإذا عرفنا أن من أصول الإباضية -كسائر إخوانهم المسلمين- عصمة دم الإنسان ولا سيما المسلم، ولا يجوز سفكه إلا بوجه حق متيقن منه، فإنه يتخرج على معاني مذهبهم عدم جواز قتل الساحر، وأما ما قد يوجد من أقوال عند المتأخرين منهم، فليس -في رأينا- أكثر من تعويلهم على الرواية القائلة بقتل الساحر، وهي ضعيفة كما رأينا، لا يمكن أن يسفك بها دم معصوم.

---

١ الشقصي "منهج الطالبين وبلاغ الراغبين" ج٢ ص١٢٨-١٢٩.

وحتى عند فقهاء الإباضية المتأخرين الذين عوَّلوا على مثل هذه الرواية نجد منهم التشدد في مسألة سفك دم الساحر، ويضعون شروطاً هي أقرب إلى منع قتله من إجازة قتله، فقد سئل الشيخ عبدالله بن محمد بن بشير المدادي عن (رواية ترفع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اقتلوا الساحر والساحرة"، ما تفسيرها؟ على ظاهرها أم لها وجه غير ذلك؟ وهل يجوز قتل الساحر إذا تبيّن سحره؟...

الجواب: وبالله التوفيق، فاعلم شيخنا أن مثل هذا من الأمور العظيمة، وأمر هذا إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن صح من أحد بعينه أنه ساحر، وأنه يأكل بني آدم، أو يغصب أرواحهم بإقرار منه بذلك، أو بشهادة عدلين من المسلمين، فجائز قتله، ويكون على يدي إمام المسلمين، فيأمر بقتله إمام المسلمين إن صح معه ذلك...

وإن لم يصح ذلك وإنما يتهم بالسحر، فلا يجوز إباحة الأنفس بالتهم ولا بالظنون، والظن فلا يغني من الحق شيئاً)[1].

وهكذا نرى الشيخ المدادي يعوِّل في قتل الساحر على القطع إن فعل الأفاعيل السحرية، إلا أن هذه الأفاعيل مجرد أوهام وظنون، والظن كما يبيِّن الشيخ بنفسه لا يستباح به الأنفس، وعلى ماذا يشهد العدول وأكل بني آدم، أو غصب أرواحهم خرافة من خرافات الأولين؟، بل تأثير السحر غير قائم أصلاً على وجه الحقيقة والواقع.

ولا عبرة كذلك باعتراف الساحر بأن سحره مؤثر، وأنه يفعل به الأفاعيل الشريرة التي تؤثر في المسحور، إذ الأوهام تفعل فعلها في عقول أصحابها، كما هو معروف، اللهم إلا إن سعى بخدائعه الماكرة إلى ما يوجب عليه حكماً ما، فهو يحاكم بحسب جنايته، ومقدار جرمه.

---

١ السعدي "*قاموس الشريعة*" ج٦ ص٣٣٨.

ثم يختم الشيخ جوابه بأن هذه الأمور غامضة غير منضبطة، ولا ريب أن الشريعة محكمة في قواعدها الفقهية فضلاً عن أحكامها القانونية التي تستلزم الدقة والعدل، فيقول: (وهذا من الأمور الغامضة، وأمر ذلك مرده إلى الله، والله أعلم بضمائر عباده وسرائرهم وظواهرهم، وهو علام الغيوب، وغداً تنكشف السرائر والضمائر، والله خبير بما يصنعون)[١].

وبهذا يتضح أن مسألة الحكم على متعاطي السحر عند الفقهاء غير محسومة بالقتل، لأنها عندهم أمور ظنية، لا يمكن أن يبنى عليها مثل هذه الأحكام الصارمة.

ولمزيد إيضاح في بيان عدم استقامة الحكم على الساحر بالقتل نقول: لو فرضنا جدلاً أن الساحر يؤثر بسحره -وهو ما نفيناه- فما هو نوع تأثيره؟.

- فهو إما أنه يقتل فعلاً بتصرفاته، فهذا أصلاً ليس بساحر، وإنما هو قاتل على الحقيقة، يقام عليه حكم القتل بعد التيقن من فعله بالطرق الحكمية المعروفة شرعاً، لا بالظنون.

- أو أنه يفعل ذلك خداعاً وتخييلاً -وهذا ما أثبتناه- أي أنه يوهم الناس بأنه يقتل إنساناً، ولكنه لا يقتله حقيقة، وإنما هو رئيٌ لأعينهم واسترهاب لأنفسهم، فهذا ساحر غير قاتل، فمن أين جاز قتله؟!.

وأما ما روي عن أحد أفاضل المسلمين أنه قتل (ساحراً بحضرة بعض خلفاء بني أمية، ولعل فيما قيل: إنه يقتل نفساً ثم يحييها. فضرب عنقه بالسيف، وقال له: احي نفسك إن كنت صادقاً. فلم يعب عليه أحد من المسلمين، بل صوبوه)[٢]، فمع تقدير صحة هذا الخبر، فإنه لا يرقى كما هو معروف من أدلة الشريعة الخاتمة إلى بناء حكم خطير يقضي بسفك دم معصوم، لأن الأحكام الشرعية منبعها الوحي الإلهي، لا أفعال الناس، ولا

١ المرجع السابق ج٦ ص٣٣٨-٣٣٩.
٢ المرجع السابق ج٦ ص٣٣٨.

أحكام بني أمية ولا غيرهم، ولا استحسان الفقهاء ولو ارتفع كعب علمهم، فأحكام الشريعة لا طريق لها إلا وحي منطوق، أو اجتهاد استل من قواعده اليقينية، وهذا حكم عظيم لا يخرج إلا من منطوق الشريعة، ولا يمكن أن يولج إليه من باب الاستحسان، وقد بيّنّا أن رواية قتل الساحر لا تثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام.

هذا؛ وقتل متعاطي السحر مارسته بعض الأمم الغابرة كاليهود والنصارى، فقد جاء في العهد القديم "التوراة" من وصايا الرب لموسى: (لا تدع ساحرة تعيش)[1]، وقد أسرف النصارى في أوروبا خلال عصورهم الوسطى قبل الثورة الفرنسية (=عام ١٧٨٩م) وبعدها في قتل الناس على السحر بالظنة، وقد استخدمت الكنيسة هذه الذريعة لتصفية خصومها ومعارضيها.

---

١ سفر الخروج (٢٢/١٨).

٥. عالم الجن

كما أسلفنا أن الغيب هو ما غاب عن إدراك حواسنا، فالقضايا التي لا يدركها الحس البشري مباشرة هي غاية في الخطورة؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يتثبت منها بالبحث والتنقيب في دائرة الوجود الطبيعي والاجتماعي؛ فقضايا الغيب لا تستمدّ البتة إلا من الله وحده عالِم الغيب، فكان لزاماً أن يكون إثبات الغيبيات بأعلى مستويات الأدلة السمعية؛ وهو القرآن الكريم، يقول الإمام أبو يعقوب الوارجلاني: (اعلم أن القرآن الحكيم أنزله الله تعالى على قلب محمد صلى الله عليه وسلم كما قال جلَّ جلاله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ الشعراء: ١٩٣-١٩٥ فثبت بالمعجزات الخارقات للعادات أنه من عند الله تعالى كما علمنا بذلك كسباً، وأما معرفتنا بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه بمكة، وبها نزل عليه القرآن الذي في أيدينا، وهو ذلك القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فمعرفة كل ذلك من الضروريات من جهة التواتر، وأما العلم أنه من عند الله فكسب، وأن العلم بأنه تحدى به العرب فعجزت فضرورة)[1].

والغريب أن الواهمين بالخرافة والهائمين بها يدّعون لخرافاتهم أنها أمر يجب التسليم به كالغيب، لكن هناك فوارق جوهرية بين الغيب والخرافة، منها:

١. أن إثبات الغيب لا يكون إلا بالأدلة السمعية اليقينية القطعية، والأدلة السمعية القطعية هي القرآن الكريم والسنة المتواترة، والخبر المتواتر هو (ما نقلته جماعة عن جماعة متصلة فيما بين المخبر والمخبَر عنه، مما لا يصح عليه التواطؤ، ولا التساعي على الكذب، ولا اتفاق الهمم، ولا دعاهم إلى ذلك اعتقاد مذهب، ولا إلحاد، يكون أصل

١ الوارجلاني "العدل والانصاف" ج١ ص١٤١.

علمهم بذلك عن مشاهدة، ولا يعتبر في ذلك صفات المخبرين من عدالة وغيرها، واتفقوا على اعتبار وجود العقل فيهم)[١].

من هذا التعريف للمتواتر يتبين أنه لابد من أربعة شروط:

أولها: العقل، والثاني: المشاهدة، والثالث: العدد، والرابع: استحالة التواطؤ على الكذب.

ولكي يستحيل التواطؤ على الكذب لابد أن يكون الرواة من بقاع شتى ومذاهب مختلفة، وأن يكون التواتر لفظياً وليس معنوياً فقط، إذ الغيبيات الثابتة بالأدلة السمعية مما وصل علمه إلى الجميع لا ينفرد به أحد عن أحد.

هذا من حيث التقعيد النظري الذي يقرّه شرع الله والعقول السليمة، أما من حيث الوقوع فباستقرائنا للسنة المتواترة وجدنا أنها لم تأتِ قط بعقيدة ليست هي في كتاب الله، ولذلك نقول إن العقيدة لا تؤخذ إلا من الدلالات القطعية المحكمة من القرآن الكريم؛ دون المتشابه منه، بل أمرنا الله تعالى أن نردّ المتشابه إلى المحكم، وذلك عندما جعل آيات من القرآن المجيد هنّ أم الكتاب، والأم هي الأصل الذي يجب أن يرجع إليه، قال جلّ وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ آل عمران: ٧.

٢. بينما تعتمد الخرافة في إشاعة وجودها المزعوم على مصادر لا ترقى إلى المستوى الذي عليه إثبات الغيبيات، فهي تعتمد على روايات آحادية يتفرد بها البعض دون الآخرين، أو هي نتاج الإشاعات والأقاويل الشفهية التي لا يعلم مصدرها، أو هي رؤى منامية يراها البعض، وتتحول بمرور الزمن إلى قناعات من الصعب اقتلاعها.

---

١ الشماخي "الايضاح" ج٢ ص٢٧١.

وعالم الجن خير مثال يمكن أن نطبقه في هذا المقام، وذلك لأن الجن من أخصب العوالم التي أثارت الخيال الإنساني وقفزت به بعيداً عن الحقيقة.

الجن مخلوقات مغيبة عن الوجود الإنساني، لذا فهم من عالم الغيب، نؤمن قطعاً بوجودهم كما أخبرنا الله تعالى عنهم ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ الجن: ١، فمن أنكر وجودهم لا يعدّ مُسلِماً بإجماع، لكن ما هي حدود العلاقة بيننا وبينهم؟.

دعونا نبدأ بتطبيق المنهج الصحيح:

– يقول الله تعالى:

١. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الأنعام: ١٠٠.

٢. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ سبأ: ٤١.

٣. ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ الجن: ٦.

هذه الآيات الكريمة تدل على أن هناك من الناس من يعبدون الجن، أو أنهم كانوا يعوذون بهم ظناً منهم أن لديهم طاقات تفوق طاقات البشر؛ فيعوذون بهم خوفاً منهم، فعاب عليهم القرآن الكريم ذلك، وحذرهم من الوقوع في هذه الضلالات.

– ويقول تعالى:

٤. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ

رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الأنعام: ١٢٨.

٥. ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ الأنعام: ١٣٠.

٦. ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: ٣٨.

تدل هذه الآيات على أن الجن يبعثون يوم القيامة ويحاسبون على أعمالهم مثل البشر.

– وقوله تعالى:

٧. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ الكهف: ٥٠.

يتحدث عن قصة إبليس وعصيانه لرب العالمين، وأن إبليس الذي آلا على نفسه إلا أن يضل بني آدم هو من الجن.

والآيات الكريمة:

٨. ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ النمل: ١٧.

٩. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ النمل: ٣٩.

١٠. ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ سبأ: ١٤.

تتحدث عن الجن الذين كانوا في مملكة سليمان وتحت إمرته؛ في ملك آتاه الله إياه لم يؤته أحداً غيره.

– والآيتان الآتيتان:

١١. ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ الأحقاف: ٢٩.

١٢. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦.

تبيّنان أن الجن والإنس خلقوا لعبادة الله، وأن من الجن من آمن بالإسلام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

هذه النصوص من كتاب الله العزيز هي أهم ما ورد في طبيعة عالم الجن وعلاقتهم بعالم الإنس.

ومن خلال دراسة الدلالات التي قدمتها كل هذه النصوص يتبيّن لنا أن:

– الجن مثل الإنس مخاطبون بالشرائع السماوية، ويبعثون يوم القيامة، ويحاسبون على أعمالهم مثل البشر.

– إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، فالشياطين –من غير البشر– وهم أعوان إبليس لا يعدون أن يكونوا من الجن أيضاً.

– النبي سليمان عليه السلام أوتي ملكاً لم يؤته أحد قبل، ومن مظاهر ملكه تسخير الجن لخدمته.

– الجن لا يمتلكون تلك القوى الخارقة التي يتصورها كثير من الناس، والآيات القرآنية التي استعرضناها لا تتحدث على الإطلاق عن أي تلاق مادي بين عالمي الإنس والجن.

– الجن لا يعلمون الغيب، ولذلك يجب شرعاً رفض ادعاءات البعض كالكهان والبصّار و"متعاطي الأسرار" وغيرهم؛ بأنهم يتصلون بالجن، فيعرفون منهم أموراً مغيبة، كأماكن المسروقات وماهيتها وسرّاقها، وهو المعروف بـ"الحورة"، أو أن الجن أخبروه عن مرض فلان، وما سببه، ونحو ذلك من الأمور، يقول القاضي محمد بن شامس البطاشي:

ومتعاطي العلم بالمغيّبِ فقم إليه مسرعاً وكذّبِ
وهو من الكهانة المعلومةْ وحالها بين الورى مذمومةْ
كقوله في سارق قد اختفى أدلكم عليه حيث انصرفا
وقوله في مدنف[1] مضطرِ ضرره في البيت أو في القفرِ
وهكذا من يصرع الإنسيا ويدخلن في جوفه جنيا
يخبره عن حادث يسأله عنه فذا في المنع أيضاً مثله
والحق فيما قاله[2] وقد سبقْ إليه قطب العلما وهو الأحق[3]

وقد افترض الكثيرون ممن يؤمنون بوجود علاقات مادية بين عالمي الجن والإنس إمكانية رؤيتنا للجن، وإمكانية تلبسهم ببني البشر، وبالغ بعضهم فقال بإمكانية التزاوج بين

---

١ المدنف: المريض.

٢ يقصد هنا الإمام نورالدين السالمي.

٣ محمد بن شامس البطاشي "سلاسل الذهب" ج١ ص٤٦٠.

أفراد العالمين، وكل هذه الافتراضات تؤيد بقصص تروى هنا وهناك عن وقوع ذلك، استجلبت من "وكالة قالوا" مجهولة المصدر!.

نأتي لتحليل هذه القضايا واحدة واحدة:

أ- رؤية الإنس للجن:

من خلال قراءة النصوص القرآنية السابقة عن الجن وعالمهم يتبيّن لنا أنه لا توجد علاقة مادية بين الجن والإنس، سواء برؤيتهم أو ملامستهم وما شابهها، سوى ما جاء من تسخير الجن لسليمان عليه السلام، وهذا الأمر بالنسبة إلى سليمان عليه السلام كان أحد مفردات المُلك الذي دعا الله أن يهبه إياه ولا يكون لأحد من بعده، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ النمل: ١٧، وقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ سبأ: ١٢.

بل إن الكتاب العزيز ينفي صراحةً أن يرى الناس الشياطين (=وهم من الجن) ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ٢٧.

قال عثمان بن أبي عبدالله الأصم: (فمن قال: إن الجن يُرَوْن فقد كذّب بالقرآن، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ الأعراف: ٢٧...

ومن قال: إن الجن يراهم بنوا آدم، ويكلمونهم، وأن السحرة ينقلبون حماماً.

قال أبو محمد: إن تاب وإلا بريء منه.

قال الشيخ أبو محمد: وقد قال بعض: إن الجن يراهم بنو آدم ويكلمونهم، وأن السحرة ينقلبون حماماً.

قال: وأقول: من تاب ورجع عن قوله هذا وإلا برئ منه.

قال الشيخ أبو محمد: لا يجوز لأحد أن يقول: إن أحداً من بني آدم يرى إبليس -لعنه الله- لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ الأعراف: ٢٧[1]، وكلام الأصم وابن بركة يحمل على أولئك الذين يكذبون في ادعاء ذلك، أما من كان سبيله إلى ذلك الوهم والخيال فنسعى جاهدين إلى تصحيح تصوراته دون اللجوء في حقه إلى مثل هذه الأحكام الصارمة.

من خلال النظر الكوني يتبيّن لنا أننا نمارس حياة طبيعية جداً نرى فيها بني البشر والحيوانات والطيور من ولادتنا إلى مماتنا، والجن في عالمهم نؤمن بهم ولا نراهم، وما نسمعه يدور حول أن فلاناً رآهم، وأن علاناً تزوج منهم، مجرد أقاويل عارية عن الأدلة والبراهين، وتبقى الحياة الكونية المألوفة لدينا أننا لا نراهم، (لأنهم لا يدركون بعيان)[2]، ومجرد القيل والقال لا يكفي لخرق هذا الأمر الغيبي الذي يحتاج منا إلى اليقين من الأدلة السمعية، بل ذلك لا يجوز شرعاً.

والنبي صلى الله عليه وسلم وهو ذو المقام الرفيع لم يَذكر القرآن الكريم أنه عليه السلام رأى الجن، إنما ذكر أنه أُوحي إليه أن الجن استمعوا إلى القرآن، قال تعالى ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ الجن: ١، وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا

---

١ السعدي "*قاموس الشريعة*" ج٦ ص٣٢٩-٣٣٠.

٢ مهنا البوسعيدي "*لباب الآثار*" ج١ ص٢٥٢.

إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ الأحقاف: ٢٩.

(وقد أجاد التابعي الكبير الإمام جابر بن زيد حين أحال قضية تكليم النبي صلى الله عليه وسلم الجنَ إلى عالم الغيب، حيث قال: يروى عن عبدالله بن مسعود ليلة الجن في إجازة النبي صلى الله عليه وسلم له أن يتوضأ بالنبيذ، قد سمعت جملة من الصحابة يقولون: ما حضر ابن مسعود تلك الليلة، والذي رفع عنه كذب، والله أعلم بالغيب.

فهو يؤكد أن ما نسب إلى ابن مسعود رضي الله عنه غير صحيح، وفي نفس الوقت يرشد الأمة إلى أن قضية الجن هي من قضايا الغيب التي لا يقطع فيها إلا بالدليل القطعي الذي يمثله النص القطعي المتواتر في ثبوته ودلالته من الكتاب أو السنة المتواترة التي لا يشك في تواترها، أو النقل القطعي من الواقع والحس والمشاهدة)[١].

واستحالة رؤيتهم نسب (إلى المعتزلة وإلى الشافعي، وبه قال بعض أصحابنا)[٢] الإباضية.

ومن خلال تتبعنا لتحقيقات الإباضية المعتبرة وجدناهم بين ناف لرؤية الجن كابن بركة وعثمان الأصم وأحمد بن مفرج[٣] وغيرهم، لقيام الدليل القطعي بذلك، وهذا الذي يجب أن يصار إليه، نزولاً عند أدلة الشرع الحنيف، وبين متوقف من دون قطع بالرؤية وعدمها كأبي سعيد الكدمي حيث قال: (يعجبني الإمساك عن هذه المسألة وإغلاق أمرها، وترك التكلف فيها)[٤]، ولعل ذلك وقع لديه نتيجة تعارض الأدلة، وذلك بين

---

١ زكريا المحرمي "*قراءة في جدلية الرواية والدراية*" ص١٦٩ . وانظر الربيع (١٦٧).

٢ السالمي "*معارج الآمال*" ج٣ ص٢٩٠.

٣ *المرجع السابق* ج٣ ص٢٩١.

٤ *المرجع السابق* ج٣ ص٢٩١.

الآية النافية لرؤية البشر للجن وبين بعض الروايات المنسوبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام التي تقول ذلك.

والصواب أن هذه الروايات لا يمكن اعتبارها في إثبات القضايا الغيبية، لأنها قضايا تحتاج كما قلنا إلى الدليل القطعي، وإذا لم يقم الدليل القطعي على إثبات أمر الغيب، فيصار شرعاً إلى عدم إثباته، كيف وقد نصَّ القرآن على عدم إمكان رؤية الجن.

ولم نجد لدى الإباضية تحقيقاً علمياً معتبراً يثبت رؤية الجن؛ إلا كلاماً عاماً من مثل: (لأن سليمان عليه السلام رآهم عياناً لا تخييلاً، وهو من بني آدم، فإذا ثبت ذلك لم يمنع أن يراهم غيره)[1]، وهذا الكلام مع جلالة قدر قائله لا يمكن اعتباره لأمرين:

١. لم يأتِ دليل قطعي من كتاب الله ينصّ على رؤية سليمان عليه السلام للجن، وأما ما استدل به في ذلك من نحو قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ النمل: ١٧، وقوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ النمل: ٣٩، وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ سبأ: ١٢، فلا قطع في هذه الآيات الكريمة برؤيتهم، حيث لم ينصّ سبحانه وتعالى أن سليمان رءاهم، إذ يمكن أن يحدث كل ذلك دون أن يراهم، فكم من الأشياء التي سخَّرها الله للبشر، وهي تعمل بين يديهم، بل وقد تعمل داخل أجسادهم، واستغلوها استغلالاً كبيراً دون أن يروها كالكهرباء وسائر أنواع الطاقة، وغيرها.

ثم إن الجن حضروا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعوا إلى الوحي منه، ثم انطلقوا داعين قومهم إلى دين الله، وعليه السلام لم يرهم وإنما علمهم عن

---

١ المرجع السابق ج٣ ص ٢٩٠.

طريق الوحي، ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ الجن: ١، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ الأحقاف: ٢٩.

ومثل ذلك أيضاً قولهم: (لا ترونهم كلما شئتم، بل قد ترونهم قليلاً موافقة ولو على تحقق بلا تخييل، كما يراهم سليمان عليه السلام وهو من البشر)[١]، والتعليق عليه كسابقه، كما أن الآية لم يرد فيها استثناء للقليل ولا لغيره، والشيخ اطفيش ينقل في ذلك تعليلاً لطيفاً حيث يقول: (وليس عدم رؤيتنا إياهم للطافة أجسامهم وعدم ألوانهم، بل لأن الله عزَّ وجلَّ حجبهم عنا، ولم يخلق فينا قوة إبصارهم)[٢]، أي أن مسألة عدم رؤيتهم ليس مرده طبيعة الجن إنما إلى أمر رباني.

٢. ثم لو قلنا برؤية سليمان عليه السلام للجن، فلا يعني ذلك أبداً أن غيره من الإنس يراهم، كيف يكون ذلك وقد نصّ الله على عدم رؤية الإنس للجن، فرؤية سليمان لهم -عند مَن قال بها- هي من خصائص ملكه التي لا تنبغي لأحد غيره، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ص: ٣٥.

وفي (مناقب الشافعي للآبري أن حرملة قال: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: من زعم من أهل العدالة أنه يرى الجن أبطلنا شهادته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ إلا أن يكون الزاعم نبياً)[٣]، قلنا: إن قول الإمام الشافعي: "إلا أن يكون الزاعم نبياً" احتراز في محله فيما لو ثبت ذلك عن نبي على سبيل القطع، وهو ما يحتاج إلى إثبات، والله أعلم.

---

١ محمد بن يوسف اطفيش "تيسير التفسير" ج٤ ص ٤٢.

٢ المرجع السابق ج٤ ص ٤٢.

٣ السقاف "صحيح شرح العقيدة الطحاوية" ص٤٤٨-٤٤٩.

وعدم رؤيتهم هو مذهب الشافعية تبعاً لإمامهم، حيث (قالت الشافعية: إن الإنس لا يرونهم، لأن الله لم يخلق الإدراك الصالح لرؤية الجن في عيون الإنس)[1].

(وقال الزمخشري: إن الجن لا يراهم أحد، ولا يظهرون للإنس، وإن ادعاء رؤيتهم زور)[2].

ب- تلبس الجن بالإنس:

درج الكثيرون عند مناقشة هذه القضية على الكلام عن إمكان ذلك أو عدم إمكانه، وهذه المناقشة فيها بُعد عن إعطاء المسألة فهمها الصحيح، فعلينا أولاً قبل الولوج في هذه الجزئية المتعلقة بأمر غيبي أن نتناولها من باب: هل المسألة مثبتة بأدلة سمعية يقينية أو لا؟ فإذا كان الأمر بالإيجاب سلّمنا بذلك، وإذا كان بالنفي حسمنا الأمر بعدم التلبس، وندع الجن في حالهم ونشتغل نحن بأحوالنا.

وهذا هو الحق، فـ(مسألة دخول الجن في جسم الإنسان ليس لها استناد شرعي في الحقيقة، لا من الكتاب ولا من السنة، وقد أُلّف فيها كتب خاصة كـ"آكام المرجان" وغيره، فأنت إذا جمعت ما يستدل به القائلون بصحة دخول الجن في جسم الإنسان لا تجد إلا التأويل إذاً والتخمين)[3].

والبعض يقول: إنكم تردون دخول الجني في الإنسي لأنكم تقيسون ذلك بعقولكم، ولأنها لا تستوعب ذلك ترفضونه.

---

١ السالمي "*معارج الآمال*" ج٣ ص٢٩٢.

٢ *المرجع السابق* ج٣ ص٢٩١.

٣ *تعليقات أبو إسحاق اطفيش* على "*جوهر النظام*" ج٤ ص٥٨٧ للسالمي.

فنقول: ليس الأمر كما يتصور هؤلاء، فأمر الجن أمر غيبي حقه التسليم، والتسليم لا مدخل فيه للقياس، بل فيه الدليل القطعي عن الله، فلو وجدناه عزَّ وجلَّ يخبرنا من طريق القطع أن الجن يدخلون في الإنس لسلّمنا لذلك بدون الولوج في جدل إمكان "دخول جسد في جسد" أو غير ذلك، لأن الله تعالى لا يخبرنا إلا بالصدق والواقع، ولكن هيهات هيهات، فقد سُدّ باب نزول الوحي، ولم يبق أمامنا إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا قول ربنا في كتابه العزيز، ولا مجال عندنا للأوهام وتخرصات أهل الظنون.

فدليلنا في ذلك هو كتاب الله الحكيم، ومن ذلك (قوله تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ إبراهيم: ٢٢.

وأيضاً فلو كانوا قادرين على تخبيط الناس (=بدخولهم فيهم) وإزالة العقل عنهم؛ مع أنه تعالى بين العداوة الشديدة بينهم وبين الناس، فلِمَ لا يفعلون ذلك في حق أكثر البشرية، وفي حق العلماء والأفاضل والزهاد، لأن هذه العداوة بينهم وبين العلماء والزهاد أكثر وأقوى، ولما لم يوجد شيء من ذلك ثبت أنه لا قدرة لهم على البشر بوجه من الوجوه)[١].

ومع ذلك؛ فدليل عدم إمكانية دخول جسم الجني في جسم الإنسي بالتحليل العقلي المجرد؛ قال به فقهاء لهم وزنهم العلمي في الأمة كالعلامة أبي إسحاق إبراهيم اطفيش حيث قال: (فالمسألة إذا حلّلناها من حيث الحقيقة؛ فإننا نجد القول بثبوت ذلك دعوى، لا نصيب لها من الصحة، فالجسم الحي لا يدخل في مثله، ولو كان الجني يستطيع أن يتشكّل بحسب لطافته بالحيوان الطفيلي؛ فلا منفذ إلى الجسم وامتزاجه به امتزاج الدم، كما حملوا عليه حديث "إن الشيطان ليجري من ابن آدم..." إلخ.

---

١ السالمي "معارج الآمال" ج٣ ص٢٩٤-٢٩٥.

وما استدل به المصنف[١] من دخول الطعام في جوف الإنسان لا يُنهض شيئاً، إذ الطعام مادة ميتة والجن أجسام حية، والعجب من ميله إلى قبوله مع تحقيقه وتدقيقه، نعم؛ ميله يفيدنا مجرد استرواح منه دون الجزم، ولكن القول بنفيه هو الذي يقبل عند التحقيق...

والمس الذي ذكره القرآن والجري الذي ذكره الحديث كلاهما بمعنى الوسوسة والتخييل، وهذا باستطاعة الجن وهم أجسام نورانية في غاية اللطافة.

ولمذاهب الأعراب دخل كبير في المسألة راجت على الكثير، فاشتبه عليهم الأمر)[٢].

و(قال بعض المسلمين: محال أن يدخل الجسم في الجسم، فيكون جسمان في حيّز واحد، فيسكن الجنسان في حيّز واحد، محال سكون جنس إلى غير جنسه.

وقال بعضهم: محال أن يكون أيضاً جنسان من جنس واحد في حيّز واحد)[٣].

ولما أعيى هؤلاء القائلين بدخول الجن في الإنس حجة النقل القطعي، حاولوا أن يلبسوا ظنونهم أخاليط من الترهات لعلهم يقنعون بها أنفسهم ويسوّقونها إلى غيرهم، فقالوا هناك "دراسات!" حول الطاقة تكشف بالأشعة ظهور هذه المخلوقات، فتظهر الجن على هيئة أشكال حرارية.

ولعمر الحق ما هذا إلا ضرب من الوهم المبتوت من برهان العقل وحجة الشرع، فإن عالم الغيب لا يكشف عنه بالمقاييس الحرارية أو الإشعاعية، ولا بغيرها من ضروب أقيسة المادة، فهو يأخذ من رب السموات والأرض وحده جلَّ شأنه.

---

١ يقصد الأبيات التي ذكرها الشيخ السالمي في ذلك، انظر: *"جوهر النظام"* ج ص٥٨٧–٥٨٨.

٢ *تعليقات أبو إسحاق اطفيش على "جوهر النظام"* ج٤ ص٥٨٧–٥٨٨.

٣ الأصم *"النور"* ص٤٦٥.

من خلال قراءة النصوص القرآنية وتدبرها عن الجن وعالمهم يتبيّن لنا أنه لا توجد علاقة مادية بين الجن والإنس، سواء برؤيتهم أو ملامستهم أو تلبسهم بنا، سوى ما يتأولونه من بعض الآيات التي لا دليل فيها على ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: ٢٧٥، فقالوا: إن مس الشيطان هنا هو التلبس.

وهذا تفسير غير مقبول لأن مس الشيطان ورد في القرآن بمعنى الوسوسة والإغراء بالذنب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف: ٢٠١، وخير ما يفسر القرآنَ القرآنُ؛ دون محاولات منا لإسقاط مفاهيمنا الموروثة على النصوص القرآنية، وكذلك قوله تعالى على لسان أيوب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ص: ٤١ فسّرها قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الأنبياء: ٨٣، أي أن ما أصاب أيوب هو الضر، والضر أمر محسوس من مرض أو خوف أو نقص من الأموال والأنفس والثمرات وغيرها؛ بدليل الكثير من آيات الكتاب العزيز، ومنها: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ يونس: ١٢، ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ الزمر: ٨، ومس الشيطان هو وسوسته لأيوب عليه السلام بسبب ذلك الضر، أي أن وسوسة الشيطان كانت بسبب ما يعانيه من ضر أصابه، لكنه صبر على الضر الذي أصابه وعلى وسوسة الشيطان.

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الأعراف: ٧٣، وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ هود: ٦٤، فلا تعني هذه الآيات بأي حال منع قوم صالح عليه السلام من الدخول في الناقة، وإنما أمرهم بأن لا يمسوها بسوء.

هذا؛ وتروى بعض الروايات في إثبات دخول الجن في الإنس مما نسبوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، منها:

١. روى ابن أبي شيبة (٣١٧٥٣) والطبراني في المعجم الكبير (٦٧٢) عن يعلى بن مرة قال: لقد رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ما رآها أحد قبلي، ولا يراها أحد من بعدي، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق؛ مررنا بامرأة جالسة معها صبي، قالت: يا رسول الله؛ ابني هذا قد أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء، يؤخذ في اليوم لا أدري كم مرة.

قال: ناولينيه.

فرفعته إليه فجعله بينه وبين واسطة الرحل، ثم فغر فاه فنفث فيه ثلاثاً: بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله.

قال: ثم ناولها إياه...

٢. روى ابن ماجه (٣٥٤٨) عن عثمان بن أبي العاص قال: لما استعملني رسول الله صلى الله عليه وسلم على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي، حتى ما أدري ما

أصلي، فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ابن أبي العاص.

قلت: نعم يا رسول الله.

قال: ما جاء بك؟.

قلت: يا رسول الله؛ عرض لي شيء في صلواتي حتى ما أدري ما أصلي.

قال: ذاك الشيطان، أدنه.

فدنوت منه فجلست على صدور قدمي، قال: فضرب صدري بيده، وتفل في فمي، وقال: اخرج عدو الله. ففعل ذلك ثلاث مرات.

ثم قال: اِلحق بعملك.

قال: فقال عثمان: فلعمري ما أحسبه خالطني بعد.

٣. روى الطبراني في المعجم الكبير (٥٣١٤) عن أم أبان بنت الوازع عن أبيها؛ أن جدها الزارع انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق معه بابن له مجنون أو ابن أخت له.

قال جدي: فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، قلت: يا رسول الله، إن معي ابن لي أو ابن أخت لي مجنون، آتيك به تدعو الله عزَّ وجلَّ له.

فقال: ائتني به.

فانطلقت به إليه وهو في الركاب، فأطلقت عنه وألقيت عنه ثياب السفر، وألبسته ثوبين حسنين، وأخذت بيده حتى انتهيت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: ادنه مني، اجعل ظهره مما يليني.

قال: فأخذ بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله، فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض إبطيه وهو يقول: اخرج عدو الله، اخرج عدو الله...)[١] إلخ الرواية.

وهذه الروايات لا يمكن التعويل عليها في إثبات تلبس الجن بالإنس، لأنها من الروايات التي يرويها آحاد الرواة، مما ينفردون به عن غيرهم، وليست من باب الشرع المبلغ للجميع، فطابعها طابع ظني من حيث الثبوت، وقضية الجن من القضايا الغيبية التي يلزم فيها الدليل اليقيني في ثبوته ودلالته من الوحي (= القرآن الكريم)، وهذه الروايات دون هذا المستوى بكثير، بل لا مقارنة بينهما في ذلك، لذا لا نرى أي داع للاشتغال بنقد سندها أو تأويلها أو ما شابه ذلك؛ لأنها لا تستطيع أن تقف على قدمين في إثبات أية جزئية في هذا الباب.

أما عن النظر الكوني في المسألة؛ فنقول: إن ما يراه الناس من حالات تشنج أو انفعالات عنيفة تصيب بعض الناس؛ يحتاج منا إلى دراسة وفهم لطبيعة النفس البشرية وما تعانيه من ضغوط نفسية، تخرجها عن طورها المعتاد، أما أن نبرر عجزنا عن دراسة طبيعة النفس البشرية بأن نلقي باللائمة على الجن، فإن ذلك من الجري وراء الظنون والأوهام ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يونس: ٣٦.

والأغرب من ذلك أنه عندما يصاب إنسان بمثل هذه التشنجات العصبية التي لا يستطيعون تفسيرها، بل حتى تصور وقوعها، يحيلونها إلى دخول الجن في هذا المصاب، ويقولون لك: ها هو الجني يتكلم من داخل المصاب.

---

١ لعل هذه الرواية هي مستند البعض في ضرب من يتوهمون تلبس الجن به، وهناك حالات عديدة نشرتها العديد من الصحف أدى فيها الضرب إلى وفاة المضروب ولم يخرج منهم جني، بل غادر المضروب الحياة الدنيا، وقدم هؤلاء "المعالجون" إلى المحاكمة.

فترد عليهم: هذا مجرد وهم منكم، والحقيقة أنه نوع من الاضطراب العصبي الذي يجب أن يرجع فيه إلى الأطباء.

يفجأونك بالرد: أثبت أنه ليس بجني.

وهذا من أغرب المطالب، أن يطالبوك بإثبات العدم واللاموجود (=دخول الجني في جسد الإنسان).

ونضرب على انعكاس المفاهيم وانقلاب التفكير عند هؤلاء بهذا المثال التوضيحي:

عمرو يقف عند باب غرفة مغلقة منذ أول الصباح، فيأتي بكر قائلاً: محمد في هذه الغرفة أليس كذلك؟.

فيرد عمرو: منذ أول الصباح لم يدخل أحد هذه الغرفة، لا محمد ولا غيره، بل لم يمر أي إنسان هنا.

فيقول بكر: بل محمد داخل الغرفة منذ خمس دقائق.

فيقول عمرو: لا ؛ أبداً لم يدخل أحد الغرفة.

فيقول بكر: بل محمد داخل الغرفة، أثبت أنه ليس بداخلها.

فيرد عمرو: هذه هي الغرفة، ولا أحد فيها، وإن كنت تقول بأن أحداً في داخلها فاثبت أنت ذلك.

فيقول بكر: لا، بل أنت أثبت أنه ليس أحد فيها.

وهكذا ؛ يريد هؤلاء منا أن نثبت غير الموجود، وكان الأصل عليهم هم أن يقيموا الحجة على وجود الجن في داخل الإنسان، لا العكس.

ولكن ماذا تقول لَمّا تنعكس المفاهيم؟!.

(فانظروا معاشر المسلمين إلى معارضة من عارضنا إلى مبلغ علمه في هذه الدقائق، فما نحن وهذا المنازع إلا كرجلين تنازعا في طعم السكر، فقال أحدهما: إنه حلو. وزعم الآخر أنه حامض، وتكابرا على ذلك، فحلف كل واحد منهما على صدق قول نفسه، فطلب منهما تصديق ذلك، فأحضر القائل بأنه حلو سكراً بعينه، وقال: أطعموه. وأحضر الآخر رماناً حامضاً وقال: الآن قد حضر السكر، فأطعموه لتعرفوا أنه حامض أم لا!.

فهذا حماقة وتجاهل على أهل اللغة، فأي شيء هذا المتعلل بحموضة الرمان على طعم السكر، لأن عنده أن السكر هو الرمان!.

والواجب أن يؤخذ بيد هذا الإنسان ويرفق به، وينبه على غلطه وسوء فهمه، ويعلّم أن المعروف عند أهل العقل أن هذا الذي أحضرته ليس بسكر وإنما هو رمان، فإن قبل الحق وإلا أنزل حيث نزل، وحكم عليه بما قال وفعل)[1].

ولا يفوتنا هنا التنبيه على رواية أوردت في هذا الشأن، وهي ما رُوي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه؛ إلا مريم وابنها)، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾آل عمران: ٣٦)[2].

---

١ أحمد بن عبدالله الكندي "الجوهر المقتصر" ص١٠٩.

٢ البخاري (٤٢٧٤).

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم؛ ذهب يطعن فطعن في الحجاب)[١].

هذه الرواية التي تُنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم تقدم تفسيراً لصراخ الطفل وبكائه عند ولادته؛ وهو أن الشيطان يمسه عند ولادته أو يطعنه في جنبيه بإصبعيه كما تقول الرواية الأخرى! إلا عيسى وأمه مريم عليهما الصلاة والسلام، ثم تُختم الرواية بقول أبي هريرة راوي الحديث: إن ذلك هو تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ آل عمران: ٣٦.

الرواية من أولها إلى آخرها مرفوضة؛ وعلامات نقلها عن أهل الكتاب لا تخفى على اللبيب الفطن.

فهي تقدم تفسير صراخ الطفل وبكائه على أنه وخز شيطاني! دارت دائرته على كل البشر خلا عيسى بن مريم وأمه، وهذا التفسير تفسير غيبي لأمر من عالم الشهادة، والغيب لا يثبت إلا بالقطع من الأدلة المتواترة، لا بمثل هذه الروايات التي يرويها الواحد أو الاثنان.

ثم تستثني من مس الشيطان ووخزه عيسى بن مريم وأمه، وهذا يكاد يكون عين ما تقوله النصارى من أن عيسى بن مريم هو إله أو جزء من إله، وأن طبيعته تختلف عن بقية البشر بسبب خصائصه الإلهية، وتعلق نصيب للشيطان بكل البشر الآخرين (=بما في ذلك بقية الأنبياء) خلا عيسى وأمه عليهما السلام، يقول القس إبراهيم لوقا: (فإقرار الإسلام بأن البشر جميعاً قد زاغوا وفسدوا، وأنهم مجردون عن العصمة[٢]، معرضون

---

١ البخاري (٣١١٢).

٢ وردت في أصل الكتاب "المعصية" وهذا لا يستقيم، لعله خطأ مطبعي، والصواب ما أثبتناه، والله أعلم.

لاقتراف الخطايا والآثام، بجانب إقراره للمسيح وحده بالعصمة، وأنه مصون عن مس الشيطان، يرفع المسيح عن طبقة البشر، وبالتالي يقر بلاهوته الممجد)[1].

وتعليق أبي هريرة بأن هذا الكلام هو تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ آل عمران: ٣٦ مخالف لما جاء في كتاب الله، فالقرآن الكريم يقدم لنا الشيطان في صورة الموسوس الداعي إلى الشر، بل الشيطان يقول عن نفسه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إبراهيم: ٢٢.

وهذه هي آيات الكتاب العزيز التي تصور لنا الشيطان وأعماله التي تقتصر على محاولات الوسوسة والإغراء بالذنب وتزيينه، وقد وقعت منه هذه الوسوسة سلفاً في نفس آدم وزوجه كما حكاها القرآن، ثم تقلّب بعد ذلك في أعطافها بنوهم، دون ذكر لذلك العالم الأسطوري الذي تصوره لنا مثل هذه الروايات.

هذا؛ وقد سرت هذه التصورات الخرافية عن الجن من الأمم الوثنية القديمة، فقد (كان للمصري القديم إحساس مماثل بعالم من القوى يحيط به، فتهدهد الأم ابنها بأغنية تحميه قائلة:

يا شيئاً سارياً في الظلام، متسللاً في دخولك،

أنفك خلفك، ووجهك ملتوٍ إلى الوراء،

يا من أخفق فيما جاء إليه،

١ إبراهيم لوقا "المسيحية في الإسلام" ص٢٧. نقلاً عن عبدالجواد ياسين "السلطة في الإسلام" ص٣١٢-٣١٣.

أجئت تقبل طفلي؟ لن أدعك تقبله،

أجئت تخرس طفلي؟ لن أدعك تخرسه،

أجئت تخطف طفلي؟ لن أدعك تختطفه،

لقد جعلتُ وقايته السحرية من البرسيم والبصل والعسل)[١].

(وهذه ديانة كل الأمم المتوحشة، واعتنق هذا الدين كثير من العرب، فكانوا يعتقدون أن سبب المرض روح شرير حلّ فيه، فيداوونه بما يطرد هذه الأرواح، وإذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقذار وعظام الموتى، وإذا أراد رجل دخول القرية فخاف وباءها أو جنها وقف على بابها فنهق نهيق الحمار، ثم علّق عليه كعب أرنب، كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن، وسموا هذا النهيق التعشير، وقال الشاعر:

ولا ينفع التعشير إن حم واقع ولا زعزع يغني ولا كعب أرنب)[٢]

وهذا يجعل النظر إلى الجن هذه النظرة أمراً خطيراً في مسألة الإيمان، إذ قد يتوهم الناس أن لهم قدرات خارقة، فيرفعونهم إلى مقام الألوهية، وهذا بالضبط ما وقع للعرب، عندما زعموا أن الأصنام تحل بها قوة إلهية، قادرة على أن تقربهم إلى الله زلفى ﴿أَلا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ الزمر: ٣، بل إن بعضهم قد عبدهم بالفعل ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ سبأ: ٤١.

---

١ فرانكفورت وآخرون "**ما قبل الفلسفة**" ص٨٧.

٢ محمد عبدالمعيد خان "**الأساطير العربية قبل الإسلام**" ص٦٦.

وهو ذات ما حصل في الأمم الغابرة كالفراعنة، فقد جاء في نص مصري قديم واصفاً الآلهة التي تلج أجساد البشر والأشياء (صنع أجسادهم وفق رضاهم، فدخل الآلهة أجسادهم من كل نوع من الخشب، من كل نوع من الحجر، من كل نوع من الجبس، واتخذوا لأنفسهم بها شكلاً)[١].

وأسطورة دخول الجن في جسد الإنسان كما أنها كانت موجودة في التراث العربي القديم أذكتها كذلك الإسرائيليات الدخيلة على الفكر الإسلامي، فقد جاء في الإنجيل "العهد الجديد" أن عيسى المسيح كان يخرج الجن من الناس: (ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثياً له، وقائلاً يا سيد ارحم ابني فإنه يصرع ويتألم شديداً. ويقع كثيراً في النار وكثيراً في الماء. وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه. فأجاب يسوع وقال: أيها الجيل غير المؤمن الملتوي. إلى متى أكون معكم. إلى متى أحتملكم. قدموه إليّ هاهنا. فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفي الغلام من تلك الساعة. ثم تقدم التلاميذ إلى يسوع على انفراد وقالوا: لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه. فقال لهم يسوع: لعدم إيمانكم. فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم)[٢].

فانظروا رحمكم الله إلى مصادر الخرافة عند المسلمين، تجدون معظمها مما رمانا به اليهود والنصارى تسويقاً لبضاعتهم الزائفة في سوقنا الغافلة عن شرع الله وسننه في الكون.

والخطورة أيضاً في هذه التصورات الوهمية أنها تؤدي إلى الصدّ عن الحق واتباع ما أنزل الله، ولذلك هي من اعتقادات أهل الجاهلية التي جاء الإسلام لدحضها واجتثاثها، فقد

---

١ فرانكفورت وآخرون "**ما قبل الفلسفة**" ص٨١.

٢ **إنجيل متى** (١٦/١٤-٢٠).

كان الوثنيون الخرافيون منذ قوم نوح عليه السلام يواجهون دعوة الإيمان الحق بهذه الأسطورة الفجة.

الأنبياء الكرام يأتون لصرف الناس عن الأوهام، والخرافيون يرمون هؤلاء الأنبياء بنفس ما جاؤوا لدحضه، وهكذا هي عادات البشر تجاه كل مَن جاء لينير عقولهم ويخرجهم من ظلمات الجهل.

فقد حكى الله تعالى عن قوم النبي نوح أنهم استخدموا هذه الخرافة لحرف الناس عن اتباع الحق الذي جاء يدعوهم إلى توحيد الله وعدم إشراك غيره معه، وهي ولا ريب مواجهة عنيفة من قبلهم تجاهه، حتى أن نوحاً استصرخ بربه لنصرته عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ المؤمنون: ٢٣-٢٦.

والظاهر أن الأذهان استمرأت هذه الخرافة، فقد استمر الناس يتناقلونها حتى استخدمها مشركو العرب في محاربة الإسلام باتهام نبيه الكريم عليه السلام بها، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ المؤمنون: ٦٨-٧١، ولاحظوا التعقيب اللطيف بعد ذكر هذه الأسطورة، حيث يذكر سبحانه أن اتباع هذا الوهم يؤدي إلى فساد السموات والأرض، فعلاً؛ لو كان الكون يسير بمثل هذه الأوهام لانتقض ناموسه ولما بقي، وهكذا يبيّن الله لنا الحقائق، ولكن مَن الذي يعلمها؟ إنما يعلمها الذين يؤمنون بما أنزل على محمد صلى

الله عليه وسلم، وليس بمثل هذه الأوهام، أما الواهمون فإنهم يواصلون إشهار هذه الأسطورة في وجه النبي، قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ سبأ: ٦-٨.

وهكذا يواصل المشركون استخدام الظنون والأوهام في مواجهة الحق، بينما يحيلهم الله جلَّ شأنه إلى النظر في الكون من حولهم، وإلى ما فيه من سنن ماضية محكمة لا تتخلف أبداً، فلا يبدد ظلمات الجهل إلا نور العلم وحده، وما تشبثهم بما لديهم من أوهام يظنون أنها الحق إلا استدراج من الله لهم، نسأله تعالى السلامة والعافية وحسن الخاتمة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ١٨٢-١٨٥.

وإن لم يكفِ بعض الناس هذا الهدي الرباني في بيان أن الجن ليس من طبيعتهم التلبس بالأنس؛ فما عليهم إلا العمل بهذا الطلب الإلهي: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ سبأ: ٤٦.

وهكذا نرى أن الأوهام هي المطية التي يركبها المعاندون لصرف الناس عن الحق الذي أتى الله به في كتابه العزيز وبثه في الوجود من حولنا.

القول بتلبس الجن بالإنس أدّى إلى خرافة الزار

وقد تطورت خرافة دخول الجن في الإنس إلى ما يعرف عند الناس بحلقات الزار، وهي جلسات شعوذة ودجل تعقد لإخراج الجن من الإنسان حسب زعمهم الأيّف وفهمهم السقيم، يهان فيها الإنسان، وتهدر كرامته، ويتحول المريض بين يدي هؤلاء الدجالين إلى حالة من الجنون الهستيري.

وربما حاول ممارسو هذه الآفة الماحقة تبرير عملهم بلغة العصر فزعموا أنها من صنف الطب الروحي، وكل ذلك أوهام وخزعبلات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، يقول رشيد رضا: (ومن المصائب على البشر أن أكثر المؤمنين بطب الدين الروحي في هذه القرون الأخيرة لا يقفون عند حدود ما أنزل الله على رسوله، وما فهمه منه حملته من السلف الصالح، بل زادوا، وما زالوا يزيدون فيه من الخرافات والبدع والضلالات، ما جعلهم حجة على دينهم وفتنة للذين كفروا ينفرونهم منه، فتراهم لا يتقون الوسواس الضار الذي يجدونه في خواطرهم كما يجب، وإنما يتبعون في الجن والشياطين تضليل الدجالين والدجالات؛ كزعم أن الشياطين يُمرِضون الأجساد، ويخطفون الأطفال، وأن لهؤلاء الدجالين صلة بهم، وتأثيراً في حملهم على ترك الضرر، والمساعدة على النفع، بشفاء المرضى ورد المفقودين، والحب والبغض بين الأزواج والعشاق.

ومن ذلك الزار الذي يخرجون به الشياطين من الأجساد بزعمهم.

ولهذه الخرافات مضار ورزايا كثيرة في الأبدان والأرواح والأموال والأعراض، فهي بذلك شبهة كبيرة للماديين على المتدينين المقلدين للجهال والدجالين.

والدين لم يثبت للشياطين ما يزعمه الدجالون، ولم يثبت لهم ولا لغيرهم ما يدعونه من التصرف فيهم، وإنما يثبت كتاب الله تعالى للشياطين وسوسة، هي من الأسباب العادية للتأثير في القلوب المستعدة لها، كتأثير جُنة الهوام في الأجساد المستعدة، وأن مقاومة كل

منهما في استطاعة الإنسان، وقد أرشده إليه القرآن، وصرح في هذه الآية[١] بأن الشياطين يرون الناس من حيث لا يراهم الناس، وهؤلاء الدجالون ينفون ما أثبت الله، ويثبتون ما نفاه، ويقولون بغير علم)[٢].

(ولا حجة لشيء من هؤلاء الدجالين، الذين يأكلون أموال جهلة الناس العوام بالباطل، بولايتهم للشياطين، وولاية الشياطين لهم، وقد خوفوا الناس منهم حتى أوقعوا في قلوبهم الرعب، وأوقعوهم في ضلالات كثيرة.

إن مفاسد الزار كثيرة مشهورة في هذه البلاد، وقد وصفناها من قبل في المنار، وسببها اعتقاد الكثيرات من النساء المريضات بأمراض عادية، ولا سيما إذا كانت عصبية، أن الشياطين قد دخلت في أجسادهن، وأن صانعات الزار يخرجنهم منها بإرضائهم، والتقرب إليهم بالقرابين وغيرها.

وهذا نوع من عبادة الجن التي كانت في الجاهلية فأزالها الإسلام بإصلاحه، ولما جُهل الإسلام في كثير من البلاد وقبائل البدو عادت إلى أهلها)[٣].

ونحن نقول إن هذا الاعتقاد المنحرف لم يعد قاصراً على البداوة وحدها، بل تغلغل إلى سذاجة المدن والحواضر، وأخذ يمارسه من ينتسب إلى التدين والعلم الشرعي، والعلم منه براء، والدين لم يلامس منه شغاف قلبه.

---

١ الآية ٢٧ من سورة الأعراف، وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

٢ محمد رشيد رضا "*تفسير المنار*" ج٨ ص٣٦٧-٣٦٨.

٣ **المرجع السابق** ج٨ ص٣٦٩.

المجتمع العماني كان نظيفاً من الخرافة

لو ألقينا نظرة تأريخية على المجتمع العماني لوجدناه في أصله نظيفاً من كثير من الخرافات، ولم تلج إليه وتتوسع إلا في أوقات متأخرة، مع الاحتكاك بالمجتمعات التي تعشش فيها كثير من التصورات الساذجة للحياة المنبنية على التفسير الخرافي لمفردات هذه الحياة، وكذلك لتراجع دور النشاط التعليمي وركود الحركة الثقافية في المجتمع العماني في تلك الفترة، فقد كتبت سالمة بنت سعيد بن سلطان في مذكراتها "مذكرات أميرة عربية" ما يكشف عن ذلك، قبل حوالي قرن وربع، وهو تأريخ متأخر نسبياً مع دخول كثير من المجتمعات العربية والإسلامية عصر الركود الحضاري والانحطاط الفكري، وهذا يدلنا على نقاء المجتمع العماني في طبيعته، وأنه مهما تسربت إليه بعض الترهات فإنه قابل مع العلم والنور الذي تعيشه البلاد في هذه اللحظات التأريخية، أن يتخلص من كل ما يتعارض مع التصور السليم المبني على أدلة الشرع النقية والحجج العقلية الصحيحة، تقول سالمة بنت سعيد في نبرة ساخرة لا تخفى:

(فقد كان من نتائج غلبة الجهالة والظلام على العقول اعتقاد أكثر الناس بالأرواح الخيّرة والشريرة، وسكناها الأجساد البشرية، فما يكاد الطفل منا يولد حتى يتقمصه الشيطان ويسكن جسده، فإذا بكى الطفل أو صرخ أو جفاه النوم، ولم يعرف سبب واضح لذلك، فالسر هو ركوب الشيطان له، والواجب طرده من الجسد حالاً، وأبسط الطرق لهذا الطرد هو تعليق قلادة من رؤوس الثوم ورؤوس البصل الصغيرة حول عنق الطفل، وهي لعمري طريقة مجدية وأكيدة المفعول، فلو كان للشيطان أنف يشم به لما ظل لحظة واحدة في ذلك الجسم.

وكلا الجنسين معرضون للمس الشيطاني، ولكن النساء أكثر تعرضاً له من الرجال...

وأعراض هذا المرض هو الانتفضات العصبية، والشحوب والذهول، وفقدان الشهية للطعام، والميل إلى العزلة والظلام، وغير ذلك من الأمراض السوداوية.

وهناك حفلات ومراسم غامضة غريبة يجري اتباعها للتحقق من دخول الشيطان جسد المرأة، أو لمحاولة إخراجه منها، وتجري هذه الحفلات في غرف مظلمة قد امتلأت بدخان البخور وروائحه، وتجلس المريضة وسط حلقة من أهلها، وقد لفّ وجهها ورأسها لفاً محكماً، بحيث لا يخترقهما النور، ويحضر الحفل عادة مجموعة من النسوة اللواتي ثبت أصابتهن بالمس الشيطاني من قبل، ويتحلقن حول المريضة، ثم يبدأن جميعاً بهز رؤوسهن، وهن يغنين أغنية غريبة غير مفهومة، أكثرها ألغاز وطلاسم، ويدار على الحاضرات شراب حلو المذاق مصنوع من الحنطة والتمر، وتحت هذه المؤثرات تروح المريضة في سبات، وتبدأ بالهذيان بكلام غير مفهوم، وهي ترتجف ويخرج الزبد من فمها، وتتلوى بجسمها على الأرض.

وهذه علامة المس الشيطاني، فالروح قد ملأت جسمها، ويبدأ المتفرجون يكلمون هذه الروح، ويسألونها عن طبيعتها وعما تريد، إذ إن هناك أرواحاً خيّرة تسكن أجسام البشر لحمايتهم وهدايتهم، كما أن هناك أرواحاً شريرة تسكنهم بقصد الأذى والشر، ولا يستبعد أن تسكن الروحان معاً في جسد واحد في وقت واحد، والويل حينذاك لهذا الجسد الممزق بين الروحين المتصارعين.

والعرّافات المتمرسات يستطعن طرد الروح الخبيث بالتعاويذ والأدعية، في حين يعقدن مع الأرواح الخيّرة صلحاً ينظمن بموجبه أوقات زيارة تلك الروح لجسد المريضة.

ويتعلق بهذه الخرافات الجنونية عادات أخرى أشد وحشية وقساوة، وهي أن بعض الأرواح لا تخرج من أجسام أصحابها إلا بالقرابين والنذور، لذا تذبح الأغنام والطيور

أمام المريضة، ويطلب إليها أن تشرب من دمها الحار، وتأكل من لحمها النيّء، فلا عجب بعد هذا كله أن يتردى الحال ويصل بالمريضة إلى شفا الجنون والدمار.

والملاحظة الغريبة في هذا الشأن هو ضعف المقاومة تجاه هذه الخرافات، وقوة سيطرتها على العقول، وسرعة تغلغلها وانتشارها بين الناس، ومن الأمثلة على ذلك أن أهل عمان يستنكرون هذه الخرافات الشائعة في جزيرتنا ويرفضونها، وحين تأتي إلى زنجبار إحدى قريباتنا العمانيات، ويصل إليها خبر هذه الخرافات فإنها تستنكرها، وتشمئز منها، وتضيق بالحياة معنا، لأنها تنظر إلينا نظرتها لـ..المتوحشين.

ولكن هذه الزائرة وأمثالها سرعان ما تقع صريعة هذه الأفكار التي اشمئزت منها، وتصبح مؤمنة بها كل الإيمان، وتمارسها شأنها شأننا تماماً)[١].

فكما تلاحظون من كلام الكاتبة أن أهل عمان كانوا يستنكرون الخرافات الشائعة ويرفضونها، وكانت المرأة العمانية عندما يصل إليها خبر هذه الخرافات تستنكرها، وتشمئز منها، وتضيق بالحياة معها، لأنها تنظر إلى من يمارسها نظرتها إلى المتوحشين، وهذا دليل على طهارة المجتمع العماني في أصله من أمثال هذه الأمراض الاجتماعية والعقدية، وما يوجد فيه إنما هو عارض عليه، ومع الوعي الفكري والتربوي والتدين الصحيح غير المغلوط سرعان ما تزول هذه الأمراض بإذن الله.

---

١ سالمة بنت سعيد بن سلطان *"مذكرات أميرة عربية"* ص٢٤٣-٢٤٤.

٦. الحسد والعين

ورد الحسد في كتاب الله بمعنى تمني زوال النعمة أو سلبها[١].

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ١٠٩.

وقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ النساء: ٥٤.

وقال: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ الفتح: ١٥.

والحسد شعور نفسي قد يدفع صاحبه إلى إيقاع الضرر على المحسود، وذلك بـ (أن تحسد.. أخاك على ما في يده، وتود أن يزول ما في يده من شيء، ليكون ذلك لك دونه)[٢]، لذا أمرنا الله تعالى بالاستعاذة من شر الحاسد فقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الفلق: ٥.

وبجانب الحسد تذكر عادة ما يسمونها بالعين، التي يروون فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (العين حق)[٣]، وقد عرّفوا العين بأنها (نظر باستحسان مشوب بحسد من

---

١ **القاموس المحيط** ج١ ص ٣٥٣.

٢ مهنا البوسعيدي "**لباب الآثار**" ج١ ص٢٤٢.

٣ **البخاري** (٥٤٠٨)، **مسلم** (٢١٨٧).

خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر)[١]، وقد اختلف القائلون بتأثير العين في تكييفها إلى عدة آراء منها:

– قيل: إن العائن ينبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك.

– وقيل: العين إنما تضر عند نظر العائن بعادة أجراها الله تعالى أن يحدث الضرر عند مقابلة شخص لآخر[٢].

وهذه الآراء وغيرها سيقت قديماً وحديثاً لتفسير نظرية العين التي يفترضونها.

واستدل القائلون بهذه النظرية بروايات تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، سنأتي على مناقشتها، ولا يوجد دليل واحد في كتاب الله على هذه العين المزعومة، إلا ما حاول بعض المفسرين أن يلزّه لزّاً، وهو تفسير قوله تعالى حكاية عن النبي يعقوب عليه السلام في نصيحته لأبنائه عندما قال: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يوسف: ٦٧، حيث ذهبوا إلى أن أبناء يعقوب (لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب، وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرجل واحد، وكانوا أهل جمال وكمال وبَسْطة... إذا كان هذا معنى الآية، فيكون فيها دليل على التحرّز من العين، والعين حق)[٣]، لكن لا يقبل أن يكون هذا معنى الآية وتفسيرها، لأن الله تعالى لم يكشف لنا عن رغبة يعقوب في ذلك وقصده منه، فهي حاجة في نفس يعقوب قضاها، يعلمها من تعليم الله له وحكمه جلَّ وعلا، قال تعالى:

---

١ ابن حجر "*فتح الباري*" ج١٠ ص٢٠٠.

٢ *المرجع السابق* ج١٠ ص ٢٠٠.

٣ القرطبي "*تفسير القرطبي*" ج٩ ص٢٢٦.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف: ٦٨، وتفسيرها بالعين هو تألٍ على الله، وتسوُّر على غيبه، إذ ما الدليل على أن حاجته هذه هي خوفه عليهم من العين؟ وهل نتصور أن أنبياء الله تقرّ في نفوسهم هذه التصورات الساذجة، وهم قد جاءوا معلمين للناس ومرشدين لهم إلى الحق، وإلى سنن الله القائمة في الكون؟، وتفسيرهم هذا إنما هو من باب إسقاط المعارف الاجتماعية السائدة في العصور الغابرة على فهم القرآن الكريم.

فإن كنا مأوِّلين الآية الكريمة، فلماذا لا نأوِّلها بشيء آخر أقرب إلى دلالات القرآن، وسنن الله الماضية في خلقه، فقد وردت أقوال كثيرة في تأويلها، كل قول منها أولى أن يصار إليه في ميزان الاستنباط والتحليل العلمي في تفسير القرآن بما لا يتعارض مع نواميس الله تعالى ومحكمات سننه.

فقد قيل: (إنه خاف أن يغتالوا لما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة)[١].

(وقيل: نهاهم خشية أن يستراب بهم لقول يوسف: أنتم جواسيس.

وقيل: طمع بافتراقهم أن يتسمعوا خبر يوسف)[٢].

وقيل: (لئلا يستلفت دخولهم من باب واحد أنظار من يقف عليه من الجند، ومن يعس للحاكم، فيريب بهم، لأن دخول قوم على شكل واحد وزي متحد على بلد هم غرباء عنه مما يلفت نظر كل راصد)[٣].

---

١ ابن الجوزي "*زاد المسير*" ج٤ ص ١٩٢.
٢ ابن حيان "*البحر المحيط*" ج٥ ص ٣٢٥.
٣ القاسمي "*محاسن التأويل*" ج٩ ص ٢٥٠.

وقيل: (إن أبناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم، فقال: لا تدخلوا تلك المدينة من باب واحد على ما أنتم عليه من العدد والهيئة، فلم يأمن عليهم حسد[1] الناس.

أو يقال: لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم)[2].

وقيل: (أحب يعقوب أن يلقى يوسف أخاه في خلوة)[3].

ونختم هذه الأقوال بهذا التحرير الذي يثير في العقول التنوير: (وإنما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحُراسَها، وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة، أن يُوجسوا منهم خيفة من تجسس أو سرقة، فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم، فيكون ذلك ضرًا لهم وحائلاً دون سرعة وصولهم إلى يوسف عليه السلام ودون قضاء حاجتهم، وقد قيل في الحكمة: "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان".

ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد، دون أن يحذرهم من المشي في سكة واحدة من سكك المدينة، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة فلم يخشَ ضلالهم فيها، وعلم أن "بنيامين" يكون في صحبة أحد إخوته لئلا يضل في المدينة)[4].

ولتبيان الخلل في نظرية القائلين بأن العين مؤثرة دعونا نحلل عناصرها، فهي من المفترض أن تتكون من:

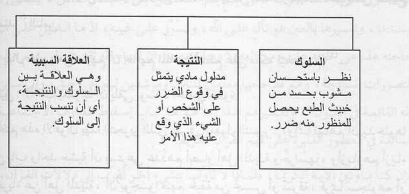
---

١ الحسد بمعنى الكيد والسعي إلى مضرتهم.

٢ الرازي "*مفاتيح الغيب*" ج١٨ ص١٧٨.

٣ السيوطي "*الدر المنثور في التفسير بالمأثور*" ج٤ ص٥٥٧.

٤ ابن عاشور "*التحرير والتنوير*" ج١٣ ص٢٠–٢١.



الشكل (٣)

والخلل الكامن في نظرية العين أنها تفتقر إلى علاقة السببية بين السلوك والنتيجة.

فمثلاً إذا قال شخص لآخر: إن بيتك هذا جميل ورائع.

ثم احترق البيت بعد ذلك.

فكيف نستطيع أن نُركّب العلاقة السببية بين قول الرجل والنتيجة وهي احتراق المنزل؟!.

وما طرحه منظرو الفكر الأشعري وغيرهم من أن ذلك عبارة عن خاصية ركّبها الله تبارك وتعالى (=العادة) في الإنسان؛ فكلام غير مفهوم، فهذه الخاصية ينبغي أن تكون خاصية طبيعية، ولا توجد في العين أية خاصية تؤدي إلى إحداث ضرر بالإنسان، فلا سم ينطلق منها، ولا إشعاعات تخرج منها، ولا غير ذلك.

وقد طرحنا مثل هذا التساؤل على بعضهم ، فأجاب بأن ذلك من الغيب الذي علينا أن نؤمن به ولا نناقش فيه ، عندئذ أدركنا مدى مناعة قاعدة إثبات الغيب بالقطعي اليقيني من الأدلة لا بمثل هذه الروايات الظنية الثبوت ، والتي لا تصمد أمام أي نقد يوجه إليها.

وقد حاول بعض المعاصرين تفسير ظاهرة العين بخروج موجات كهرومغناطيسية منها عند حالات الغضب أو الحقد تؤدي إلى إحداث الضرر ، وهذا الكلام محاولة يائسة لإلباس الخرافة لبوساً علمياً ، فالهاتف النقال يصدر موجات كهرومغناطيسية أشد مما يدّعونه في خروجها من العين ، ولم نجده يؤدي إلى احتراق نخلة ، ولا إلى إصابة إنسان بطفح جلدي أو إلى تحطم سيارة ، مما يدّعونه لقدرة العين ، وندعو هؤلاء إلى إثبات ما يقولون بتجارب علمية تكشف عن هذا الذي يدّعونه.

(وقد أنكر بعض المعتزلة كأبي هاشم والبلخي أن للعين تأثيراً)[1] وكذلك فإن الأطباء من قديم قد شككوا في ظاهر تأثير العين ، (وقد اعترض على ذلك الأطباء واعتقدوه من أكاذيب النقلة)[2] ،لكن الكثير من الفقهاء لم يقبلوا منهم هذا الموقف ، فالأطباء في نظرهم (محجوجون بما سطروا في كتبهم من أن الكون والفساد يجري على حكم الطبائع الأربع ، فإذا شذ شيء قالوا هذه خاصة خرجت من مجرى الطبيعة لا يعرف لها سبب ، وجمعوا من ذلك ما لا يحصى كثرة ، فهذا الذي نقله الرواة عن صاحب الشريعة خواص شرعية بحكم إلهية يشهد لصدقها وجودها كما وصفت ، فإنا نرى العائن إذا برك امتنع ضرره ، وإن اغتسل شفي معينه)[3] ، وهذا التعليل من قبل هؤلاء الفقهاء لا تنهض به حجة ، بل هو ذاته محجوج ، فما نقله الرواة لا يصل إلى درجة القطع حتى يثبت به أمر

---

١ الشوكاني "*فتح القدير*" ج٣ ص٤١.

٢ ابن العربي "*أحكام القرآن*" ج٣ ص٦١.

٣ *المرجع السابق* ج٣ ص٦١.

غيبي، وأما التجربة ومعها كل حركة الحياة فتُثبت عدم وجود أي تأثير للعين، سواء برك العائن أو اغتسل معينه.

وفكرة العين كانت معروفة في الثقافات الشعبية لكثير من الشعوب الوثنية، فالفراعنة والفينيقيون كانوا يعتقدون بإصابة العين، واتخذوا من شر العيون الأحجبة والتعاويذ والخرز الأزرق[١]، وجاء في أحد النصوص التي تدور حول عشتروت وابنها المزّق تموز أنها أردته قتيلاً حين سلطت عليه نظرة الموت[٢].

(وكانت العرب إذا ولدت المرأة منهم أخذوا دم السمر، ويسمونه بحيض السمرة، وهو صمغه الذي يسيل منه، فينقطون منه بين عين النفساء، ويخطون على عين الصبي خطاً، خوفاً عليه من الخطفة والنظرة، ويسمونه بالنفرات)[٣].

(وكذلك كانت العرب تعلّق على الصبي سن ثعلب وسن هرة خوفاً من الخطف والنظرة)[٤].

وقد استعملوا في الجاهلية الخرز والتعاويذ والرقى لدفع العين عنهم، ومن الرقى التي استعملوها:

الكحلة: وهي خرزة سوداء تجعل على الصبيان.

الودعة: وهي خرزة تثبت ويتخذ منها القلائد.

القبلة: وهي خرزة بيضاء تجعل في عنق الفرس لتدفع العين عنه[٥].

---

١ انظر: عدة مؤلفين "*كيف يتعامل الزوجان مع العين والحسد*" ص٧٥.

٢ انظر: *المرجع السابق* ص ٧٥.

٣ محمد عبدالمعيد خان "*الأساطير العربية قبل الاسلام*" ص٦٤.

٤ *المرجع السابق* ص٦٦.

٥ انظر، عدة مؤلفين "*كيف يتعامل الزوجان مع العين والحسد*" ص ٧٥-٧٦.

وقد يكون هذا التصور الساذج سببه أن القدماء كانوا يتصورون أن العين تصدر شعاعاً تسقطه على الأشياء فتراها، بيد أن العلماء منذ العالِم العُماني أبي محمد عبدالله بن محمد الأزدي الصحاري[1] (ت: ٤٥٦هـ) وابن الهيثم أثبتوا أن الشعاع ينعكس عن الأشياء فيسقط على العين فتراها، وهذا ما أصبح طلاب المدارس الابتدائية يعرفونه حق المعرفة.

العين في الروايات

رغم الأحاديث التي يروونها في تأييد دعاوى تأثير العين؛ فإن هناك من الأحاديث ما ينفي ذلك وينسبها إلى معتقدات الجاهلية وخرافتها، روى الربيع (٧٣٨) عن أبي عبيدة قال: بلغني عن أبي بشير الأنصاري قال: (كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً —والناس في مبيتهم— ألا يبقين في رقبة بعير قلادة من وبر ولا غيره إلا قطعها، وذلك من العين ألا يصيب دوابهم ما يكرهون).

والحديث رواه أيضاً البخاري (٢٩٣٨) ومسلم (٥٥٠٤)، وقد أورد مسلم عن مالك بن أنس قوله: (أرى ذلك من العين)، وهو ذاته التفسير الذي أورده راوي الحديث أبو بشير الأنصاري في رواية الربيع، أي أن الناس كانوا يعلِّقون تلك التمائم والقلائد حول أعناق البهائم خشية العين، وحرصاً منه صلى الله عليه وسلم على نقاء المجتمع من الخرافة، وحمل الناس على تعاليم القرآن المجيد، فقد علّمهم وأمرهم أن يقطعوا هذه التمائم والقلائد.

---

١ قال أبو محمد عبدالله بن محمد الأزدي الصحاري في كتاب "الماء" ص ١٣١ في مادة بصر: (البصر: العين والجمع أبصار. ومذهبنا في الإبصار أنه يتم بأن يقع شبح المرئي على الحدقة ثم تنقله إلى أمام القوة الباصرة، فإذا أدركت هذه القوة ذلك الشبح كان سبباً لشعور النفس بالمرئي فتدركه حينئذ).

ومسند الربيع وهو معتمد الإباضية في الجمع الروائي لم يروِ في العين سوى الحديث السابق الذي يجعلها من معتقدات الجاهلية، والذي يوجب استئصال فكرة تأثير العين من عقول الناس، بالإضافة إلى حديثين آخرين هما:

١. روى الربيع (٥٠٠) عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام رقاه وهو يوعك فقال: (باسم الله أرقيك، من كل داء يؤذيك، ومن كل حاسد إذا حسد، ومن كل عين، واسم الله يشفيك).

في هذا الحديث قرن الحسد بالعين في سياق واحد في الرقية المروية عن جبريل عليه السلام.

٢. وروى كذلك (٦٤٣): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، ويصدق ذلك ويكذبه الفرج).

وفي هذا الحديث إسناد الزنى إلى العين.

فنخرج من الحديثين السابقين بنتيجة مفادها أن اقتران الحسد بالعين في الحديث الأول يحتمل ثلاثة معان:

– الرقية من العين لا تعني إثبات تأثيرها، وإنما استعيذ منها لأجل تقريب المعاني إلى الأذهان، وأن ذكر الله تعالى كاف لطمأنينة النفس من أي شر يمكن أن تتصوره النفوس، وهذه لها نظائر في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ الإسراء: ١٣، أي أن كل إنسان مسؤول عن عمله، وعبّر عن ذلك بما كانت العرب تفعله من التفاؤل بالطائر القادم من اليمين، والتشاؤم بالطائر القادم من الشمال، وليس معنى ذلك أن القرآن يثبت التشاؤم والطيرة،

فهي من الخرافات التي جاء الإسلام لاجتثاثها من جذورها، إنما قرّب القرآن المعنى باستعارته صوراً من الأمور الشائعة في الحياة، وإن لم تكن لها حقيقة في ذاتها.

– وإما أن الراوي سمع من النبي صلى الله عليه وسلم الرقية عن الحسد، وعبّر عن العين من باب الرواية بالمعنى وهو شائع كثيراً، أي عبّر عن الحسد وهو تمني زوال النعمة الوارد في القرآن الكريم بالمعنى الشائع في الثقافة الشعبية.

– وإما أن التعبير بالعين هنا لا يراد به التأثير الحسي، وإنما يراد به التعبير عن الحسد وهو تمني زوال النعمة بالعين، وهو من باب المجاز، لأن العين هي الأداة التي يبصر بها الإنسان، فتنفعل نفسه مع ما يراه، فتتولّد فيها مشاعر الحسد وهي تمني زوال النعمة عن الغير، وما يتبعها من شرور كالكيد، ومثله حديث "العينان تزنيان"، فالعينان لا تزنيان حقيقة، بل المناظر التي تراها العين هي الباب الأول الذي يلج منه الإنسان إلى الزنا والعياذ بالله.

فانظروا رحمكم الله؛ يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على اجتثاث خرافة تأثير العين، هذا التصور الجاهلي، ويرسل أحد أصحابه لتغيير هذا المنكر العقدي من نفوس أصحابه، كما هو في حديث الإمام الربيع (٧٣٨): عن أبي عبيدة قال: بلغني عن أبي بشير الأنصاري قال: (كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً –والناس في مبيتهم– ألا يبقين في رقبة بعير قلادة من وبر ولا غيره إلا قطعها، وذلك من العين ألا يصيب دوابهم ما يكرهون)، وإذا الموازين تنقلب فيُدّعى أنه عليه السلام يثبت تأثير العين، ولا ندري أذهبت العقول أم ران عليها الجهل عندما تنسب مثل هذه الخرافة إلى مقامه العظيم عليه الصلاة والسلام الذي تنزل عليه القرآن المؤكد لسنن الله في الكون ولفطرته في الوجود؟!.

والأهم من ذلك أن نبيّن أنَّ تصور تأثير العين التلقائي في الأشياء فيه خطورة عقدية من حيث نسبة انفعال الأشياء إلى العائن، وهذا ليس من صفات المخلوقين بل هو من فعل الخالق جلَّت قدرته، فهو من تنفعل له الأمور تلقائياً حسب توجه إرادته واقتضاء مشيئته، يقول جلَّ شأنه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس: ٨٢. فالله وحده من تنفعل له الأشياء، وليس ذلك لغيره تعالى أبداً، لا لعائن ولا غيره.

وانحراف التصور في هذا الجانب وصل إلى وصم الأنبياء الكرام عليهم السلام الذين أرسلوا رحمة للعالمين بأنهم يهلكون أقوامهم بهذه العين؛ مثلما (ذكر القاضي حسين أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام استكثر قومه ذات يوم فأمات الله منهم مائة ألف في ليلة واحدة فلما أصبح شكا إلى الله تعالى ذلك فقال الله تعالى إنك استكثرتهم فأعنتهم)[1].

ويتصاعد الأمر خطورة عندما نصف النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من جاء لمحق هذا المعتقد الفاسد من قلوب الناس، أنه كان يمارس هذه العادة، فقد رووا عن (عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم على بعض أهله فقال: أين فلانة؟ قالوا اشتكت عينها. فقال: استرقوا لها فقد أعجبتني عيناها)[2].

اللهم إنا نسألك صدق لقائك، وسلامة الإيمان بك، وصفاء المعتقد فيك، وتعظيم مقام أنبيائك الكريم، والموت على نهج سيد المرسلين.

---

١ محمد الشربيني الخطيب "*الاقناع*" ج٢ ص٥١٩.

٢ الذهبي "*سير أعلام النبلاء*" ج٩ ص٥٧٧.

تأثير العين والفقه الجنائي

بناءً على الروايات التي جاءت في إثبات تأثير العين، رتب اتجاه في الفقه عدداً من الآثار عليها، وهذه الآثار عبارة عن عقوبات جنائية توقع على من تسبب بوقوع ضرر على الغير بتأثير العين حسب قولهم.

ومما ورد في ذلك عن بعض الفقهاء:

– قال القرطبي: (لو أتلف العائن شيئاً ضمنه، ولو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه بحيث يصير عادة، وهو في ذلك كالساحر القاتل بسحره)[١].

– (وفي الترغيب: في العائن للإمام حبسه، وقال المنقح: لا يبعد أن يقتل العائن إذا كان يقتل بعينه غالباً، وأما ما أتلفه فيغرمه)[٢].

– (ومن عرف بأذى الناس وأذى مالهم حتى بعينه حبس حتى يموت أو يتوب. قال في الاحكام السلطانية: للوالي فعله لا للقاضي، ونفقته مدة حبسه من بيت المال مع عجزه ليدفع ضرره)[٣].

ويبدو واضحاً من هذه الأقوال أنهم قد حكموا على العائن المفترض تأثيره بالقصاص أو الدية في حال نسبة ارتكاب جريمة القتل إليه، وكذلك الضمان إذا أتلف مالاً، وحتى أنهم حكموا عليه بالحبس إذا عرف عنه أذى الناس في أبدانهم أو أموالهم حتى يتوب أو يموت.

وخالف اتجاه آخر في الفقه في هذه الرؤية باعتبار أمر تأثير العين غير منضبط، قال النووي: (لا يقتل العائن ولا دية ولا كفارة؛ لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام

---

١ الزرقاني "شرح الزرقاني" ج٤ ص٤٠٧.

٢ البهوتي "كشاف القناع" ج٦ ص١٢٦.

٣ الرحيباني "مطالب أولي النهى" ج٦ ص٢٢٤.

دون ما يختص ببعض الناس وبعض الأحوال مما لا انضباط له، كيف ولم يقع منه فعل أصلاً، وإنما غايته حسد وتمن لزوال النعمة، وأيضاً فالذي ينشأ عن الإصابة بالعين حصول مكروه لذلك الشخص ولا يتعين ذلك المكروه في إزالة الحياة، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين)[1].

والذي نراه عدم ترتيب أي من الآثار التي ذكروها على تأثير العين لعدة اعتبارات هي:

– أنه لا توجد أية أدلة معتبرة على تأثير العين من الأساس، كما بينا ذلك فيما مضى، بل الأدلة متوافرة على كونه من بقايا التفكير لدى الأمم الوثنية السابقة.

–أن حرمة دم الإنسانِ وحريتهِ ومالهِ ثابتة بأدلة شرعية من الكتاب العزيز والسنة النبوية متيقن منها، ولا ترتفع إلا بمثلها من الأدلة من حيث الثبوت والدلالة، والروايات الواردة في إثبات تأثير العين على ما فيها من مطاعن تؤدي إلى رفضها؛ هي روايات آحاد ظنية الثبوت لا تصلح لأن تكون مثبتة لأمر غير محسوس لا يُرى ولا يُسمع ولا يمكن الكشف عنه كتأثير العين.

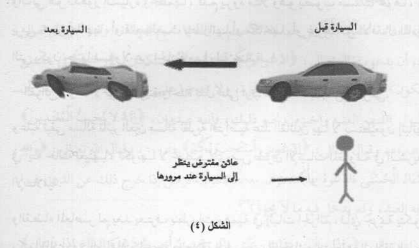
– ثم لو سلمنا جدلاً بتأثير العين كأمر نظري، فكيف يمكن إثبات تأثير العين في حادثة ما بحق شخص من الأشخاص؟!. لنأخذ على ذلك هذا المثال العملي:

مرت سيارة بجانب رجل اشتهر لدى العوام بأنه ممن يؤثرون بنظرة عيونهم، فنظر إليها، ولم تمض سوى بضع ثوان حتى انقلبت السيارة وتحطمت ومات سائقها، السؤال الآن كيف تستطيع أية هيئة للضبط القضائي نسبة التهمة إلى ذلك الشخص المتهم بأنه عائن، بمعنى آخر هل يمكن أن يكون هناك دليل مادي ملموس من الوقائع ينسب النتيجة وهي

---

١ الزرقاني "شرح الزرقاني" ج٤ ص٤٠٧.

تحطم السيارة وموت قائدها إلى الفعل المادي وهو نظر المتهم إلى السيارة؟! انظر الشكل(٤).



الشكل (٤)

وهذا الكلام ينسحب على كل الحوادث التي ينسبون تأثيرها إلى العين، والحق الذي لا مرية فيه أن أية نسبة لتأثير العين إلى شخص بعينه هو من باب اتباع الظن المنهي عنه شرعاً ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ الأنعام: ١٤٨، ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ النجم: ٢٨.

والإثبات في الشريعة الإسلامية يقوم على طرائق منها:

– الإقرار: وفي حالتنا هذه لا يستطيع "العائن" أن يقر على نفسه؛ لأنه لم يكن لحظتها ممارساً لأي فعل مادي يؤدي إلى نتيجة ما.

– الشهادة: وشهادة الشهود أيضاً غير معتبرة في هذه الحالة، لأنهم شاهدوا أمرين لا يوجد بينهما أية علاقة سببية، الأمر الأول "العائن" المفترض وهو ينظر إلى السيارة، والثاني هو تدهور السيارة وتحطمها، فلم يروه مثلاً وهو يصوب مسدساً نحوها، أو يرمي بحجر تجاهها، أو قام بالعبث بإطاراتها أو مكابحها، أو غيرها من الأفعال المادية التي يكون حينها مسؤولاً عن الحادثة مسؤولية جنائية.

– القرائن: وهنا لا توجد قرينة واحدة تدل على ارتباط الحادثة بالعائن المفترض.

وعليه تبقى مسألة تأثير العين مسألة نظرية افتراضية عند القائلين بها لا يستطيعون إثباتها في أية حالة بعينها، لكونها لا تخضع لأي من طرق الإثبات المعروفة في الشريعة الإسلامية.

والقضاء المعاصر لم يعد يعترف بنظريات وهمية في إثبات الجرائم، فأي جريمة يتكون ركنها المادي من السلوك والنتيجة والعلاقة السببية بين السلوك والنتيجة، والعلاقة السببية بالتحديد هي التي تفتقدها الجرائم المتعلقة بتأثير العين، وقد قضت المحكمة العليا بسلطنة عمان عام ٢٠٠٢م بأن (تقرير توافر رابطة السببية من عدمها من المسائل الموضوعية التي تفصل فيها محكمة الموضوع بغير معقب عليها، إلا أن ذلك مشروط بأن يكون تقديرها لذلك سائغاً ومستنداً إلى أدلة مقبولة)[1]، فيجب أن تكون العلاقة السببية في الحكم سائغة ومقبولة وإلا كان الحكم معيباً قابلاً للإبطال، أي (ينبغي على الحكم أن يشتمل على الأسباب التي بني عليها وإلا كان معيباً، والمقصود بالتسبيب المعتبر تحديد الأسانيد والحجج المبني عليها والمنتجة سواء من حيث الواقع أم من حيث القانون)[2].

---

١ مزهر جعفر "*شرح قانون الجزاء العماني- الجرائم الواقعة على الأشخاص*" ص ٥٦.

٢ *المرجع السابق* ص ٥٦. عن حكم صادر عن المحكمة العليا بسلطنة عمان عام ٢٠٠٢م.

٧. الدعاء والرقية

- **الدعاء:**

يقول العلامة عثمان بن أبي عبدالله الأصم: (الدعاء مخ العبادة، وقد أمر الله تعالى عباده أن يدعوه فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً﴾ مستكينين، ﴿وَخُفْيَةً﴾ في خفض وسكون؛ في حاجاتكم من أمر الآخرة، ولا تدعوا على مؤمن ولا مؤمنة بالشر أن تقولوا: اللهم العنه واخزه. ونحو ذلك، فإنه عدوان، ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الأعراف: ٥٥، وقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر: ٦٠، وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف: ١٨٠... فالدعاء فرض إذا خرج ذلك عن الدعاء فيما أمر به العبد، ولم يدخل فيه ما لا يجوز)[1].

(قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

ومن كتاب الثعلبي:

قال بعضهم في معنى الآيتين: الدعاء هاهنا الطاعة، ومعنى الإجابة الثواب، كأنه قال: أجيب دعوة الداعي بالثواب إذا أطاعني.

وقال بعضهم: معنى الآيتين خاص وإن كان لفظهما عاماً، تقديرهما: أجيب دعوة الداعي إن شئتُ، وأجيب دعوة الداعي إذا وافق القضاء، وأجيب دعوة الداعي إذا إذا لم يسأل محالاً، وأجيب دعوة الداعي إذا كانت الإجابة له.

---

١ الأصم "النور" ص٣٩١.

قال المؤلف[1] : هذا القول حسن، أن يكون شيء أو لا يكون؛ بمشيئة الله وقضائه وقدره)[2]، وقدر الله لا يكون أبداً مخالفاً لسننه تعالى الماضية في الكون.

ووفقاً لما قررناه سابقاً من التقعيدات نقول: إن الدعاء هو جزء من العمل، وليس أمراً منفصلاً عنه، فمن يدعو ولا يأخذ بالأسباب فهو ليس ممن توكلوا على الله تعالى حق التوكل.

التوكل على الله

العمل

(وهو التفسير العملي للشهادتين)

الأخذ بالأسباب من متطلبات العمل في مفهومه الواسع.	**الدعاء** ارتباط بالله، وقذف للطمأنينة في النفس الإنسانية، فتندفع نحو الإبداع في الكون.

الشكل (٥)

ولسنا بحاجة إلى الإطالة في الاحتجاج لهذا الذي نقوله؛ فعقيدة الإسلام في القرآن الكريم تقوم على تلازم القول والعمل، وبهذا المبدأ الإيماني تكون سعادة الإنسان في

---

١ أي عثمان بن أبي عبدالله الأصم.

٢ المرجع السابق ص٤١٨.

الدنيا وفوزه في الآخرة، وبتركه يكون الخسران فيهما ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ وَالْعَصْرِ ۝٢ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٣ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ سورة العصر، وعليه يكون الدعاء جزءاً من العمل ومرتبطاً به، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة: ١٨٦ علينا أن نفهمه مع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت: ٦٩، أي لابد أن يقترن الدعاء بالعمل، ولذلك قدّم الله عزَّ وجلَّ استجابة المؤمن له تعالى -والتي من ضمنها العمل- على الإيمان، مع أنه في الأصل أن الإيمان يسبق العمل وجوباً، وما ذلك إلا لأجل التنبيه على أهمية العمل في التوجه بالدعاء إليه سبحانه.

وكذلك الهداية في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ النحل: ٩٣ لا تتحقق وحدها بالدعاء، فلابد من سلوك طريق الهداية؛ قال تبارك اسمه: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ الرعد: ٢٧، وقال: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ الشورى: ١٣، وقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ النساء: ١٧.

والفكرة التي آلت إليها المرجئة في نهاية المطاف كانت قائمة على فصل العمل عن القول، بتبني مبدأ اعتبار العمل الصالح من التحسينيات أو التكميليات، فلا غرابة إذن بناءً على هذه القاعدة أن يكون الدعاء عندهم غير مرتبط بالعمل على مستوى النظرية والتطبيق.

والذي ندعو إليه أن يكون فهمنا للدعاء هو ربطه بمفهوم العمل، فعندما ندعو الله تعالى بأن يفرج عنا ما نشكو نربط ذلك بسعينا وعملنا للخروج مما نعاني، وإلا كان ضرباً من التمني الممقوت، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً

يُجزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ النساء: ١٢٣، وهذه الآية الكريمة وإن كانت واردة في الجزاء الأخروي، إلا أنها تعم كل عمل يقوم به الإنسان؛ لأن العمل لا يكون إلا في الحياة الدنيا، ألا ترى أن الله تعالى ركّب العقوبات الدنيوية على فعل الفساد كالحدود والكفارات والتعزيرات، وكذلك ركّب نيل الفضل على أعمال الخير كالتجارة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الجمعة: ٩-١٠، فالله لم يكتف بأن يدعوهم إلى أداء الصلاة والانصراف عنها، وإنما حثهم بعد أدائها على الانتشار في الأرض وابتغاء فضله بالتجارة وغيرها، وجعل ذلك مقترناً بذكره جلَّ اسمه.

والدعاء إن لم يصاحبه الكسب والعمل فهو ضرب من التمني الذي لا يترتب عليه أي نتيجة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ النساء: ٣٢.

والله تعالى لن يفتح فضله على الناس في الدنيا إلا إذا آمنوا واتقوا، والإيمان والتقوى يلزمهما العمل في كافة مناحي الحياة، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الأعراف: ٩٦، فانظروا إلى حكمته تعالى وسننه في خلقه، حيث جعل بركات السماء والأرض منوطة بالعمل وهو الإيمان والتقوى، والإيمان والتقوى ملاك كل خير.

والتقوى في كل شيء بحسبه.

فالتقوى في حق الله تعالى عبادته على أكمل وجه، ومنها أداء الشعائر التعبدية كالصلاة والصوم والحج، والانتهاء عن معاصيه.

وتقواه تعالى في حق الوالدين البر بهما والإحسان إليهما، فلا يكفي الإنسان أن يرسل إليهما دعواته من على بُعد، وهو لا يقوم بحقهما، فهيهات هيهات أن تجاب دعوته.

وتقوى الله في التجارة، هو الضرب في الأرض والكسب من فضل الله، واجتناب ما حرم فيها كالغش والاحتكار والربا، ويا له من ثمنٍ كاسد عاطل لا قيمة له؛ ذلك الدعاء الذي يصدر من شخص يمد يديه إلى الله تعالى؛ ليلاً أو نهاراً، وهو يتقلب في فراشه، لا يبحث عن عمل، ولا يفتش عن لقمة العيش.

وتقواه تبارك وتعالى في استمطار بركاته في السماء والأرض واستدرار نعمائه منهما؛ يكون بالسعي إلى الكشف عن سنن الله ونواميسه فيها، واستغلالها بما يعود نفعه على الإنسانية في الدنيا والآخرة.

وتقوى الله في نصرة الإسلام، هو السعي إلى عزته وانتشاره في الخافقين، ولا يكفي أن ترسل رسائل الهاتف النقال، أو الإشعاعات الليلية بنصرة القائمين على ثغر من ثغور الإسلام، وأنت تأكل اللقمة الدسمة وتنام على الفراش الوثير خمولاً وكسلاً، دون الضرب في الأرض دعوة وإصلاحاً وبناءً، فما أسوأها من أحلام وأمان لا تعدو أن تكون لقلقة لسان، يخشى وزرها عند الله أكثر مما يرجى أجرها.

فليوفر هؤلاء على أنفسهم تعب هذه اللقلقة، وليوفروا كذلك تلك الأموال التي يصرفونها على فواتير هواتفهم، فالله تعالى لا يجيب الناس على أمانيهم، وإنما على أعمالهم المرتبطة بصادق الإيمان، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة:١٨٦، فجعل سبحانه وتعالى إجابة الدعاء مرتبطة بالاستجابة والإيمان، وهذان الأمران كما هو معلوم من الدين لا يكونان بلقلقة اللسان، والتأوه الأجوف بعد كل صلاة، وإنما بالعمل والأخذ بالأسباب، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ﴾ الجمعة: ١٠.

ويقول تبارك اسمه: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ هود:٦١، ربط الله هنا بين العمل الدنيوي –وجعله منه– وهو إعمار الأرض وبين الاستغفار والتوبة، وبيّن سبحانه أنه قريب، فالسعي إليه ليس سعياً مادياً بل سعياً إيمانياً، وأنه مجيب وفق حكمته ومشيئته تعالى السارية في كل ذرة من ذرات الوجود.

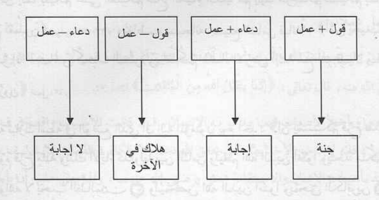
ويقول جلَّ شأنه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ الفتح:١٨، علّق الله تعالى هنا الرضى عن المؤمنين بمبايعة نبيهم عليه السلام، وجعل الفتح المبين الذي نالوه نتيجة لهذه المبايعة ورضي الله عنهم.

وهكذا كل كتاب الله، لا تجد فيه الدعاء إلا مرتبطاً بالسعي والعمل، فهؤلاء أنبياء الله يدعون من واقع عملهم وفعلهم، لا بثرثرات وهمهمات لا نصيب للعمل منها، إلا خداع النفس بأنها أتت ما عليها، ولكن أنى لها ذلك وقد ركّب الله النتائج على المقدمات العملية، فهذه سننه التي لا تتبدل.

ولا يفهم القارئ ما نقول خطأ، فيظن أننا نقلل من قيمة الدعاء، لا والله، لطالما جأرنا إلى الله في حال شدتنا ورخائنا بالدعاء، ولكن ما بيناه هنا هو ما يمليه علينا ديننا المنزل من

رب السموات والأرض، وهو الذي ناط الجزاء والنتائج دنيوية كانت أو أخروية بمقدمات العمل، وعلى ذلك قامت العقيدة الإسلامية الصافية النقية، وليس لنا دين إلا دين الله، فقد كفرنا بما سواه من الأديان، وليس لنا منهج إلا منهج الحق والاستقامة، فقد فارقنا مناهج الإرجاء والخرافة.

ويمكننا أن نقرب هذا الأمر للقارئ الكريم بهذا الشكل :



شكل (٦)

في الشكل (٦) : ليس بخاف أننا نقصد بعدم الإجابة فيما كان فيه تلازم بين الدعاء والعمل، حيث اقتضت حكمة الله تعالى تلازمهما، أما ما كان فيه حكم إلهية أخرى، فالله يفعل ما يريد، ولا راد لحكمه.

وإن كان الالتجاء إلى الله تعالى مع ملازمة العمل هو أحد طرفي معادلة الدعاء ؛ فإن الإجابة التي تشكّل الطرف الآخر هي بيد الله دون أحد سواه، فهو وحده من يجيب الدعاء وفق حكمته ومشيئته، وليس لنا أن نسأم من الدعاء لعدم حصول الإجابة، فهذا أمر راجع إلى الله تعالى وحده، وإنما واجب الإنسان أن يدعوه مخلصاً مع العمل ويسلّم

بأمر الإجابة إليه سبحانه، فقد يؤخر إجابة الدعاء، أو يجيبه مباشرة، ولحكمة يعلمها قد يجيب الكافر ويمنع المؤمن، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يونس: ٢٢-٢٣، ويخاطب سبحانه جميع الناس قائلاً: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ النمل: ٦٢.

وقال الله تبارك اسمه في الوضع الذي آل إليه المؤمنون يوم أحد: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ آل عمران: ١٤٠-١٤٣،

فتجدون هنا أن الله أصاب المؤمنين بالقرح مع أنهم كانوا يتمنون لقاءه تعالى، وفي هذا دلالة عميقة على أن الله لا يجيب المؤمنين بمجرد الأماني، ولم يسم سبحانه هنا أدعيتهم بالدعاء، وإنما أطلق عليها مسمى الأماني، وهكذا من يدعو وهو مفارق للعمل ففعله هذا ليس بدعاء، وإنما هو مجرد أمنية جوفاء، لا حظ لها عند الله تعالى.

هذا؛ ولابد أن يكون الإخلاص لله لحمة الدعاء وسُداه، لأن الاعتداد بالنفس والاغترار بأعمالها من موجبات إعراض الله عن عباده، فالزهو بالنفس يعميها عن اتخاذ الناس الأسباب التي رتب الله عليها نصره، قال جلَّ شأنه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ

كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ التوبة: ٢٥.

فالدعاء له طرفان:

– أحدهما: يخصنا؛ وهو الطلب من الله وحده مع العمل والإخلاص.

– وثانيهما: اختص الله به؛ وهو الإجابة، وواجبنا نحوه هو التسليم له تعالى.

والعمل عملان:

– عمل بالتزام طاعة الله وتقواه، وهذا لابد منه على أي حال، فمن لا يلتزم التقوى لا يتقبل الله منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ المائدة: ٢٧.

– وعمل بأخذ الأسباب فيما يدعو به الإنسان، فإن كانت الأسباب واقعة في قدرة الداعي؛ فإنه لابد من الأخذ بها حتى يحقق الله دعاءه، فالكافر والفاسق لابد لهما من الأخذ بأسباب الإيمان والاستقامة حتى يرضى الله عنهما، والمريض عليه أن يأخذ بأسباب العلاج حتى يشفيه الله، والفقير لا يخرج من مسغبته إلا إن أخذ بأسباب العمل الاعتيادي، وهكذا بقية البشر، وإلا لكان تواكلاً ممقوتاً في الدين، محروماً صاحبه من التوفيق، وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينشر الله تعالى به الدين وينصره على المشركين المعاندين إلا بعد أن عمل على تربية الأفراد في مكة المكرمة، وقد نالهم ما نالهم من أذى المشركين، ثم تحمّل هو وأصحابه ضنك الهجرة إلى المدينة المنورة، ثم جاهد المعتدين في الله حق الجهاد، واستشهد المؤمنون في هذه المعارك، فلو كان الدعاء يجاب بدون أخذ الأسباب للزمه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما كان سائغاً له أن يعرّض الناس لكل هذه المحن والمصاعب، ولكنها حكمة الله في خلقه؛ فلابد من أخذ أسباب الأمور، وصدق الله العزيز الحكيم حينما قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت:٣، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ البقرة:٢١٤، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ التوبة:١٦.

وأصحاب هذا الصنف عليهم أن يلزموا مع دعائهم العملَ والأخذ بالأسباب، وإلا كان دعاؤهم هباءً منثوراً لا قيمة له، والأولى لهم أن يوفروا على أنفسهم لقلقة ألسنتهم، والله المستعان.

وأما ما كان سبل أسبابه منقطعة عن العبد لا يستطيعها فإنه يلجأ إلى الله تعالى وقد خلّص نفسه من كل معصية ولازم تقوى الله، ثم يدعو الله ويجأر إليه بالطلب، والله يتكفل بإجابته، وهذا مثل من أصيب بالقحط أو الأعاصير، أو الأمراض المستعصية، فإن طلب لها الأسباب ولم يجدها فإن الله رحيم بعباده يجيبهم بحسب حكمته ولطفه وعلمه وإرادته، فكم من مريض قد شارف على الهلاك وقد آيسه الأطباء من الشفاء عافاه الله تعالى، وكم مجدب أخصبه الله بعد طول قحط، ومع ذلك؛ كل هذا يتم بجريان الأسباب الكونية حسب مقتضى الحكمة الربانية.

ولكننا نرفض أن يضاف هذا إلى الخرافة المسماة بالكرامة المتنافية مع دين الله وسننه في الكون، فشتان بينها وبين إجابة الدعاء التي وعدنا الله بها في كتابه -وهو أصدق القائلين- حين قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة:١٨٦، وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر:٦٠.

وفي هذا الشأن ما رويتُ (=خميس بن راشد العدوي ؛ أحد مؤلفي هذا الكتاب) عن سماحة شيخنا العلامة أحمد بن حمد الخليلي عن سيف بن سالم اللمكي أن الإمام العدل الرضي محمد بن عبدالله الخليلي خرج ذات يوم إلى وادي محرم من أعمال ولاية سمائل، وكان الوادي مجدباً، فطلب الناس منه أن يصلي بهم صلاة الاستغاثة، فخرج بهم إلى مسيل الوادي، وصلى بهم، فأمطروا ذلك اليوم حتى جرى الوادي.

وقد يقول بعضهم: إن هذا من باب الموافقة، وليس من الشرط أن يكون من قبيل إجابة الدعاء.

قلنا: هذا لا يتعارض مع إجابة الدعاء، فهذه هي حكمته تعالى؛ وذلك بأن يحمل عباده على الدعاء لحظة تساوق الأسباب، وهذا من بيان تلازم القدرة والحكمة واللطف عند الله تعالى، وتلازم العمل والتسليم والإخلاص عند العبد.

ومثل ذلك أيضاً ما رواه لي شيخنا المفتي الخليلي عن سيف بن سالم اللمكي أن الإمام محمد الخليلي خرج إلى بدية وكانت تعصف بها الرياح الشديدة، فدعاء لهم الإمام رحمه الله، ثم توقفت الرياح.

وكل هذا عندنا داخل في إجابة الدعاء، وهذا يتفق تماماً مع حكمة الله، وليس فيه شيء مما يتعارض مع سننه ونواميسه الماضية، وهذا مثله في كتاب الله ما حكاه سبحانه عن امرأة إبراهيم عليها السلام: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ هود:٧٢-٧٣، وكذلك إجابة الله لدعاء عبده زكريا عليه السلام: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آل عمران: ٣٧-٣٩.

فأين هذا الدعاء النبوي الموصول بالله تعالى إيماناً وعملاً من لقلقة اللسان وبهرجة المقال مع الإخلال بالعمل الذي نراه من الكثيرين؟! حتى أصبحت ترنيماتهم أقرب إلى سجع الكهان وهمهمات الأحبار منها إلى دعاء المؤمنين الموقنين، وكأن حكمة الله تنفعل لهم حسب أهوائهم.

فالدعاء عند المؤمن له شروط لابد منها؛ هي:

- الإيمان الصحيح، والعمل الصالح.

- الإخلاص والتوجه الصادق إلى الله تعالى.

- الأخذ بالأسباب.

- الإيقان بأن أمر إجابة الدعاء يرجع إلى الله تعالى وحده، وليس من الشرط التلازم بينها وبين دعاء العبد، وإنما سبيلها التلازم بينها وبين حكمة الله، فدعاء الله مطلوب بنفسه من العبد، لأنه نوع من العبادة.

وعلينا أن نؤكد هنا على أنه لا يجوز أبداً التوجه بالدعاء إلى غيره تعالى كالبشر والأشجار والأحجار والكواكب ونحوها، كما لا يجوز أيضاً إشراك غيره تعالى في ذلك كالتوسل بالبشر أمواتاً كانوا أو أحياءً، ولو كانوا من الأنبياء عليهم السلام أو العلماء والأئمة، فلا واسطة بين الله وخلقه، والإسلام يرفض تلك الكهنوتية التي تمرغت في أوحالها النصرانية، فالمسلم يتجه إلى الله مباشرة فهو قريب منه يجيب دعوته إذا دعاه بإذنه تعالى، وهذا من تمام التوحيد وأصدقه.

وإن أناساً من المسلمين غاصوا في مستنقع الخرافة الآسن عندما توجهوا إلى قبور موتاهم يتوسلون بهم في الدعاء، أو يطلبون منهم النفع والضر، والله تعالى وحده النافع الضار، وحق هذه القبور أن تسوى بالأرض لا أن يتوجه إليها، وعلينا في ذلك بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نهى عن تجصيص القبور، فقد روى الربيع (٤٨٢): من طريق ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه: (نهى عن تقصيص القبور) أي؛ عن تجصيصها.

كما أنه نهى عن قول الهجر عند زيارتها للعبرة والاتعاظ، روى الربيع (٤٨٧): أبو عبيدة عن جابر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، ولا تقولوا هجراً) أي؛ لا تدعوا بالويل والعويل وبما يسخط الرب.

وأي هجر أشد من الإشراك مع الله غيره في الدعاء، وأي سخط أسوأ من التوسل بغيره سبحانه وتعالى؟!.

وهذا كله منه عليه الصلاة والسلام عمل بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ الجن:١٨.

(كذلك فإن مما الأمور المؤسفة أن يكون الدعاء ورقي القرآن الكريم مما يفتح به بعض الناس باب الخرافة واحتراف الشعوذة، حين يتحول الدعاء إلى مهنة وحرفة ووسيلة إلى المال والجاه، يخص بها بعض الناس أنفسهم، أو يخصهم الناس عملياً -بوعي أو بدون وعي- بأمر القدرة الإلهية، والوساطة بين الله وعباده في شفاء الناس وقضاء حوائجهم، والناس بذلك كأنهم قد حكموا لهم -من عند أنفسهم تجاه الله- بصلاحهم وقربهم منه سبحانه وتعالى، وخصوهم باللجوء إليهم لقضاء حاجاتهم، وهم بذلك يتحكمون عملياً -مهما قالوا غير ذلك- في رحمة الله، ويخضعونها لمقامهم وسلطانهم، ليصبح

ذلك حرفة للمتشعوذين، ومقاماً وسلطاناً بين الناس، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ البقرة:١٨٦[1].

▪ الرقية:

يوصِّف الشيخ ناصر بن أبي نبهان الرقى بقوله: (جاء النهي عن الرقى، وجاءت أحاديث إباحة استعمالها، وهنا تخصيص، والجمع بين ذلك تحريم ما هو حرام الرقاء به، وتركه بما هو مكروه، وحلال بما هو حلال)[2]، وها نحن نشرع في تفصيل هذا الإجمال.

الرقية كما عرَّفها ابن حجر: (كلام يستشفى به من كل عارض)[3]، ولدينا على هذا التعريف تحفظ شديد إن كان مقصوده أن الكلام ذاته يستشفى به، إذ لابد أن يكون الكلام طلباً من الله على سبيل الدعاء، فالكلام ذاته لا قيمة له، وإنما قيمته في اتصال العبد بخالقه على صفة الإقرار بالضعف والاحتياج إليه سبحانه، والرغبة مما عنده، مع الأخذ بالأسباب التي شرعها الله تعالى.

وقد وردت أحاديث في الرقية عن النبي صلى الله عليه وسلم هي عبارة عن قراءة آيات من الكتاب العزيز أو أذكار، وقد اعتبرها البعض علاجاً للأمراض النفسية والجسدية على السواء، ومؤيدوها يرون أنها تعبِّر عن مضمون قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ الإسراء:٨٢، وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى

---

١ عبدالحميد أبو سليمان "أزمة الإرادة والوجدان المسلم" ص٨٨.

٢ انظر: السعدي "قاموس الشريعة" ج١٢ ص١٣٢.

٣ ابن حجر "فتح الباري" ج١ ص١٠٧.

وَشِفَاءٌ﴾ فصلت: ٤٤.

ويزعمون أن لفظة "شفاء" على إطلاقها فتشمل الأمراض النفسية والجسدية.

وهذا الرأي تجاهل حقائق كثيرة وأغفل أموراً واضحة:

أولاً: المرجع الأول في تأصيل أية قضية هو كتاب الله المبين، منه نستقي وعليه نعتمد، والروايات والأخبار التي يرويها الناس عنه صلى الله عليه وسلم نفهمها على ضوئه، لأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو مهيمن على ما سواه، فما وافقه أخذناه وعددناه صادراً عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما لم يتفق معه رفضناه ونفينا صدوره عنه عليه السلام.

روى الربيع (١٠٣): أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: بلغني عن عثمان بن عفان أنه جلس على المقاعد، فجاء المؤذن فأذن لصلاة العصر فدعا بماء فتوضأ، ثم قال: والله لأحدثكم حديثاً لولا أنه في كتاب الله ما حدثتكموه. ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من امرئ يتوضأ فيحسن وضوءه لصلاته ثم يصليها إلا غفر الله له ما بينها وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها).

قال الربيع: يريد بقوله: "لولا أنه في كتاب الله" قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ هود: ١١٤، يستفاد من هذا الحديث:

– أن السنة من الكتاب.

– أن كبار فقهاء الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لا يحدثون إلا بما وافق القرآن وانسجم معه.

– رواية الحديث في مسند الربيع تدل على أن الإباضية ومنذ مرحلة التأسيس كانوا مدركين لأبعاد قضية الانفلات الروائي عن القرآن الكريم، وهذا ما أكد عليه تلميذ الربيع وائل بن أيوب عندما قال: (لا تقل[١] عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما وافق كتاب الله، وأن سنة النبي صلى الله عليه وسلم موافقة لكتاب الله، لا يخالفه صلى الله عليه وسلم)[٢].

فالشفاء في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ الإسراء: ٨٢ لا يعني الشفاء من الأمراض الجسدية، ومجرد الاعتماد على الإطلاق في الآية وحده لا يكفي، فالقرآن لم يذكر حدوث شفاء من أمراض جسدية بقراءته، إنما ركّز على أن الهداية والسعادة في اتباعه ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إبراهيم: ١ ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الزمر: ٥٥.

فما جاء في كتاب الله العزيز في باب "الشفاء" هو أن القرآن شفاء معنوي، أي يعالج أمراض النفوس ويصلح أوضاع الإنسانية بتشريعاته وهدايته:

– ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٥٧.

– ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ٢.

١ في الأصل المطبوع "لا تقول"، وهو فيما يبدو من تصحيفات النساخ، والصواب ما أثبتناه.

٢ ابن جعفر "الجامع" ج١ ص ١١١.

- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ البقرة: ١٨٥.

- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف: ٥٢.

- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فصلت: ٤٤.

وإذا لم نكن ظاهريين ونحصر أنفسنا في حدود الدلالة اللغوية للفظة "شفاء" فالقرآن شفاء من الأدواء العقدية والسلوكية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ونحوها مما تعاني منه البشرية إذا طُبق وعُمِل بالقرآن ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ الإسراء: ٩.

ثانياً: لابد من النظر الكوني وإعمال المنهج التجريبي لفهم "الشفاء" الوارد في الآية ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾، فنحن نعلم أن قوله تعالى في شأن العسل حق لا ريب فيه ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ٦٩، لكن هذا الشفاء من خلال المنهج التجريبي القائم على التجربة والملاحظة والاستنتاج يؤدي بنا إلى اعتبار الخاصية العلاجية للعسل في أمراض بعينها، ولذلك ينبغي ألا نهمل هنا الكشف العلمي الذي أمرنا الله باتباعه، ولا يمكن لأي عاقل اعتبار العسل شفاء من كل داء، ولا يوجد دواء في العالم إلى يومنا هذا يشفي من كل داء.

وكذلك القرآن جعله الله هداية للناس وتشريعاً لهم، به تستقيم حياتهم، أما الأمراض الجسدية ككسور العظام والجروح والحروق والتسمم والسرطان والإيدز والكوليرا

والملاريا ونحوها مجالها الكشف والبحث العلمي القائم على التجربة والملاحظة، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يونس:١٠١، أي يا أيها الناس انظروا فيما بثه الله تعالى في الكون، وهذا النظر هو الذي سوف يوصلكم إلى العلاج أو أي أمر آخر في عالم الشهادة، وهذا ما دأبت عليه البشرية منذ القدم، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: (ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً)[١]، وذات الوجع أو الحمى التي جاء الحديث أنها مما يرقى فيه المريض فإن النبي أمر بالتداوي منها.

فقد روى الربيع: عن ابن الزبير أن أسماء بنت أبي بكر إذا أُتيت بامرأة قد حمت تدعو لها، وتأخذ الماء، وتصبه بينها وبين جيبها، وقالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نبردها بالماء)[٢]، فالنبي عليه السلام أمر بعلاج الحمى بما هو قائم على الاستفادة من الخبرة الإنسانية في المعالجة الطبية، وفعل الصحابية الجليلة أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما يدل على فهم عميق للدين، فهي بدعائها للمريضة بثت روح السكينة والطمأنينة في قلب المريضة، ثم داوتها بالعلاج المعروف لديهم من خلال الخبرة الإنسانية، وهذه الثنائية المكونة من الدعاء والأخذ بالأسباب هي التي غفل المسلمون عنها في العصور المتأخرة، وهذا من أهم أسباب تخلفهم الحضاري.

وهنا نسوق في هذه القضية كلاماً نفيساً للدكتور محمد سليمان الأشقر، يقول: (لابد لاعتبار أي من الأحاديث... حجة في باب الطب من أحد أمرين:

الأول: أن يكون الحديث على درجة عالية من الصحة فلا يكفي أن يكون الحديث حسناً أو صحيحاً محتملاً للوهم، لأن تطبيقه على الأجسام الإنسانية قد يكون فيه ضرر كبير،

---

١ البخاري (٥٣٥٤).

٢ الربيع (٦٥٢).

فإن وقع الضرر فلا يكون عذراً للطبيب أن يتبيّن كون العلاج مبنياً على حديث صحيح ظاهراً لكنه في الحقيقة موهوم أو مكذوب.

ولذ أقترح أن لا يعتبر حجة من الناحية الطبية الصرفة حديث ما لم يكن ثابتاً على سبيل القطع، وهو الحديث المتواتر، أو على سبيل شبه القطع، وهو ما ورد من طريقين على الأقل، منفصلين، من أول السند إلى آخره، بحيث يعرف أنه لم ينفرد برواية الحديث راوٍ واحد في أي طبقة من طبقات السند، حتى ولو كان صحابياً، لاحتمال الوهم والغلط، مع اشتراط كل من الروايتين أو الروايات صحيحة لذاتها، طبقاً لما هو معمول به في علم مصطلح الحديث.

وهذا الأمر إذا أريد تحقيقه يطرح عبئاً على المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، لتكليف بعض أهل الاختصاص العمل بذلك؛ حتى يعرف من الأحاديث الطبية ما هو مقطوع به طبقاً لما ذكرناه هنا.

الثاني: أن يخضع مضمون الحديث للتجارب الطبية تحت نظر الاختصاصيين، فإن ثبتت صلاحيته كفى، وتكون التجارب هي الحجة في ذلك)[1].

وقفة مع أحاديث الرقية

١. روى الربيع (٥٠٠) عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام رقاه وهو يوعك فقال: (باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك، ومن كل حاسد إذا حسد، ومن كل عين، واسم الله يشفيك).

والحديث رواه أيضاً ابن حبان (٩٥٣) والحاكم في المستدرك (٥٦٨١).

---

١ محمد سليمان الأشقر "مدى الاحتجاج بالأحاديث النبوية في الشؤون الطبية والعلاجية" ص٦٨-٧٠.

٢. روى الربيع (٦٥٦): أبو عبيدة عن جابر عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد عليه الوجع كنت أقرأ عليه بهما وأنفث وأمسح بيده رجاء بركتها.

والحديث رواه أيضاً: البخاري (٤١٧٥)، ومسلم (٢١٨٥).

٣. روى الربيع (٦٥٧): أبو عبيدة عن جابر قال: بلغني عن رجل من الصحابة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فاشتكى إليه من شدة الوجع، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (امسح بيمينك سبع مرات، وقل: أعوذ بعزة الله وبقدرته من شر ما أجد).

قال: ففعلت ذلك ففرج الله عني ما كان بي، فلم أزل آمر بها أهلي وغيرهم.

الحديث رواه أيضاً: الترمذي (٢٠٨٠)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٥٤٦).

٤. روى الربيع (٦٦٠): أبو عبيدة عن جابر عن أبي هريرة أن رجلاً من أسلم قال: ما نمت الليلة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أيِّ شيء؟) قال: لدغتني عقرب. فقال عليه السلام: (أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات العامات من ما شر خلق لم يضرك شيء إن شاء الله).

والحديث أيضاً عند مسلم (٢٧٠٨).

هذه الأحاديث استند إليها القائلون بأن الرقية بالقرآن تكون علاجاً للأمراض الجسدية والنفسية على السواء، وقد سبق أن بينا في الفصل السابق أن المعتمد في ذلك أمران:

- كتاب الله الحكيم.
- النظر الكوني القائم على التجربة والملاحظة والاستنتاج.

فيجب أن نرجع الرواية إلى قطعي الدلالة من هذين الأصلين.

فـ(إذا نص القرآن على أمر دنيوي فهو حق لا مرية فيه، لأنه من الله تعالى الذي لا يخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

فإذا كان الحديث النبوي في الشؤون الدنيوية استجابة لإرشادات القرآن التي تتعلق بذلك الأمر، فيكون الفعل بياناً أو امتثالاً للقرآن، ويحمل على الشرعي، ولعل خير مثال على ذلك شربه صلى الله عليه وسلم العسل للتداوي، فإن ذلك تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ النحل: ٦٩.

وشبيه بذلك ما أخبر صلى الله عليه وسلم أنه فعله عن وحي من الله تعالى)[١].

(ولا ريب أن علم الطب في العصر الحديث تقدم تقدماً ملحوظاً، واستطاع الطب أن يكتشف الكثير جداً مما لم يكن مكتشفاً من قبل، وهذا يقتضي أنْ يقول الطب كلمته في كثير من الأمور التي اختلف فيها الفقهاء والتي لا نستطيع أن نجد مُرَجحاً لرأي من الآراء على غيره؛ لأن الترجيح يتوقف على الدليل، ومع انعدام الدليل يبقى الإنسان حائراً بين الأقوال المتعددة... ويقول الطب كلمته بعد أنْ يكون البحث بحثاً متعمقاً، فيه الاستقراء من جانب، وفيه استعمال الخبرات الطبية المتطورة من جانب آخر)[٢].

وقد قلنا فيما سبق إن تأثير الرقية بالقرآن معنوي، وأن القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع، على الناس أن يطبقوه في واقع حياتهم.

أما الأحاديث الواردة في الرقية[٣] فنرى أنها من حيث الجملة مقبولة ونحملها على:

---

١ محمد سليمان الأشقر "*مدى الاحتجاج بالأحاديث النبوية في الشؤون الطبية والعلاجية*" ص٣٩-٤٠.

٢ أحمد بن حمد الخليلي "*الأساس في أحكام الحيض والنفاس*" ص٣٨-٤٠.

٣ اعتمدنا في باب الرقية على مجموع الروايات الواردة في مسند الربيع، وهي مما اعتمده أصحاب المجاميع الحديثية الأخرى، أي هي مما اتفق الناس على روايته، ولكونها في رأينا الأضبط والأقرب إلى روح التشريع القرآني.

١. دعوة الناس إلى الصبر وعدم الجزع والانهيار في المرض من خلال ربط الناس في هذا الحال وكل حال بالله جلَّ شأنه، وهذا ما يطالبنا به القرآن وهو أن نظل ذاكرين لله تعالى في كل حال؛ في الصحة والمرض والعسر واليسر؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ الأحزاب: ٤١.

٢. بث الطمأنينة والسكينة في النفس، فالقرآن الكريم مما تطمئن به النفوس، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨، ومن المعلوم أن هذه السكينة والاستقرار النفسي ستعودان على المريض بمردود إيجابي من الناحية العضوية، كما أن الاضطراب النفسي يمكن أن يعود على الإنسان بالأوجاع والأسقام.

هذا؛ ولا يمكن حمل الرقية على أنها تتمتع بخاصية الشفاء، أي أنها تؤثر في المرض مباشرة كتأثير الدواء الطبيعي، فهذا بُعد عن حقيقة السنن التي وضعها الله تعالى في مخلوقاته، وجري وراء سراب من الوهم، يقول رشيد رضا في الرقية: (وهي ليست من الأسباب الحقيقية للشفاء، وإنما يطلبها طلابها عند الجهل بالأسباب والعجز عنها على أنها من المؤثرات الغيبية، وإنما المطلوب شرعاً وطبعاً وعقلاً أن يطلب الشيء من سببه الحقيقي الذي يستوي فيه كل من تعاطاه)[1].

مَن يقوم بالرقية؟

إذا كانت الرقية كما قلنا عبارة عن بث للطمأنينة والسكينة في النفس وربط للإنسان بالخالق تبارك اسمه؛ فإن على الإنسان أن يقوم بنفسه بقراءة القرآن أو الدعاء في حال أنه قد شعر بحاجة نفسه إلى ذلك، بل وفي أي وقت وحين، وذلك لأنه لا يوجد ميزة لأحد

---

١ محمد رشيد رضا "تفسير المنار" ج٤ ص٢٠٩.

على أحد في قراءة القرآن، فليس لدينا في الإسلام كهنة يمتلكون تفويضاً من الرب لمباركة الناس.

فكل أحد طالما تلقى تعليماً يمكنه من قراءة القرآن أو حفظ شيء من آياته عليه أن لا يتكل على غيره، وليرتبط مباشرة بمصدر الهداية الإلهية.

وهذا هو الهدي النبوي، فكما رأينا في أحاديث الرقية السابقة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم بالرقية لنفسه بنفسه، وكذلك من يأتيه كان يأمره أن يقوم بنفسه بذلك، وأما حديث رقية جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يؤخذ منه الرقية للغير، وإنما هو مقام تعليم للأمة في شخص نبيها الكريم، إذ لا دليل على أن النبي كلما مرض كان يأتيه جبريل ليرقيه.

وأما رقية السيدة عائشة لزوجها الحبيب المصطفى عليه السلام في حديث الربيع (٦٥٦): أبو عبيدة عن جابر عن عائشة رضي الله عنها، (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد عليه الوجع كنت أقرأ عليه بهما وأنفث وأمسح بيده رجاء بركتها)، فلم تفعله إلا بعد أن دخل عليه السلام في لحظات الشدة وربما الاحتضار، وهو أمر تدفع به العاطفة بين الزوجين دفعاً.

وفي الزمن الماضي كان أكثر الناس يعتمدون على العلماء أو طلبة العلم أو غيرهم ليرقوهم بالقرآن، ومرد ذلك إلى كون الأمية منتشرة بين الناس، وكان المتعلمون قلة قليلة، أما في هذا الزمن وقد تغير الحال كثيراً وأصبحت الفئة المتعلمة واسعة الانتشار فلم تعد مثل هذه الممارسة سائغة، بل قد تكون محرمة شرعاً إذا اعتقد الإنسان أن الشفاء خاصية فيمن يرقيه من العلماء وغيرهم.

وعادة الرقية للآخرين أصبحت مزعجة للعلماء، فهي تستنزف كثيراً من أوقاتهم وجهودهم وصحتهم، ولذلك —مع انتفاء مسوغاتها— نأمل من علمائنا الأجلاء أن

يمتنعوا عنها حتى تخف عن كاهلهم من جهة، فالناس إن أرخي لهم شبر من الحبل جذبوا منه ذراعاً، وإن أرخي لهم منه ذراع جذبوا باعاً، ولذلك يحتاجون إلى كلمة محددة في هذا الجانب من قِبَل العلماء.

ومن جهة أخرى حتى يرجع الناس مباشرة إلى ربهم جلَّ وعلا فيرتبطون به سبحانه بدون واسطة من أحد، وهذا من تمام التوحيد وكمال التنزيه، وحتى يرجعوا أيضاً إلى كتاب الله، فيكونوا أقرب إليه لتدبره والعمل بمقتضاه، وبذلك يكسب هؤلاء العلماء الأجرين ويحوزون على الفضلين بإذن الله.

(أما إذا تحول الدعاء والرقية إلى مهنة واختصاص، وحكر ووصاية، وباب يقف الناس أمامه صفوفاً، دون الله، ويلجؤون به إلى المنقطعين والمختصين بالوساطة، وجلب المنافع ودفع المضار، فإنها تصبح ممارسات أقرب ما تكون إلى الشرك والشعوذة، وتقويض أسس التوحيد والتقوى، وقواعد السننية الإلهية، ومسؤولية العمل والسعي وروح التوكل، وهذا ما نشاهده اليوم شائعاً في كثير من البلاد، ولدى كثير من الناس، من ممارسات الشعوذة والخرافة والدجل، وهو أمر يتوهمه ويؤمن به كثير من عامة الناس، وكثير من أهل العلم -بحسن نية- بسبب سوء الفهم وسوء التأويل، الذي يستند إلى نصوص كثير منها؛ يعدّ من باب الأساطير والإسرائيليات والقصص الضعيف والمدخول والمكذوب، والذي يجد قبولاً لدى الكثيرين بسبب الموروث من العقائد والفلسفات والتفسيرات الخاطئة، التي لا ترتكز إلى منهجية قادرة على التفرقة بين الصواب والخطأ والحق والباطل، ولا تستند إلى مقاصد الشريعة وثوابتها، ولا إلى كلياتها وأولوياتها، ولا على الوعي بالمشكلات التي تعاني منها الأمة وثقافتها، وإدراك التحديات التي تواجهها، والآفاق التي تتطلع إليها، فلو التزم الفكر المسلم المنهجية الإسلامية العلمية السليمة ما كان للخرافة والشعوذة -وما تورثه من تواكل وسلبية وعجز- سبيل إلى فكر

الأمة وثقافتها، وما كانت هناك مشروعية للمفاهيم والتفسيرات الخاطئة الشائعة في عالم اليوم بين كثير من أبنائها)[١].

وأخيراً؛ بالنسبة للنفث عند الرقية، لا ريب أنه مشروع لتعليم النفس طرد الوساوس الشيطانية، فعلى النافث وهو يفعل ذلك أن يستحضر إبعاد الخواطر النفسية السيئة عنه، ومن الخطأ تصور أن النفث هو بنفسه يدفع البلاء، أو أن سر القراءة ينتقل عبره لشفاء المريض، فهذا تصور غير سائغ، وربما أفضى إلى انحراف عقدي غير مشروع، ولأجل ذلك (اختلف في النفْث عند الرُّقى، فمنعه قوم، وأجازه آخرون.

قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفُث، ولا يمسح ولا يعقد.

قال إبراهيم (=النخعي): كانوا يكرهون النفث في الرُّقَى.

وقال بعضهم: دخلت على الضحاك وهو وجع، فقلت: ألا أُعَوِّذك يا أبا محمد؟ قال: بلى، ولكن لا تنفث. فعوّذته بالمعوذتين.

وقال ابن جريج قلت لعطاء: القرآن يُنفَخ به أو يُنْفَثُ؟ قال: لا شيء من ذلك، ولكن تقرؤه هكذا، ثم قال بعد: انفُثْ إن شئت.

وسئل محمد بن سيرين عن الرُّقية يُنْفث فيها، فقال: لا أعلم بها بأساً، وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السنة)[٢].

قلنا: والسنة ماضية بمنع كل ما قد يفضي إلى توهم جاهلي، فلابد من تصحيح التصور العقدي في ذلك، فالنفث لا يعدو أن يكون كناية عن رمي الوساوس الشيطانية والخواطر النفسية السيئة.

---

١ عبدالحميد أبو سليمان "*أزمة الإرادة والوجدان المسلم*" ص٩٠.

٢ القرطبي "*تفسير القرطبي*" ج٢٠ ص٢٥٨.

وقد سئل ابن أبي نبهان (عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان ينفث في الرقية.

قال الشيخ ناصر بن أبي نبهان: دل على جواز ذلك، وفي حديث آخر كرّه النفخ في ثلاث: في الصلاة؛ وهو مما ينقضها، لأنه يخرج بحروف ليس من كلام الله.

وفي الطعام الحار؛ وكره ذلك من جهة الطب لا من جهة الشرع، فلا بأس على من نفخ ما لم ينوه خلافاً لما كرهه صلى الله عليه وسلم إن اضطر إلى ذلك.

والثالث في الرقى؛ هنا قال: ينفث. لعله دون النفخ، وليس النفخ في الرقى مما حرمه؛ إذ لم يشتهر تحريمه، وإنما هو بمعنى الكراهية خلافاً للنفاثات في العقد، أهل السحر بالباطل، ومن نفخ ولم يرد به الخلاف فلا بأس)[1].

وهكذا نرى الشيخ ناصر يكره النفخ في الرقى لئلا يصير حاله من حال النفاثات في العقد الذي ورد ذمه في قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ الفلق: ٤، الذي يورث التصورات المخالفة للشرع، قلنا: والنفث أخٌ للنفخ. والله أعلم.

والكراهة أيضاً مذهب لأحمد بن حنبل، وكذلك المسح على الرقية[2].

وهذا النفث مخصوص بالشخص نفسه، ولا يكون للغير، لأنه يتعارض مع قانون الصحة العام الذي يصب في مقصد المحافظة على النفس وهو مقصد شرعي، وقد جاء الإسلام الحنيف للحفاظ عليه ضمن المقاصد الأخرى في الشريعة، فقد يريد النافث أن ينفث فإذا به يتفل، وربما أنه مريض بعاهة ميكروبية فينقل الوباء إلى المنفوث له، بل حتى التنفس ذاته منعه رسول الله، ولذلك ورد النهي منه عليه أفضل الصلاة والسلام عن التنفس في الإناء، حيث روى الربيع (٣٧٧): أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال:

---

١ السعدي "قاموس الشريعة" ج١٢ ص٩٠.

٢ انظر: عمر الأشقر وآخرون "قضايا طبية معاصرة" المجلد الثاني ص٤٨٦.

بلغني أن أبا سعيد الخدري دخل على مروان بن الحكم، فقال له مروان: هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن التنفس في الشراب؟.

فقال أبو سعيد: نعم.

قال: فقيل له: يا رسول الله إني لا أروى عن نفس واحد.

فقال له: (فأبن القدح عن فيك ثم تنفس).

فقال الرجل: فإني أرى القذى فيه. قال: (فأهرقه).

قال الربيع: قال أبو عبيدة: وكذلك الطعام لا ينفخ فيه، وإن كان حاراً فليبرده.

فأين نضع النفث للغير أمام مقاصد الشريعة الكلية المدعمة بالتطبيقات العملية عن النبي الأكرم عليه السلام؟!.

وكذلك بالنسبة للرقي في الماء ونحوه من السوائل وغيرها، فنرى منعه؛ وذلك لنفس المحاذير التي ذكرناها آنفاً في النفث للغير.

وقد (ذهب أحمد في رواية الخلال إلى عدم جواز التداوي بغسالة الرقية، وهو ما ذهب إليه الحسن البصري وإبراهيم النخعي، واستدلوا لذلك بما روي عن الحسن البصري قال: سئل أنس عن النشرة فقال: ذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال: "هي من عمل الشيطان")[١].

(والنُّشرة: رُقْيَة يُعالَج بها المجنون والمريض تُنَشَّر عليه تَنْشيراً، وقد نَشَّر عنه، قال: وربما قالوا للإنسان المهزول الهالك: كأنه نُشْرة. والتَّنْشير: من النُّشْرة، وهي كالتَّعويذ والرُّقية...

---

١ عمر الأشقر وآخرون "**قضايا طبية معاصرة**" المجلد الثاني ص٤٩٣-٤٩٤.

وفي الحديث: أنه سُئل عن النُّشْرة فقال: هي من عَمَل الشيطان؛ النُّشرة، بالضم: ضرْب من الرُّقية والعِلاج، يعالَج به من كان يُظن أن به مَسّاً من الجن، سميت نُشْرة لأنه يُنَشَّر بها عنه ما خَامَرَه من الدَّاء، أي يُكشَف ويُزال.

وقال الحسن: النُّشْرة من السِّحْر)[١].

وحديث (النشرة من عمل الشيطان) عندنا مقبول لأنه يتفق تماماً مع قواعد الشريعة الغراء وأصولها القويمة، (وهو كذلك رواه البزار والطبراني في الأوسط؛ إلا أنه قال: ذكروا أنَّها مِن عَمَلِ الشيطان. ورجال البزار رجال الصحيح). كما قاله الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٧٥/٥).

وأما ما ذهب إليه البعض بأن هذا الحديث (يحمل على ما إذا كانت النشرة مخالفة لما في القرآن والسنة، أو يحمل على النشرة المعروفة عند أهل السحر والتعزيم)[٢] فليس بشيء، ولا يعتدّ به، لأنه ما من نشرة إلا وهي مخالفة للكتاب والسنة، كما بينا ذلك في مواضع كثيرة من هذا الكتاب في الحديث عن الجن والسحر والكتابة، فكل تصورات تأثير هذه الأمور غير حقيقي، فلا يناسب أن تقرّ لها الشريعة علاجاً بمثل هذه النشرات ونحوها، لأنه بذلك ستترسخ مفاهيمها في النفوس، وإنما علاجها بما جاء به الإسلام في كشف عوارها، واجتثاثها من أصولها.

١ ابن منظور "*لسان العرب*" مادة (نشر).

٢ عمر الأشقر وآخرون "*قضايا طبية معاصرة*" المجلد الثاني، ص٤٩٤.

٨. التمائم (=الحروز)

جاء الإسلام حرباً على العادات الجاهلية التي تتعارض مع حقائق الحياة، ومن تلك العادات الساذجة؛ والتي قد تحمل أوزاراً من التصورات الوثنية: الطيرة والصفر والتشاؤم والتولة والتمائم، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه يأمر برمي الخيوط المعقودة والمعادن الملبوسة حول الأيدي، والتي يُشم منها روائح الوثنية.

فقد روى الربيع (٧٤): أبو عبيدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا هامة ولا عدوى ولا صَفر).

وروى أيضاً قال صلى الله عليه وسلم: (من خرج من بيته فرأى ما يكرهه فرجع تطيراً من أجله رجع كافراً[1]).

وروى (٧٣٨): أبو عبيدة قال: بلغني عن أبي بشير الأنصاري قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً –والناس في مبيتهم– ألا يبقين في رقبة بعير قلادة من وبر ولا غيره إلا قطعها، وذلك من العين ألا يصيب دوابهم ما يكرهون.

وروى (٧١٠): أبو عبيدة قال: سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من حسد فلا يبغ، ومن تطيّر فلا يرجع، ومن ظن فلا يحقق، وهو فرق ما بين المسلم والمنافق).

---

١ كتاب الترتيب، آثار الربيع في الحجة على مخالفيه (٣).

المقصود بالكفر هنا –كما هو واضح– كفر النعمة الذي يعني الفسق والضلال، وليس الشرك المخرج من الملة.

وروى كذلك: قال صلى الله عليه وسلم: (يقول ربنا تبارك وتعالى: أنا بريء ممن تطيّر، أو تُكهن له، أو تَسحر، أو تُسحر له)[١].

وروى الربيع بن حبيب أيضاً عن مجاهد عن ابن عمر قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القزع[٢]. "والقزع هو أن يحلق رأس الصبي، ويترك منه مواضع متفرقة غير محلوقة تشبيهاً بقزع السحاب، وهو تفرقه إلى قطع غير متراكم ولا مطبق"[٣]، يفعلون ذلك -حسب وهمهم الخرافي- دفعاً للعين والحسد، فلذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه.

ولكن هذا التصور الإسلامي النقي قد يختفي من عقول كثير من المسلمين عندما تتكاثف عليهم أدران الجهل، ويتزرون بأسمال التخلّف البالية، فينتكس المجتمع، ويرجع القهقرى، فترى التشاؤم والطيرة قد طمرت عقول الناس وباعدت بينها وبين فطرة الإسلام، وترى التمائم والأحجبة قد غشيت على الأبصار ورانت على البصائر.

منذ فترة ليست بالبعيدة كان الناس منغمسين في هذا التصور الخاطئ المنافي تماماً لدين الله الحنيف والمعارض لسنن الله في كونه، فترى صدور الأطفال والنساء موشحة بالحروز والتمائم بمختلف الأنواع، فمنها الصغير ومنها الكبير، ومنها الملفوف بخيط، وآخر بخرقة، وثالث مجلد بجلد، ورابع محفوظ في علبة فضة، منها عن العين، وآخر عن السحر، ومنها عن الجن والشياطين.

وأما الرجال فغالباً ما يعلّقون حروزهم في أعضدهم أو يعقدونها في عمائمهم أو في حقو إزارهم، ولا يعدم من الرجال من يعلّق هذه التمائم حول رقبته!.

---

١ *كتاب الترتيب*، آثار الربيع في الحجة على مخالفيه (٥).

٢ *كتاب الترتيب*، رواية أبي سفيان محبوب بن الرحيل عن الربيع بن حبيب (١١).

٣ *تعليقات أبو إسحاق اطفيش على مسند الربيع*، هامش ج٨٩٣.

والحمد لله رب العالمين قد زال الكثير من تلك الأوهام، واختفت مشاهد عروض أزياء الشعوذة المتنقلة من صدور النسوة ورؤوس الأطفال وأعضد الرجال، وذلك بسبب استنارة الناس بالعلم، وتصورهم الصحيح عن الأمراض، وفهمهم السليم لدينهم، وكما كان للطب والعلم دوره في إصلاح العقول في هذا المجال، كان للعلماء المستنيرين بنور الله دورهم أيضاً، فذات مرة سئل الشيخ السالمي عن ذلك فقال: (وقد ضعف في زماننا اليقين فعوَّلوا على الحروز، وليت شعري هل كان هذا في عهد الصحابة؟ وكم حرزاً كان على أبي بكر وعمر وإخوانهم وأطفالهم؟ نعم قد نقل عن بعضهم كتابة بعض الآيات القرآنية تبركاً، لكن لا على هذا الحال الذي يصنعه أهل الزمان)[1].

وواضح هنا أن ما يقصده الشيخ السالمي من الكتابة بالقرآن لم يكن ذلك في الصدر الأول من الإسلام، بل هو في الأزمنة المتأخرة كما بيّن ذلك بنفسه، وسقناه عنه في مواضع من هذا الكتاب.

هذا؛ ولا ننكر أنه قد بقي هناك أناس —ومنهم دراسون للشريعة— يختطون هذا السبيل، إلا أنهم قلة، وأصبح هذا الأمر أشبه بالنظرية التي لا رصيد لها في الواقع العملي، فهم وإن لجأوا إلى مثل هذه الكتابات لكنهم عملياً يذهبون إلى المستشفى، ويسلمون أنفسهم إلى الأطباء للعلاج، والله وحده هو الشافي والمعافي.

أسباب انتشار ظاهرة تعليق التمائم (=الحروز)

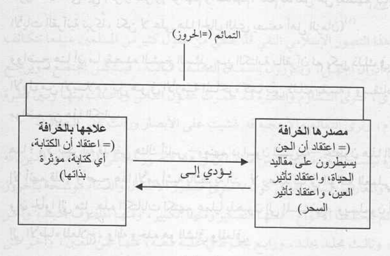
الأسباب التي نراها مع ما ذكرناه سابقاً؛ هي انتشار الأفكار الخاطئة عن عالم الغيب وشيوع الأوهام حوله؛ مما يدفع الناس باستمرار إلى استمداد الوهم من عالم الوهم لصدِّ الوهم، وهم بذلك يؤكدون العيش في مستنقع الوهم!.

---

١ السالمي "*جوابات الإمام السالمي*" ج٥ ص ٥١٦.

كما أن للتخلف الطبي وضعف الرعاية الصحية والإخفاق العلمي والضعف الحضاري الذي تعيشه الأمة الإسلامية دوراً بارزاً في انتشار هذه الظاهر، لأن من يجد العلاج عند أطباء البدن، أو أطباء النفس، فإنه لا يلجأ إلى التمائم ولا غيرها مما لم يجعل الله فيها سبباً للشفاء.

ولذلك فإن قلة الرعاية الصحية وإخفاقات الطب الواسعة في مستشفيات المسلمين هو ما يذكي هذا الأمر غير المشروع في الإسلام.



الشكل (٧)

الحكمة من منع تعليق التمائم

ورد عن نبي الله عليه الصلاة والسلام النهي عن تعليق التمائم، فقد روى الربيع (٧٣٨) عن أبي عبيدة قال: بلغني عن أبي بشير الأنصاري قال: (كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً –والناس في مبيتهم– ألا يبقين في رقبة بعير قلادة من وبر ولا غيره إلا قطعها، وذلك من العين ألا يصيب دوابهم ما يكرهون).

والمنهي عنه ذات التعليق لأي سبب كان ولأي مخلوق كان، لأنه خرافة في حدِّ ذاته تعكس سذاجة في التفكير وحماقة في التصرف، فالله تعالى أمرنا بالسير في الأرض والكشف عن سنن الكون؛ لا بتعاطي مثل هذه الخزعبلات، فهي لا تدفع ضراً ولا تجلب نفعاً، والضر والنفع بيد الله تعالى مسيِّر السنن والنواميس، الذي قال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ العنكبوت: ١٧، وقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء: ٨٠، وهو الذي أمرنا بالسير في الأرض والنظر في ملكوت السموات والأرض لاكتشاف هذه السنن، فالعمل من أجل كسب لقمة العيش هو من التوكل على الله والاستعانة به، وكذلك تناول الدواء الذي يصفه الأطباء المختصون هو من الاستعانة به سبحانه وتعالى والتوكل عليه.

أما التمائم فهي محرمة لأنها خرافة ودجل، ولا تأثير لها على أي شيء، وهي نتاج العقلية الوثنية التي كانت تؤمن بالخرافة والوهم، لذا فهي تعلّق بغير الله الذي أمر بالسير في الأرض واكتشاف مكنون الكون.

ولذلك نجد كثيراً ممن هم متعلقون بهذه الكتابات يعتقدون النفع والضر فيها، وهنا أريد أن أسجل[1] موقفاً تربوياً رشيداً مسدداً من سماحة شيخنا المفتي أحمد بن حمد الخليلي، وذلك عندما جاءه -وكنتُ حاضراً معه- في بيته ببهلا رجل طالباً منه أن يكتب له.

فقال لسماحته: يا شيخ أريدك تكتب لي ما يكشف عني ضراً أصابني.

فرد عليه سماحته: استغفر الله، الله وحده هو الضار والنافع.

---

١ الراوي هنا هو خميس بن راشد العدوي.

فقال الرجل: أنا أعرف أنك وفلان –وذكر شخصاً آخر– وحدكما الباقيان في عمان من ينفع ويضر.

فقال له سماحته: استغفر الله وتب إليه، أصلح معتقدك، ولا يجوز أن تعتقد بنافع وضار إلا الله وحده) اهـ.

تعليق تمائم بآيات من القرآن

قدمنا فيما سبق أن التمائم هي مجرد كتابة لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي ينفع هو التعلق بالله تبارك وتعالى والأخذ بالأسباب التي أوجدها وخلقها، وقلنا كذلك إن تأثير القرآن معنوي قد ينعكس على الجانب المادي والعضوي، والتمائم بغير القرآن محرمة باتفاق، ولكن اختلف العلماء منذ عهد الصحابة في التمائم التي تكون بآيات من القرآن الكريم أو بذكر الله جلَّ شأنه[1].

والذي نراه عدم الكتابة بالقرآن أو بغيره للاستشفاء؛ لأجل أن لا يتوهم الناس أن المقصود منه هو هذه المعالجة، إنما جاء القرآن الكريم ليعالج أدواء النفوس البشرية وعاهات الحضارات والأمم، وذلك بأن يخرجها من الظلمات إلى النور، ومن ضلال الطاغوت إلى هدي الرحمن الرحيم.

وأيضاً حتى لا يُتخذ القرآن تكأة لمن يكتب بغيره، وبالتالي يقول قائلهم: إذا كان هذا جائزاً بالقرآن لماذا لا يجوز بغيره؟.

وهناك من أجاز ذلك وله في نظرنا مسوّغ في الماضي؛ لأن ترديد القرآن نوع من الذكر والدعاء، فقد كان في الحقب الماضية قبل ظهور المطابع ودور النشر لا يملك كل إنسان مصحفاً، وكان أكثر الناس لا يعرفون القراءة، فعندما كان يكتب لهم آيات في ورقة

١ انظر: المباركفوري *"تحفة الأحوذي"* ج٦ ص ١٩٤.

ويحملونها معهم يشعرون بنوع من الاطمئنان ؛ لأن الإنسان عندما يذكر الله تعالى يطمئن قلبه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد:٢٨، ولذلك في كثير من الأحيان عندما يضيق الحال بالإنسان يقرأ القرآن، أو يحمل مصحفاً يأنس به، كنوع من المعالجة النفسية، وليس اعتقاداً بأن هذا الأمر مؤثر في ذاته ؛ كأن يدفع عنه البلاء ويرد العين ويخرج الجن وغير ذلك، أو يشفيه من مرض بدني، إنما هو نوع من المعونة النفسية للذين لا يعرفون القراءة والكتابة فحسب.

أما الآن وقد كثرت المطابع وعمّ العلم وانتشرت المصاحف ولله الحمد، فعلينا أن نوجه الناس إلى أن يقرؤوا كتاب الله، وأن يستفيدوا منه، فما الذي يضرك عندما يأتيك إنسان مضطرب الحال أن تقول له : اقرأ كتاب الله بدلاً من أن تكتب له وهو لا يعرف ما يوجد في هذه الورقة؟!، وما الذي يضرك عندما توجهه إلى ما هو أولى له ومطلوب منه شرعاً؟ فعلينا أن نوجّه الناس إلى قراءة كتاب الله مباشرة ؛ لأنه لا توجد واسطة بين الله تعالى وخلقه، فلا كهنوت في الإسلام، والإسلام لا يعترف بالكهنوتية أبداً، فالإسلام لا يعترف بأن يكون لديك شيخ أو بابا أو حبر أو كاهن أو غير ذلك يكون واسطة بينك وبين الله تعالى، إنما كتاب الله ميسَّر للذكر، فعلى الإنسان أن يرتبط به ويعيش لحظاته مع هذا الكتاب المجيد، فإذا ما داهمه شيء عليه أن يطمئن قلبه بذكر الله، وأفضل الذكر تلاوة آيات من كتاب الله، يقرأها المسلم ويتدبرها ويعمل بها، هذا هو الطريق الذي نراه صحيحاً ليخرج المسلمون من مآزقهم الكثيرة التي وقعوا فيها.

وقد روي عن جماعة من الصحابة أنهم لا يجيزون ذلك[1] ؛ولم يرد في ذلك شيء عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من أصحابه أنه فعله، ولم يثبت فيه أي دليل معتبر من الشرع، بل ورد النهي من النبي عليه السلام عن تعليق النشرة كما بيّنا

---

١ انظر: **المرجع السابق** ج٦ ص ١٩٤.

ذلك، ولذلك لم يجزه جماعة من الصحابة الكرام منهم عبدالله بن مسعود؛ وكان يتشدد في ذلك، وعبدالله بن عباس وحذيفة بن اليمان وعقبة بن عامر رضي الله عنهم[1]، وقد نقلنا لكم آنفاً تصريح الشيخ السالمي بأن هذه الكتابة لم تكن معروفة على عهد الرسول الكريم ولا صحابته، وأنها لم توجد عند الإباضية حتى نهاية القرن التاسع الهجري.

وأقل ما يقال في الكتابة بالقرآن الكريم أنه أمر لم يشرعه الله تعالى، ولم يأذن به رسوله الكريم عليه صلاة الله وسلامه، فهو فاقد للمشروعية، السلامة كل السلامة في تركه.

١ انظر: عمر الأشقر وآخرون "*قضايا طبية معاصرة*" المجلد الثاني، ص٤٨٩-٤٩٠.

٩. النذر والذبح لغير الله تعالى

الكل يعلم أن النذر والذبح لغير الله أفعال محرّمة، وأنها من مكدِّرات صفاء عقيدة التوحيد، لكن الطامة أن العوام سرعان ما يقعون فيها، ولذلك يحتاجون باستمرار إلى وعظ وإرشاد كي يعودوا إلى رشدهم.

وقد ذم الله تعالى في كتابه العزيز الذبح لغيره سبحانه فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ المائدة:٣، والنذر يجب أن يتوجه به إلى الله وحده، قال تعالى حكاية عن امرأة عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ آل عمران:٣٥، وقال عن مريم عليها السلام: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾ مريم:٢٦.

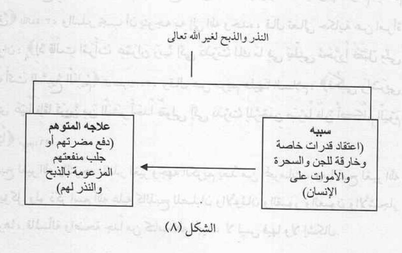
فالذبح لغير الله والتوجه بالنذر لغير وجهه الكريم يعدّ من المحرمات، وما ذبح لغير الله فلا يؤكل ولو ذكر اسم الله عليه كالذبح للصلبان والأوثان والقبور والعيون والأشجار ونحوها، فالمسألة واضحة جداً من كتاب الله المجيد، لا لبس فيها ولا إشكال.

وحكمة التحريم تتمثل في أن:

– الأنعام خلقها البارئ عزَّ وجلَّ، فكيف يتوجه الإنسان بها لغيره من صنم أو شجر أو حجر أو جني أو شيطان أو غير ذلك؟.

– النذر فيه معنى التعظيم لمن يُتوجه إليه بالنذر لفعل شيء أو تركه، فناسب أن يكون النذر مرتبطاً بالخالق تبارك وتعالى؛ فهو العظيم سبحانه ولا عظيم سواه.

لكن مع وضوح هذه الحقائق لا تزال هذه المخالفات منتشرة بدرجة لا يستهان بها في بلداننا الإسلامية، وبعد دراسة هذه الظاهرة تبيّن لنا أن السبب الأهم في تمددها هو ربطها بتصورات خاطئة عن عالم الجن والسحر والأموات، فأوهام قدرة الجن على إيذاء البشر، وقدرة السحرة على إصابتهم بكافة الأضرار؛ جعلت من الإنسان في بلداننا خائفاً مذعوراً من هؤلاء؛ يسعى باستمرار لدفع شرهم وأذاهم المتوهم بالنذور والقرابين والذبائح وغيرها.



الشكل (٨)

ومن الضلال العقدي الذي يمارسه الدجالون مع الناس الذين يلجأون إليهم بسبب جهلهم وسذاجتهم؛ أن يطلبوا منهم ذبح شاة –مثلاً– ذات أوصاف محددة، أو ديك، أو دجاجة، أو غير ذلك، في مكان معين، بدعوى أن الجن يطلبون ذلك منهم.

وفي حكم ذلك تقديم أي نوع من الأغذية أو النقود أو أي غرض آخر بزعم دفع شر الجن أو بأس الشياطين، أو استجلاب نفع من ميت، ولو علا قدره في الحياة، كأن يكون نبياً فضلاً عن غيره.

فكل هذا رجس من عمل الشيطان، لا يجوز قطعاً إتيانه، ومن أتى بشيء من ذلك فقد أتى ذنباً كبيراً وعصى خالقه عز وجل، وهذا كله داخل تحت باب ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ﴾، وهو كذلك من باب الإهلال لغير الله، قال تبارك اسمه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٣، وقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل: ١١٥.

وسئل (الشيخ سعيد بن بشير الصبحي؛ وفيمن أصابه شيء من الألم -أجارك الله وإيانا منه- فوصف له أن يسير إلى شيء من العيون، أو ينجل[1] شيئاً من اللحم أو الأطعمة في شيء من الأمكنة، أو يدفنه، أو ينجل حول العين، فما المعنى والنية في جميع هذا؟ وهل هو جائز أم لا؟.

اشرح لي شرحاً مفيداً أفادك الله.

الجواب: إني لم أحفظ في مثل هذا شيئاً من الأثر، والله أعلم.

وأما المعنى فإنه يلقيه إلى الجن ليكفوا أذاهم عنه إن كان منهم، فكأنه استعطفهم ونزلوا عنده بمنزلة التقية، وصار أسيراً في أيديهم، فإن كان كذلك جاز بماله إذا خاف عواقب الردى، وعندي أن هذا محال.

---

١ ينحل: يرمي. وهي عربية فصيحة

وأما النية إن خرج عن باب الصدقة فأنقذ نفسه من الهلكة، وعندي أن هذا لا يضبط، وخارج عن الأحكام وما عليه أهل الإسلام.

اللهم إلا أن يكون من باب التعارف بين الأنام، فلا أقول بكفرانه ولا رده إذا ثبت في عقول ذوي الأفهام، وأما جوازه ورده فلا أعلمه مما جاء في آثارهم، ولا وطئته في سيرهم، ولا أجدني أنصه من أخبارهم، وإنما جاء في كتب قومهم تحريم ما ذبح للجن، وقولي في هذا كله قول المسلمين)[١].

قلنا: وقول المسلمين كافة هو تحريم ما ذبح لغير الله، سواء الجن أو غيرهم، بنصّ الذكر الحكيم، وترددُ الشيخ الصبحي في تكفير من يأتي هذه الأمور احتياط منه لئلا يكفر مسلماً، وهو محق في ذلك، ولكن لا يعني هذا أبداً أنه متردد في حرمة ذات الفعل، كيف وقد ثبت بنص القرآن و(عقول ذوي الأفهام) حرمته، كما أنه صرح بنفسه بالمنع، فافهم ذلك رحمك الله فإنه غير خاف على أحد.

كما أنه لا عبرة بتعارف الأنام على شيء يخالف نص الكتاب العزيز أو سنة سيد المرسلين، فهو عرف فاسد من أصله قطعاً.

والغريب أن يقول الشيخ الصبحي بأنه لم يجد ذلك في آثار الإباضية وهي مسألة مقطوع بها في الفقه الإباضي لنص تحريمها في القرآن، وهو بنفسه رحمه الله يقول بأنه حفظ عن العلماء النهي عن ذلك، حيث يقول: (وحفظت عن بعض المشايخ النهي عنه والكراهية.

وأنا أقول: لا ينبغي فعل هذا ولا استعماله)[٢].

قلنا: وهذا هو الحق المبين الذي لا محيد عنه، لقطع القرآن الكريم به.

---

١ السعدي "*قاموس الشريعة*" ج١٢ ص١٢٩.

٢ *المرجع السابق* ج١٢ ص١٣٠.

(وفي المريض إذا وصف له أن يذبح شاة أو كبشاً، وينجل بلحمه في موضع كذا... كان الشيخ ناصر بن خميس ينهى عن ذلك، وكثير من أهل العلم يكرهون ذلك)[1].

ولا ريب أن الكراهة التي قال بها العلماء هنا هي عندنا كراهة تحريم.

١ المرجع السابق ج١٢ ص١٣٠.

١٠. الأحلام والرؤى المنامية

وجدت الأحلام والرؤى المنامية بوجود الإنسان، فهو يعيش حياة اليقظة كادحاً في الأرض، ضارباً في جنباتها، مكابداً مصاعبها، يعيش آماله المحدودة وآلامه العريضة، وعندما يرهق في يقظته، فإنه يستسلم تلقائياً إلى النوم، وفي نومه هذا تبدأ مرحلة جديدة من الحياة، إنها عالم الأحلام والرؤى المنامية.

و(عندما كان الإنسان البدائي يهجع إلى كهفه لينام تأتيه الرؤى والأحلام، ولا شك في أنه تحيّر لهذه الظاهرة أعظم حيرة، فأرجع ما يراه أثناء نومه إلى روحه التي تترك جسمه، وتجول هائمة على حريتها، وقد يرى –ضمن ما يراه في منامه– أمواتاً وكأنما عادوا إلى الحياة، وقد يتراءى له من بينهم إنسان ربما يكون النائم قد أزهق روحه، فيعود إليه في حلمه ليعاتبه أو يطارده، أو يهجم عليه ليقتله، وعندئذ قد يقوم النائم فزعاً لما رأى، وقد يقص ذلك على أترابه، ويبدأ الخيال في نسج أساطير تشرح تلك الظاهرة الغريبة، فيعتقد أن هذه الأرواح لا تترك دنياها، بل تجيء بين الحين والحين لتزور الأحياء وهم نيام، إلى آخر هذه التفسيرات التي تتناسب بقدر ما تطور العقل وأدرك)[1].

وتدل الدراسات الحضارية على أن الإنسان القديم كان يخلط بين الرؤى المنامية والواقع في اليقظة، فكان ما يحدث له في المنام يظنه جزءاً من يقظته، ولذلك كان يسعى إلى محاولة فهم حركة الحياة التي كثيراً ما يجهل خط سيرها.

فقد (بدأ ابن آدم حياته العقلية بمعرفة المادة والماديات، واتسعت فكرته هذه في معرفة مظاهر الحياة على جهة التعميم، فظن أنه لا فرق بينه وبين الموجودات في العصر الذي عرف فيه نفسه، أي شخصيته الثانية المستورة التي دعيت بالروح فيما بعد، وقد حملت

---

١ عبدالمحسن صالح "*الإنسان الحائر بين العلم والخرافة*" ص٨.

الإنسان مظاهر الحياة مثل النوم ومشاهدة كل ما يجري في الحلم أن يعتقد أنه ذو شخصيتين: الشخصية الأولى؛ هي القالب المادي، والشخصية الثانية؛ هي التي تتراءى له في الحلم، وبعدما عرف الإنسان الأول الشخصية الثانية أخذ يطبقها على الأشياء جميعها)[١].

ولذلك كانت الأحلام تدخل في وضع خطط الإنسان في الحياة، وأحياناً كثيرة ما تكون حاسمة في حياة الناس، ولا فرق في ذلك بين خاصة الناس وعامتهم، فهو منهج تفكير كان يلف الناس كافة.

وهذا الذي توصل إليه علم الحضارات قد أشار الله تعالى إليه في محكم كتابه، فسبحانه يذكر لنا ذلك عن ملك مصر الذي كان معاصراً للنبي الصديق يوسف بن يعقوب عليهما السلام، فقد كان هذا الملك يرى الأحلام المنامية، ويستدعي لها المعبرين ليأولوا له رؤياه، وكان يضع خططه وفقاً لذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۝٤٣ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ۝٤٤ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٤٦ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ

١ محمد عبدالمعيد خان "*الأساطير العربية قبل الإسلام*" ص٥٣.

يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يوسف:٤٣-٤٩ ، وبالفعل اقتنع هذا الملك بتفسير يوسف عليه السلام، وعيّنه لإدارة شؤون الخزينة والتخطيط الاقتصادي.

وأما عن عامة الناس فيخبرنا الله جلّ ذكره عن رؤى صاحبي يوسف في السجن، فيقول: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝

٣٦ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يوسف:٣٦-٣٧ ، ثم أوّلها لهما يوسف بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يوسف:٤١.

وقد شكّلت هذه الرؤى المنامية معضلة كبيرة جداً في التفكير، فهي كثيراً ما تسيطر على وجدان الإنسان، وتورثه القلق والأرق، وتدفع به إلى اتخاذ قرارت بعيدة عن هداية العقل ومنهج التفكير السليم، ولذلك جاء القرآن الكريم لعلاجها، وقبل الشروع في الحديث عن هذا العلاج الرباني يجدر بنا أن نعطي ملخصاً عن أنواع هذه الأحلام.

أنواع الأحلام والرؤى المنامية

تأتي الأحلام والرؤى المنامية على ضروب كثيرة جداً؛ منها:

١. أضغاث أحلام: وهو الغالب على ما يراه الإنسان، حيث إنه وهو يسعى في الحياة أثناء يقظته، يباشر الأمور بوعيه الكامل، ويتصرف بدافع تفكيره الذي يسيطر عليه، ولكنه عندما ينام، تنام كثير من حواسه وتنعدم سيطرته على تفكيره، فيأخذ الذهن الإنساني في الجولان باسترداد كثير مما عاينه في يقظته، ولأن الإنسان لا يسيطر على عقله

وهو نائم، فإن الأمور تتداخل مع بعضها البعض، فتتضخم أمور بسيطة في يقظته، وتضمر أمور مهمة.

مثلاً: لو حدث أن زرتُ عالماً في اليقظة، وسلّمتُ عليه، وانتبهتُ لما يقول، وسرد بعض القضايا التي يمكن أن أستفيد منها في حياتي، وفي أثناء حديث هذا العالم دخل طفل صغير إلى المجلس بسرعة، وخرج فوراً.

فعندما أنام يمكن أن أرى هذا العالم خطفة سريعة جداً بحيث لا تلفت الانتباه، بينما يسيطر على حلمي ذلك الطفل، وأراه وقد جرت له أحداث كبيرة، وتتداخل مع هذه الأحداث قضايا قديمة، وأشياء لا أتذكر حدوثها لي في اليقظة... وهكذا.

وأضغاث الأحلام أمور لا يمكن أن يمسك منها بشيء، فهي أشبه بالخيال الذي يرد في الأساطير، أو تلك الخيالات التي يتغنى بها الشعراء، ولذلك وصف المشركون القرآن – في محاولة طعنهم فيه– بأنه أضغاث أحلام وهينمة شاعر، فـ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ الأنبياء: ٥.

٢. انعكاس للبيئة المحيطة بالإنسان: وذلك أن الإنسان عندما ينام لا تذهب حواسه كلية، بل تبقى قادرة على استقبال الأحوال المحيطة بالنائم إلى حدٍ ما.

مثال على ذلك: عندما ينام الإنسان قد يرى نفسه في نومه أنه موجود في منطقة ثلجية، يعاني فيها من هذا الزمهرير المحيط به، وفجأة يأخذ الثلج في الانهيار، ويصدر في أثناء انهياره صوتٌ قويٌ جداً.

وكل هذا ليس أكثر من انعكاس للبيئة التي ينام فيها هذا الإنسان، فهو ينام تحت جهاز تكييف برّد المكان بشدة أثّرت عليه، فأحسّ بها في رؤياه على هيئة برودة قارسة، وأما

بياض الثلج فلأنه لم يغلق الإضاءة فتسربت آثارها إلى عينيه، وأما الصوت الهادر فليس أكثر من صوت جهاز التكييف أو مُنبه الإيقاظ أو رنين الهاتف.

٣. استدعاء الماضي القريب أو البعيد: من حكمة الله في الإنسان أن وهبه النسيان، حتى يستطيع أن يتجاوز الكثير من الآلام والمنغصات، إلا أنه في عقله الباطن أو ذاكرته الخلفية لا ينسى هذه الأمور، وإنما يتم خزنها في الذاكرة، وعندما ينام يبدأ في استدعاء ما حدث له، وقد يستدعي أموراً حدثت له حال طفولته، وتتداخل الأحداث في المنام، فيرى أموراً حدثت له في مراحل زمنية متباعدة كأنها حدثت متسلسلة متتابعة، أي أن العقل يعيد أثناء النوم إخراج لقطات من وقائع الحياة في فيلم سينمائي جديد على الرائي.

٤. انعكاس الحالة النفسية: الإنسان يجوع ويمرض ويفرح ويحزن، ويتقلب في حالات نفسية كثيرة جداً، وإذا بهذه الحالات تنعكس عليه، وتأتيه مختلطة في حال نومه.

فلربما رأى الشخص في منامه يأكل صنوفاً من الأطعمة؛ وما ذلك إلا لأنه نام وهو جائع، أو يحلم بأنه يبكي؛ بسبب نومه وهو في حالة حزن من أمر ما، وهكذا..

٥. ما قد يشير إلى حركة الإنسان: ونقصد بذلك أن الإنسان يرى أموراً يقع فيها ما قد يأتي تأويله مستقبلاً، وهذه تأتي على ضروب أيضاً:

– فمنها: ما يأتي بإشارات خفية يحسها الإنسان ولا يعرف حقيقتها إلا عند وقوعها.

– ومنها: ما لا يحسها ولكن تتكشف له بعد وقوعها.

– ومنها: ما يتحقق صريحاً.

– ومنها: ما يأتي رمزاً.

وهذه الأمور حاصلة للإنسان، وما من أحد إلا وقد وقع له البعض من ذلك، وهذا ما يجعل الإنسان غير قادر على أن يتخلص من آثار أحلامه ورؤاه، فهذا الضرب اليسير من

رؤاه يعممه على كل أحلامه المنامية، فتقع يقظته أسيرة نومه، وتصبح حياته تسيِّرها أشباح الأحلام وخيالاتها، ومن كان هذا شأنه عاش في قلق نفسي واضطراب عصبي مستمرين.

وهذا النوع من الأحلام ذات التأويلات المستقبلية -على حدِّ علمنا- لم يجد العلم الحديث لها تفسيراً حتى الآن، مع أنه قطع شوطاً كبيراً في تفسير حدوث أصناف كثيرة من الأحلام.

و(هذه الأحلام التنبئية -وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية[١] لم يستطع إنكار وجودها- كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد، كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل، أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل؛ ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء!.

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى.

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة، والجري وراء كل أسطورة، إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً، لا ينفي على الإطلاق، ولا يثبت على الإطلاق، حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه؛ أو يسلم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته، ويعرف حدوده، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه)[٢].

---

١ نحن نتحفظ على وصف الجوانب النفسية والمعنوية الإنسانية بالروحية، لأن الروح من غيب الله الذي لم نقف عليه، اللهم إلا إن استخدمنا هذا الوصف على سبيل المجاز.

وعلى كلٍّ؛ تقسيم الإنسان إلى جسد وروح، ومادة ونفس، هي تقسيمات اعتبارية مدرسية؛ أي توضيحية، وإلا فالإنسان كل واحد، يؤثر بعضه على بعض.

٢ سيد قطب "*في ظلال القرآن*" ج١ ص ٩١.

تأويل الأحلام والرؤى المنامية

علينا أن نعلم علم اليقين أنه لا يمكن للإنسان -كائناً من كان- أن يعلم الغيب من الرؤى المنامية، فالله وحده من استأثر بعلم الغيب، وقد بينّا ذلك خلال هذا الكتاب بالأدلة المستفيضة، ولا داعي لإعادتها هنا، وعلى كلٍ فاستئثار الله وحده بالغيب هو مما يجب علمه بالضرورة من الدين، ومن المسلّمات الأولى في الإسلام.

فالرؤيا وإن كان قد يقع تأويلها بعد حين، إلا أنه لا يمكن أن يعلمه الإنسان قبل وقوعه، اللهم إلا الأنبياء عليهم السلام الذين يأتيهم تأويلها بالوحي من الله تعالى، ألا ترون أن يوسف عليه السلام في تأويله الرؤيا يقول: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ يوسف: ٣٧، فيوسف عليه السلام ما كان ينطق بذلك من نفسه، وإنما هو علم أوحاه الله إليه.

وكذلك إبراهيم عليه السلام لم يأوِّل رؤياه من نفسه، بل هي من أمر الله، وكان ابنه إسماعيل عليه السلام يعلم هذه الحقيقة، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى حاكياً عن إبراهيم وابنه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ الصافات: ١٠٢، إذن إسماعيل خضع لأبيه لأن الرؤيا جاءت بأمر من الله.

وحتى لا يأتلي الناس على الغيب حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من تفسير الرؤيا بغير علم فقد روى الربيع (٣٦): أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أفتى مسألة أو فسر رؤيا بغير علم، كان كمن وقع من السماء إلى الأرض فصادف بئراً لا قعر لها، ولو أنه أصاب الحق).

وهذا الحديث متوافق تماماً مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء: ٣٦ ومع قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ

مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ النجم: ٢٨، ونحو ذلك من آيات الكتاب الكريم.

ولما كان الوحي قد انقطع بدون أدنى ريب بختم النبوة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإن تفسير الرؤيا بعلم قد ختم أيضاً، وما على الناس إلا أن يهتدوا بهديه عليه الصلاة والسلام حينما قال: (الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاث مرات إذا استيقظ، وليتعوذ بالله من شرها؛ فإنها لن تضره إن شاء الله)[١].

ومن المعلوم أن الضرر هنا نفسي، فقد كانت الأحلام تقلق الإنسان، فوجههم النبي الكريم إلى الاستعاذة بالله من هذه الأحلام، وأن يرميها الحالم جانباً كما يلفظ تفّاله، والتفل رمز الإلقاء وعدم الاهتمام بالحلم والاشتغال النفسي به، ولذلك قال أحد الصحابة لما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يوجهه إلى ذلك: (إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليّ من الجبل، فلما سمعت هذا الحديث، فما كنت أبالي بها)[٢].
وبذلك يتبّين أن الرؤى المنامية لا ينبى عليها أي حكم؛ سواء كان دنيوياً أو دينياً، وإنما جاء التوجيه بالتعوذ مما عسى أن يثير حزن الإنسان وقلقه من هذه الرؤى.

وقد نقل الشيخ السالمي في شرح المسند (أنه قد وقع في زمن العز بن عبدالسلام أن رجلاً رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال له: اذهب إلى موضع كذا فاحفره فإن فيه ركازاً، فخذ ذلك ولا خُمس عليك فيه.

فلما أصبح ذهب إلى ذلك الموضع فحفره فوجد الركاز، فاستفتى علماء عصره فأفتوه بأنه لا خُمس عليه لصحة الرؤيا!، وأفتى الشيخ ابن عبدالسلام بأن عليه الخُمس، قال:

---

١ الربيع (٥٣).
٢ الربيع (٥٣).

وأكثر ما ينزل منامه منزلة حديث روي بإسناد صحيح، وقد عارضه ما هو أصح منه، وهو الحديث المخرج في الصحيحين "في الركاز الخُمُس")[١].

وعقّب الشيخ السالمي على هذه القصة فقال: (والحق عند ابن عبدالسلام إلا في قوله بتعارض المنام والحديث، فإنه لا تعارض هنا لأن الأحكام لا تُبنى على المنام، وقد تقررت الشريعة واستقرت بانقضاء أجله عليه الصلاة والسلام، فلا ناسخ بعده، ولا مخصص لانقطاع الوحي واستقرار الشرع)[٢].

ويضرب الشيخ السالمي مثالاً لتوضيح الفكرة فيقول: (أرأيت لو رأى رجل أن النبي قال له: "إن في الموضع الفلاني دن خمر وهو لك خاصة مباح" أيحل لهذا أن يشربه؟! كلا وربي وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيح ما حرم الله، وفي المنام عجائب، وقد يظن الرائي أنه رأى النبي وليس هو كذلك، لكن جهله به أوقعه في الوهم)[٣].

وبقي أن نبيّن أن هناك روايات جاءت بأسانيد صحيحة، فيها أن الرؤيا الصالحة جزء من النبوة، كالرواية التي رواها الإمام الربيع (٥٢): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة).

وهذا ولا ريب تعبير مجازي، يُقصَد منه أن من الرؤى ما قد يتحقق تأويلها، ولكن هذا لا يدل بأي حال أنه يؤخذ منها أحكاماً شرعية أو دنيوية أو أنها تكشف للإنسان غيباً من الغيوب، لأن النبوة كما هو معلوم من الدين بالضرورة قد خُتمت، ولا سبيل إلى شيء

---

١ السالمي "*شرح الجامع الصحيح*" ج٢ ص ٦٢. وحديث "في الركاز الخمس" رواه **الربيع** (٣٣٨).

٢ **المرجع السابق** ج٢ ص ٦٢.

٣ **المرجع السابق** ج٢ ص ٦٢.

من الوحي بعده عليه الصلاة والسلام، وهذا ما يشير إليه صراحة كلام الشيخ السالمي الآنف الذكر.

وكذلك الرواية ؛ الربيع (٥١): أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاة الغداة قال: (هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟) ويقول: (إنه ليس يبقى من بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة).

تحمل على ما ذكرناه سلفاً، وإلا وقع التناقض بين هذه الروايات وبين نصوص الكتاب العزيز، ومحال أن يناقض الرسول عليه السلام كلام ربه العلام، فإن (سنة النبي صلى الله عليه وسلم موافقة لكتاب الله ؛ لا يخالفه صلى الله عليه وسلم)[١]، و(السنة مأخوذة من الكتاب)[٢]، وهي (عمل بكتاب الله، وبه وجب اتباعها)[٣].

وليس في هذه الروايات أيضاً ما يدل على الدعوة إلى تفسير الأحلام والرؤى، بل جاء النهي عن ذلك والتحذير الشديد منه صريحاً كما بينّا، ولذلك يجب على المسلم أن يلزم شرع ربه العزيز الحكيم بأن لا يسارع إلى تفسير الأحلام والرؤى، وقد انقطع علم تأويلها بختم النبوات، وإنما عليه أن يستعيذ بالله مما قد يجد منها إن كانت غير حسنة في نظره، وإن كانت حسنة فليحسن الظن بربه، ويرجو منه تعالى أن يرزقه خير تأويلها، وكل ذلك دون أن تشغل نفسه.

وبذلك يتضح خطأ مسلك أولئك الذين نصبوا أنفسهم مفسرين للأحلام والرؤى، فمن أين جاءهم علم ذلك، أوَحيٌ يتنزل عليهم، أم أنهم يخرصون؟!.

---

١ ابن جعفر "الجامع" ج١ ص ١١٠-١١١.

٢ ابن بركة "الجامع" ج١ ص ٢٨٠.

٣ المرجع السابق ج١ ص ٢٨٠.

يقول الشيخ أحمد بن حمد الخليلي : (إن القول في الرؤيا بغير علم عظيم الوزر، ولو ظن القائل أنه وافق الصواب، بل ولو وافقه فعلاً، كما يدل على ذلك ما أخرجه الربيع عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد رحمهم الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أفتى مسألة أو فسر رؤيا بغير علم؛ كان كمَن خرّ من السماء إلى الأرض فصادف بئراً لا قعر لها، ولو أنه أصاب الحق"، وذلك لأنه مما يدخل في التقوُّل على الله بغير علم، وما هو إلا من أمر الشيطان، فإن الله يقول فيه: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٦٩، وقرنه سبحانه بالشرك في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: ٣٣، وإنما كان تفسير الرؤيا كالإفتاء، لأن في كل منهما اجتراءً على الله سبحانه إن كان بغير علم، فإن الإفتاء إخبار بحكم الله فيما يحتاج إليه العباد حتى يكونوا على بينة من الفعل أو الترك، وتفسير الرؤيا إنباء عن أمر الله)[1]، والإنباء عن أمر الله لا يمكن تحصيله إلا بوحي منه سبحانه، وأنّى ذلك وقد ختمت الرسالة وانقطع الوحي؟!.

يقول الفقيه صالح بن سعيد: (وأما علم الرؤيا فمختلف فيها، بعض قال: منسوخة. وبعض قال: ثابتة. وهي ضرب من الوحي)[2].

وقول البعض: إنها منسوخة. أي لا تعتبر أصلاً، وأما قول الآخرين: بأنها ثابتة. فيعني أن لها دلالات تأويلية، ولكن لكونها تحتاج إلى بيان من الوحي، وقد ختم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فلا يمكن أن يتوصل إليها، اللهم إلا ما تجلى تأويله بمرور الأيام، والله أعلم.

---

١ أحمد بن حمد الخليلي "*التحذير من كذبة إبريل*" ص٨٤–٨٥.

٢ البشري "*مكنون الخزائن وعيون المعادن*" ج٣ ص١٦٧.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى خطورة تصديق تلك الكتب التي تسمى بتفسير الأحلام كالكتاب المنسوب إلى ابن سيرين زوراً، وكذلك علينا أن نحذر من مواقع تفسير الأحلام عبر شبكة الإنترنت والقنوات الفضائية، والمتصدرين لتفسير الأحلام؛ رجالاً ونساءً، فما هؤلاء إلا راجمون بالغيب، ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ النساء: ١٥٧ و﴿إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾ الزخرف: ٢٠، ونقول لهؤلاء: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ۝ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الصافات: ١٥٤-١٥٧.

الأنبياء يعالجون ظاهرة الأحلام

وهكذا رأينا رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم قد عالج بحكمته النبوية أمر الرؤى والأحلام، ومن ذلك يستفاد:

- أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

- الأحلام والرؤى المنامية لا تكشف الغيب أبداً.

- هناك أحلام توسوس بها النفس؛ وعلى الإنسان أن يستعيذ بالله مما يجد فيها إن كان لا يسره.

- وهناك أيضاً رؤى قد تحمل تأويلاً يتحقق مستقبلاً، وعلى المسلم تجاهها أن يحسن الظن بربه جلَّ وعلا، وليس له أن يفسرها من تلقاء نفسه، لأن الوحي قد انقطع والنبوة ختمت قطعاً.

وكما قلنا سابقاً؛ إن الأحلام والرؤى كانت تتداخل مع الواقع، وكان الناس يبنون عليها أحكامهم، ولربما صدّتهم الأحلام عن اتباع نهج المرسلين، ولذلك عمل أنبياء الله

على علاج هذه المشكلة، برد علم تأويل الرؤى إلى الله تعالى وحده، وقد كشف سبحانه وتعالى أن الناس لا يعلمون تأويل الأحلام والرؤى من ذات أنفسهم، فكان هؤلاء الأنبياء الكرام يوجهون الناس الوجهة الصحيحة، وهي أن من له حق تفسير الأحلام وتأويل الرؤى المنامية هو الله وحده عن طريق وحيه إلى رسله الأخيار عليهم السلام، ألا ترون أن الله أخبر المسلمين بصدق رؤيا نبيه صلى الله عليه وسلم بفتح مكة المكرمة، ولو كان قد وقر في نفوسهم علم النبي بتأويلها من ذات نفسه لما كان تشككهم؛ أو تشكك بعضهم، بل لما جاز أصلاً، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ الفتح: ٢٧.

وبهذا المنهج استطاع الأنبياء الكرام أن ينتقلوا بالبشرية من ظلام الأوهام والظنون إلى نور العلم ومناهجه السليمة وسبله القويمة، فإن كان أنبياء الله كما يعلنون ذلك بأنفسهم إنما يستمدون علمهم بتأويل الرؤى من ربهم جلَّ وعلا، وليس لديهم علم من ذات أنفسهم، فأجدر بغيرهم أن يصرف نظره عن هذه الأحلام والرؤى، ويبني حياته على شريعة الله المنزلة وسننه المنبثة في الوجود.

هذا هو درب الأنبياء المستقيم، وأما غيره فهي مسالك معوجة ضيقة مسدودة.

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض للكثير من قضايا عالم الغيب وتأثيراتها على عالم الشهادة لا يسعنا إلا القول بأن هذه القضايا تحتاج منا إلى وقفة مراجعة لأن أثرها بالغ الخطورة على حياتنا، إن أجيالاً من أبناء الأمة الإسلامية مسكونة بالخوف والهلع من أوهام لا حقيقة لها، ومخطئ من يظن أن هذه الأوهام انتهت وتلاشت بانتشار العلم؛ لأنها لا تزال تعيش في ثقافتنا الشعبية والدينية على السواء.

قد يعترض علينا البعض بأن هناك من قال ببعض هذه الأشياء التي نقول إنها من جملة الخرافات، ونقول: نعم إن ذلك صحيح، وقد ذكرنا أمثلة من ذلك في ثنايا الكتاب، لكن ألا يحتاج مثل هذا الكلام إلى نظر ومراجعة؟!، وهل يعقل أن نعطل ما آتانا الله من نعمة العقل ونصدق مثل هذه الأقاويل التي تتردد في الأوساط الشعبية بعد ما أوضح الله لنا من حجج وبراهين في كتابه العزيز؟!.

نعتقد أنه قد آن أوان مراجعة الكثير من التصورات السائدة في المجتمع على ضوء هداية الكتاب العزيز، وبالطبع فإنه لا مانع على الإطلاق من المناقشة العلمية والمفاهمة والمدارسة للقضايا المطروحة، وفي النهاية فإن سنة الله هي أن ما ينفع الناس سيمكث في الأرض وما عداه يذهب جفاء ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ الرعد: ١٧.

وأفراد المجتمع جميعاً مطالبون بمراجعة المقولات التي تطرح عليهم وفحصها –ومنها ما نكتبه نحن– بموضوعية واستقلال على حسب السعة والطاقة حتى نكون بحق ممن قال فيهم المولى عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ الزمر: ١٨.

يقول في ذلك العلامة أبو سعيد الكدمي: (فالاعتبار والتدبر والتفكر والفكرة لازمة لكل متعبد في كتاب الله تبارك وتعالى، كل منهم بما بلغ إليه طوله وقدرته)[١].

فلا إكراه لأحد على اعتناق فكرة بعينها، ونحن واثقون بعون الله أن ذلك سيقود الجميع إلى فهم أعمق للقضايا المطروحة، وفتح آفاق جديدة في تناولها، وبُعد عن الانفعالات والتشنجات التي تصاحب طرحها.

ونختم كلامنا بهذه العبارة للشيخ أحمد بن حمد الخليلي؛ الموجزة في كلماتها، العميقة في معناها: (إن الأمم إنما تقوم –أول ما تقوم– على التصور الصحيح؛ ولذلك كان هدم التصورات الباطلة، وتشييد التصورات الصحيحة، أول شيء يضطلع به المرسلون، فما من رسول من رسل الله سبحانه إلا وقد واجه تصورات باطلة عششت في الأذهان، واستحكمت في النفوس، وسيطرت على الألباب، وقادت الأمم إلى حافة الانتحار، فكان أول شيء يدعون إليه بين أممهم هو أن تعرف هذه الأمم؛ من أين جاءت، وإلى أين تنتهي، وماذا عليها أن تعمل فيما بين المبدأ والمنتهى، لتقوم حياتها على التصور الصحيح)[٢].

---

١ أبو سعيد الكدمي "**المعتبر**" ج١ ص ١٦.

٢ أحمد بن حمد الخليلي "**إعادة صياغة الأمة**" ص٥.

إن ذلك الإيمان السمح الذي فهمه وتفاعل معه العالم والإنسان العادي على السواء قد تاه في الزحام، فغزته الفلسفات العقيمة واخترقته الإسرائيليات الخرافية، وضيعته الروايات الكاذبة، ففقد صفاءه ونقاءه وتحول إلى ماديات جوفاء لا روح فيها ولا حياة، إن الكثيرين اليوم - بسبب نظرتهم المادية- لا يتصورون حقيقة الإيمان إلا بوجود جن يتلبسون بالإنسان ويمكن رؤيتهم، وسحرة لهم قدرات لا حدود لها، ورقى يعالجون بها مختلف الأمراض من السرطان إلى الزكام، وكرامات خارقة هي معيار الولاية والقرب من الله تعالى.

أليست هذه هي المادية البحتة التي لا تعبر عن جوهر الإيمان وحقيقته القائمة على الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؟!.